الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid جامعة أبي بكر بلقايد

Tlemcen Algérie تلمسان الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة جامعية لنيل شهادة الماجستير

تخصص : بنية النص الصوفي في الشعر الجزائري

الاغتراب
في الشعر الصوفي الجزائري

إعداد الطالبة : سنوساوي عمارية

إشراف الدكتورة : ابن هاشم خناثة

لجنة المناقشة :

- أ.د/ عبد العالي بشير	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
- د/ ابن هاشم خناثة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	مشرفا
- د/ بورديم عبد الحفيظ	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	مناقشا
- د/ أحمد قريش	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	مناقشا
- د/ العربي الشريف	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	مناقشا

السنة الجامعية : 1433-1434هـ/2012-2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى:

والدي الكريمين

إلى زوجي وابني العزيزين

إلى كل إخوتي

إلى أساتذتي إلى زملائي وزميلاتي وإلى كل الأصدقاء

أهدي هذا البحث المتواضع راجية من المولى

عز وجل أن يجد القبول والنجاح

كلمة شكر

" و لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابي لشديد "

صدق مولانا العظيم

نشكر الله تعالى و نحمده على التوفيق

ونتقدم بالشكر الجزيل و التقدير إلى

الأستاذة الفاضلة المشرفة خنائة بن هاشم

و أتقدم بالشكر و العرفان إلى لجنة المناقشة

وكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث من قريب أو بعيد،

و الله أسأل أن يجزي الجميع خير الجزاء .

مقدمـــــة

كثيرا ما نستغرب احتفاظ القصيدة العربية بظاهرة الوقوف على الطلل، وحتى الذين أرادوا أن يكسروا العادة لم يستطيعوا، ووجدوا أنفسهم في لحظة من لحظات الاشتياق للزمن الأول يقفون باكين على الماضي ينشدون الانتماء إليه.

فالشاعر العربي القديم في مناجاته للطلل وبكائه على الديار إنما أراد أن يجسد شعوره بالاغتراب النفسي المتمثل في حنينه للزمن الجميل (المثل الأعلى) أو اغترابه الاجتماعي في بحثه عن الانتماء، أو اغترابه الفكري الذي أنتج إبداعا فاز باهتمام الآخر وإعجابه لدرجة تعليق القصائد على جدار الكعبة المشرفة . وظلّ الاغتراب ملازما للشاعر صاحب النفس التواقة للأفضل غير الراضية عن الواقع، وخصوصا ذاك الشاعر المعرض عن الدنيا الراغب في منزله أول " الجنة". ولعل ما لفت انتباهي كثرة ورود لفظ الغربة والاغتراب في الشعر الجزائري الصوفي قديمه وحديثه ومعاصره .

والسؤال: كيف عبر الشاعر الجزائري عن اغترابه ؟

وكيف كان بناء نصه الشعري ؟

هل كان اغترابه إيجابيا أنتج إبداعا مميزا؟

أم أن اغترابه كان سلبيا جعله يتكلم لغة لا يفهمها أحد غيره ؟

هذه التساؤلات وغيرها هي التي جعلتني أختار الاغتراب موضوعا لبحثي فكان العنوان كالأتي: "**الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري**".

ولقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي ، ولكن لا أحد ينكر قصور المنهج الواحد عن الإلمام الكامل بجوانب البحث لذلك ارتأيت أن أكامل بين المناهج.

ولقد كانت هناك دراسات كثيرة للشعر الجزائري الصوفي أخص منها: " شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)" للدكتور"**مختار حبار**"، " الشعر الصوفي في الجزائر

في العهد العثماني" للدكتور "**مختار حبار**" ، "الشعر الديني الجزائري الحديث" للدكتور "**عبد الله الركيبي**"، و"الشعر الصوفي الجزائري المعاصر المفاهيم والانجازات" للدكتور "**ياسين بن عبيد**".

ولا يخلو أي بحث من المصاعب ولعل أكبر عائق واجهني في هذا البحث هو قلة المصادر والمراجع التي تتناول الشعر الجزائري الصوفي، كما أن مجال التصوف بحر عميق يستدعى من الباحث فيه الجهد الكبير والوقت الطويل.

وقد تم تقسيم هذا البحث إلى مدخل وأربعة فصول.

تطرقنا في مدخل إلى ضبط ما استعجم من مصطلحات البحث من قبيل مفهومي الغربة والاغتراب وعلاقتها بمفاهيم أخرى كالانتماء ، والاستلاب ، والاكتئاب .

أما الفصل الأول فقد تمحور حول موضوع الاغتراب بأبعاده النفسية والاجتماعية فإن كان الشاعر في تجربته الاغترابية مناقضا لمسار الأخر فهو في الوقت ذاته في صراع مع نفسه ، وبمنظور نفسي بحت كان في بحثه الدائم عن ماهيته التي تقرر هويته وتبرر لوجوده عبر امتداد الزمان والمكان .

أما الفصل الثاني فقد تطرقنا فيه إلى مفهوم الاغتراب الديني حيث تمت الدراسة على مستوى مرحلتين من تاريخ الجزائر كان الاستقلال فاصلا بينهما فاغتراب شعراء ما قبل الاستقلال الذي كان مشوبا بمقاومة المستعمر والتطلع إلى الحياة في وطن متحرر من سلطة الكافر هو غيره اغتراب شعراء ما بعد الاستقلال الذين عانوا تجارب متنوعة ومغايرة من الاغتراب وجسدوها في قصائدهم .

أما الفصل الثالث فكان للاغتراب العرفاني حيث تتبعنا خطى التصوف في الجزائر منذ النشأة وصولا إلى العصر الحديث والمعاصر. فالتجارب الذوقية المجسدة في إنتاج شعراء المراحل المختلفة من تاريخ الجزائر عبرت كل واحدة منها عن اغتراب مختلف عن الأخرى لتجتمع في النهاية عند اغتراب إيجابي.

أما الفصل الرابع الذي تناول الاغتراب ببعده الجمالي فقد تمت الدراسة على مستوى اللغة المستعملة في بنية النص الشعري الصوفي ، ودلالاتها الاغترابية ، فمجمل القصائد التي تناولناها بالتحليل كانت النزعة الاغترابية ظاهرة فيها سواء على مستوى التراكيب اللغوية أو على مستوى الصورة الشعرية أو على مستوى الرمز ودلالاته، ولقد برع الشاعر الجزائري في توظيف طاقاته الشعرية ومخزونه اللغوي المستمد من بدايات الشعر العربي القديم في إبراز اغترابه الديني والنفسي والاجتماعي فخرج بتجربته من مستواها الشخصي إلى مستوى إنساني سامي .

وقد ختم البحث بحوصلة ما توصل إليه من نتائج وكانت خاتمة بحثنا تصديقا للفرضية التي جعلت من تجربة الاغتراب في الشعر الجزائري تجربة إيجابية ساهمت في تفجير قريحة قائمة عريضة من الشعراء الجزائريين، وساهمت في نقل تطلعاتهم بغد أفضل تتسامى فيه الروح وترتقي في تواصل سرمدي وعشق إلهي طاهر لا يشوبه انتقاص.

لقد كان بحثنا هذا مقاربة لتجارب ذوقية مميزة أثرت الشعر الجزائري، ومحاولة جدية لإزاحة الستار عن دوافع اعتملت في أعماق الشاعر الصوفي فانعكست على إنتاجه الأدبي وجعلت منه إنتاجا إنسانيا بامتياز ، وبقدر عمق هذه التجربة كانت هذه المقاربة تسعى لإيضاح جوانبها أكثر مما تسعى إلى اكتشافها وسبر أغوارها، ولا ندعي أننا قد استفينا كل الجوانب التي كانت موضوع البحث، فالتجربة من العمق ومن التعقيد بحيث لا يزال الموضوع مطروحا للتحليل والنقاش، والله ولي التوفيق.

تلمسان في: 20-10-2011

الإمضاء

سنوساوي عمارية

المدخل

ما بين الغربة والاغتراب

الاغتراب تجربة ضاربة بجذورها في أعماق النفس البشرية، فمنذ أن وطأت قدم الإنسان وجه البسيطة، وبدأ صراع قابيل مع هابيل،الذي تلاه الندم والحيرة وتأنيب الضمير، والإنسان يعيش رحلته مع الاغتراب والذي لا يكاد يخلو منه مجتمع من المجتمعات. فهو في البنية العميقة له"بل إنه دافع من دوافعه الأساسية، يختلف من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر ذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات وبطريقة العصر وما يحويه من قيم وأعراف ومعارف"[1].

ومن هنا يصعب تحديد مفهوم الاغتراب وإن اتفقت المعاجم العربية على مفهومه اللُّغوي، فهو البُعد والنّوى والغربة عن الوطن. ففي"**معجم العين**" لـ"**خليل بن أحمد الفراهيدي**" يشرح " والغربة : الاغتراب من الوطن، وغرُب فلان عنا يغرب غربا،أي تنحّى، وأغربته وغربته، أي نحيته : والغربة النوى والبعد"[2].

ويعرفه "**ابن منظور**" في "**لسان العرب**" في مادة غرب "الغرب: الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غرب عنا، يغرب، غربا، وغرب وأغرب وغربه وأغربه أي نحاه، والغربة والغرب النزوح عن الوطن والاغتراب، واغترب الرجل نكح في الغرائب وتزوج في غير أقاربه، وأغرب الرجل جاء بشيء غريب "[3].

1- عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، منشورات جامعة باتنة ،د ط، د ت، ص:13.

2- الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، المجلد الثالث ، ض- ق ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط: 1 ، سنة : 2003، ص: 271.

3- ابن منظور : لسان العرب ، الجزء الخامس ،باب الغين ،مادة غ ر ب ، دار المعارف القاهرة ،مصر ،ط:02 ،سنة: 1981، ص: 3225.

وفي "**مختار الصحاح**" لــ"**الرازي** في مادة غرب"(تغرب) و(اغتـــرب) فهـــو غريـــب و(غرب) بضمتين والجمع (الغرباء) والغرباء أيضا الأباعد و(اغترب) فلان إذا تزوج إلـــى غير أقاربه...والتغريب النفي عن البلد و(أغرب) جاء بشيء غريب، وأغرب صار غريبا، وأسود (غربيب) بوزن قنديل أي شديد السواد "[1].

أما "**الزمخشري**" في "**أساس البلاغة** " فيرى " (غ ر ب) كففت من غربـــه أي مـــن حدته واقطع عني غرب لسانه ، وإني أخاف عليك غرب الشباب ...

ورمى فأغرب:أي أبعد المرمى، وتكلم فأغرب: إذا جاء بغرائب الكلام ونـــوادره... وقد غربت هذه الكلمة أي غمضت فهي غريبة.

وأغرب الفرس في جريه، والرجل في ضحكه، إذا أكثر منه وهي من الاستغراب في الضحك وهو أقصاه"[2]، ومنه فإن أي شيء يبلغ مداه فهو غريب.

هذا عن الكلمة في الأصل العربي، أما إذا بحثنا عنها في الأصل اللاتيني فسنجد أن الفعل يغترب alienate يعني حرفيا يغدو غريبا أو يجعل شيئا ما ملكا للآخر. الاغتـــراب alienatio والذي يستمد معناه من فعل alienare بمعنى تحويل شيء ما لملكية شـــخص آخر أو الانتزاع أو الإزالة وهذا الفعل مستمد بدوره من فعل آخر هو alienus أي ينتمـــي إلى شخص آخر أو يتعلق به،وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ Alius الـــذي يعني ا لآخر سواء كاسم أو كصفة .

1- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الإرشاد، حمص سورية ، ط: 1 ، سنة : 1989م ، ص: 351.

2- أبو القاسم محمد بن عمر جار الله الزمخشري: أساس البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط: 1، 1998، مادة غرب، ص:380.

واللفظ الألماني *fremd* يماثل اللفظ اللاتيني ***alienus*** واللفـــظ *الانجليـــزي alien والذي يعني الانتماء إلى الآخر أو التعلق به* ، وقد استخدم *أصلا ليشـــير بصـــورة* حرفية *إلى كل ما هو أجنبي* .

واللفظ *Entfremdung الألماني الذي يعني الغربة واللفظ Alienation الانجليزي الذي يعني الاغتراب والأفعال* المشتقة *منهما متماثلة للغاية*[1] .

ويشرح قاموس" **أكسفورد**" للغة الانجليزية ".alienable adj قابل للتحويــل (يمكــن تحويل ملكيته من شخص إلى أخر) ... Alien dj أجنبي ،غريب ، دخيل" [2].

فإذا خرجنا من اللغة ودخلنا للاصطلاح فإن مفهوم الاغتراب يلبس معاني مختلفة وذلك على حسب ناسجهه،ومستعمله ومحلله من رجال دين وفلاسفة وشعراء وغيرهم.

1) **<u>الاغتراب في المفهوم الديني:</u>**

تتفق الأديان الثلاثة (**الإسلام،والمسيحية، واليهودية**) على أن الإنسان غريب في هذه الدّنيا وأن شعوره بالاغتراب متأصل في ذاته منذ أن هبط من الفــردوس وســكن الأرض وروحه تتوق إلى العودة من جديد إلى موطنها الأصلي" **غريب أنا فـــي الأرض، لا تخـــف عني وصـــاياك** "[3]، فالغربة ألم وانتظار للعودة إلى حال الطمأنينة والسكينة فهــذه الـــروح غريبة داخل هذا الجسد" **وأقول لكم: أسلكوا في الروح ولا تشبعوا شـــهوة الجســـد فمـــا يشتهيه الجسد يناقض الروح وما تشتهيه الروح يناقض الجسد، كل منهما يقاوم الأخـــر لئلا تعملوا ما تريدون** "[4].

---

1 ينظر: ريتشارد شاخت : الاغتراب ، ترجمة : كامل يوسف حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط:1 ، سنة : 1980، ص: 15 -63-67.

2 -OXFORD STUDY ,ACADEMI DICTIONARY, ENGLISH-ARABIC ، P :37.

3- العهد القديم ،سفر المزامير ،المزمور المائة والتاسع عشر .

4- العهد الجديد ، أعمال الرسل ، رسالة بولس إلى غلاطية.

فهذا التناقض بين الروح والجسد يُنشِئ صراعا يتولد عنه شــعور بــالاغتراب عنــد الإنسان والذي لم يبرحه منذ أن نزل آدم –عليه السلام- إلى الأرض بعد أن عصـــى أمــر ربه قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1].

فالمتاع ليس بدائم فكل شيء إلى زوال﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2].

فهذا الذهاب إلى القبر والتنحي عن المكان المألوف هو ما يجعل مــن الــدنيا دار غربة. فالإنسان" من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلـــى ربـــه ، ومـــدة سفره هي عمره الذي كتب له فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه تعـــالى ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل سفره ، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يـــزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي سفره "[3].

فهذه النفس المغتربة عن موطنها لا ترتاح إلا إذا رجعت إليه قال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِـــي جَنَّتِي﴾[4]

فإحساس نفس المؤمن الدائم بالرحيل في أية لحظة يجعلها تعيش القلق ، وخاصـــة إذا كان ما حولها مناقض لها ، وهذه الغربة التي مدحها الإسلام ، وأثنى على من يتمسك بدينه في زمن الغربة والاغتراب كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن عبد الله بن عمرو قال:كنتُ عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا ، فطلعتِ الشَّمسُ فقال : يأتي قومٌ

1- سورة البقرة، الآية:36.
2- الرحمن، الآية: 26-27.
3- شمس الدين أبي عبد الله بن القيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين ، تحقيق : عبد الكريم الفضيلي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت ، د/ط ، سنة 2003، ص: 222.
4- سورة الفجر ، الآية : 27-28-29-30 .

يومَ القيامةِ نورُهم كنورِ الشَّمسِ . قال أبو بكرٍ : نحن هم يا رسولَ اللهِ ؟ قـــال: لا، ولكـــم خيرٌ كثيرٌ، ولكنَّهم الفقراءُ المهاجرون الَّذين يُحشَرون من أقطارِ الأرضِ. فذكر الحـــديثَ . وزاد ثمَّ قال : طوبَى للغُرَباءِ .قيل : من الغرباءُ ؟ قال : أُناسٌ صالحون قليلٌ في ناسِ سوءٍ كثيرٍ من يعصيهم أكثرُ ممَّن يُطيعُهم "[1]فهم أناس يعانون من غـــربتهم الاجتماعيـــة ولكـــنهم يحققون أمنهم النفسي بأدائهم لحق ربّهم عليهم فهم في جهاد مع النفس ، وفـــي جهـــاد مـــع الكفر ، فإن عاشوا غرباء ماتوا مطمئنين تنتظرهم جنة الخلد موطنهم الذي اغتربـــوا عنـــه أول مرة،وحتى الذي أصابه سهم غرب بشره النبي بالجنة "عن قتادة حدثنا أنس بن مالـــك: أنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بنتَ البراءِ، وهي أُمُّ حارثَةَ بنِ سُراقَةَ، أتتِ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالتْ : يا نَبيَّ الله،ألا تُحدِّثُني عن حارثَةَ- وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ، أصابَهُ سهمٌ غَرْبٌ- فإن كـــان فـــي الجنةِ صَبَرتُ، وإنْ كان غيرَ ذلك اجتَهَدتُ عليهِ في البُكاءِ ؟ قال : (يا أُمَّ حارثَةَ إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَكِ أصابَ الفِردَوسَ الأعْلَى "[2] فسهم غرب يعني لا يدرى من رمى به .

كما أنّه-عليه الصلاة والسلام- تمنى للذي مات بمسقط رأسه لو أنه مات فـــي دار غربـــة لكان أفضل. عن عبد الله بن عمرو قال:" تُوفي رَجُل بِالمَدينةِ مِمَّن وُلدَ بِالمَدينةِ فَصلَّى عَليهِ النّبي صلَّى الله عَليهِ وَسَلَّم فقال :"يَا ليْتهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ " فقَالَ رَجُلٌ مِن النَّاسِ : ولِمَ ؟ يَا رَسُول الله ، قال : " إنَّ الرّجُل إذا مَاتَ فِي غَيرِ مَوْلدِهِ قيسَ لهُ منْ مَوْلدِهِ إلَى مُنقَطَعِ أثَرِهِ فِي الجنَّةِ "[3].

1- الراوي: عبد الله بن عمرو المحدث: المنذري المصدر : الترغيب والترهيب ، الصفحة أو الرقم:138|4، خلاصة حكم المحدث :أحد إسنادي الطبراني ، رواته رواة الصحيح.

4- أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص ، رقم الحديث: 6775.

2- محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري: صحيح البخاري ، الجزء الثالث ، ضبطه مصطفى ديب البغا، نشر مشترك : مورفم للنشر الجزائر ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة ، د ط ، د ت ، ص : 1034.
الراوي: أنس بن مالك المحدث البخاري - المصدر :صحيح البخاري- خلاصة حكم المحدث: صحيح

3- محمد بن زيد القزويني بن ماجة: سنن ابن ماجة ، الجزء الثاني، تحقيق : ياسر رمضان ، محمد عبد الله ، دار بن الهيثم القاهرة، مصر، ط: 01، سنة ،2005، ص147.الراوي :عبدالله بن عمرو ، المحدث:الألباني - المصدر :صحيح ابن ماجه- خلاصة حكم المحدث :حسن.

ولعل الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري قد تجسد فيه مفهوم الاغتراب بأنواعه المختلفة فمن غربته الزمانية بعد رحيل الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلى الرّفيق الأعلى، إلى غربته المكانية والتى لازمته حتى لقي ربه،فطوبى له من غريب فرّ بإيمانه واعتصم بحبل الله واعتزل الفتنة والجدل .

كما رغب عليه الصّلاة والسلام في الزواج من الأباعد حتى يكون الولد نجيبا "حين قال:" لا تنكِحوا القرابةَ القريبةَ ، فإنَّ الولدَ يُخلَقُ ضاويًا "[1] وقوله أيضا :"اغتربوا لا تضووا... لأن الاغتراب في الزواج يوطّد العلاقات بين القبائل والشعوب بالمصاهرة والنسب"[2] والإسلام دين محبة وألفة وروابط متينة العرى وثيقة الأواصر بين أفراده وهو يرغب في كل سبيل توصل إلى التعارف ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3] فالتعارف والتقارب والتآلف طرق تنفي التباعد بين الناس،فالغريب ليس غريب الدار ولكن الغريب من كان يحمل اغترابه في ذاته، فلا يستلذ طعم الراحة وإن اجتمع مع الناس وخالطهم "بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب... بل الغريب من هو في غربته غريب"[4] وهذا النوع الأخير من الغربة هو الذي يهز أركان النفس ويبدد الطمأنينة من أرجائها،ويسكن الآلام و الكآبة كل ركن من أركانها فينغص عليها التمتع بلحظة الصّفاء، ويأتي الغريب البعيد عن الحق في أسوء أنواع الاغتراب "بل الغريب من ليس له من الحق نصيب".[5]

1- الراوي - :المحدث:ابن الملقن- المصدر :خلاصة البدر المنير الصفحة أو الرقم2/179 : خلاصة حكم المحدث : غريب [يعني لا يعلم من رواه كما قال في المقدمة] .

2- عبد الحميد خزار : فلسفة الزواج في الإسلام، دار الشهاب باتنة ، الجزائر ، د ط ، د ت ، ص: 84.

3-الحجرات، الآية : 13.

4- أبو حيان التوحيدي : الإشارات الإلهية، تحقيق : عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويتية ،دار العلم ، بيروت ، 1981، ص: 114 .

5- المرجع نفسه، ص: 114.

وهذه هي الغربة المذمومة (غربة سلبية) وهي غربة أهل الباطل وأهـــل الفجـــور بين أهل الحق.

أما غربة المؤمن بين أهل الكفر فهي الغربة الممدوحة وإن كانت شاقة على النفس ، فغربته عنهم أفضل من اندماجه معهم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَـمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ...﴾[1].

فالثبات على الحق ، والابتعاد عن الباطل هي الغربة التي مــدحها الإســلام ، أمـــا الغربة المشتركة التي لا تُمدح ولا تُذم فهي الغربة عن مرتـــع الصـــبا، ومـــوطن الأهـــل والأحباب، والإنسان لا يُقدم عليها إلا إذا أُجبر، فهي شاقة على النّفس التي تحمـــل حنينهـــا لأول منزل معها أينما حلّت وارتحلت، ولقد جعلها الحق تبارك وتعالى معادلا لقتل الـــنّفس قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيـــلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾[2].

فالخروج من الدّيار يعني الضياع وغياب الحماية والانتماء فهو أشبه بخروج الروح من بين جنبات الجسد .

<u>2)- الاغتراب في الشعر العربي</u> :

لقد عرف الإنسان العربي الغربة المكانية حيث عاش حياته متنقلا من مكان إلـــى آخر باحثا عن مواطن الكلأ والماء فألفت قدماه التّنقل ولكن قلبه بقي معلّقا دائمـــا بـــأول منزل ،فوقف على أطلاله وجعلها رمزا لاغترابه النفسي والعاطفي، وخلق لخطابه الشعري مشاركا افتراضيا حتى يشاركه غربته وليتسنى له الإفصاح عن ما في نفسه مـــن مشـــاعر

1- سورة المائدة، الآية: 41.
2- سورة النساء، الآية: 66.

الأسى والحسرة ، وهاهو "**امرؤ القيس**" يخاطب قبرا أمامه جمعته به الغربة المكانية فهــو في جبل عسيب بعد أن انفطر قلبه على موت أبيه وانكسر خاطره لانعدام المعين :

أَجَارَتَنَـــــــا إنَّ الخُطُــوبَ تَـــــنُـــــــوبُ

وَإنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَــــــامَ عَسِــيــبُ

أَجَارَتَنَــــــا إِنَّــــــــــا غَرِيبَانِ هَاهُـــــنَا

وَكُل غَرِيبٍ لِلْغَرِيـــــــــبِ نَسِيبُ

فإِن تَصِــلِينَـــا فَالقَرَابَـــةُ بَيْــنَــنَـــا

وإِن تَصْرِمِينَا فَالقَرِيبُ غَرِيـــــب

أَجَارَتَنَا مَــــا فَاتَ لَيْسَ يَـــؤُوبُ

وَمَا هُوَ آتٍ فِي الزمَانِ قَرِيــــــبُ

وَلَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارهُ

وَلَكِن مَن وَارَى التُّرَابَ غَرِيـــــبُ"[1]

فهنا **هو** يرى أن الغريب ليس من بعد عن الوطن ولكن الغريب من تخلّى عنه القريب ، وغدر به البعيد وسكن اللّحد ولم يجد عنه محيدا .

1- امرؤ القيس :ديوان امرؤ ألقيس، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ضبطه وصححه : مصطفى عبد الشافي ، د ط ، د ت، ص:49.

كما لم يغب الاغتراب بأنواعه الأخرى عن شعراء العصر الجاهلي ، فهاهم الشعراء الصعاليك يبتعدون عن قبائلهم بعد أن استحال عليهم العيش معهم، فجعلوا مـن الصـحراء القاحلة موطنا لهم ومن الوحوش بديلا عن أهاليهم يقول **الشنفرى** :

" **أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُم**

فَإِنِّي إِلَى أَهْلٍ سِوَاكُم لَأَمْيَلُ"[1]

فهو يفضل التشرد في الصحراء على البقاء في هامش مجتمع عنصري يسوده الظلم والأنانية لا مكانة فيه إلاّ لصاحب مال أو نسب.

" **ولِي دُونَكُم أَهْلُونَ سِيدَ عملَس**

وَأَرْقَطَ زَهْلُولَ وَعَرْفَاءَ جَيْأَلِ "[2]

فالشاعر يقيم علاقات جديدة مع الوحوش المفترسة والزواحف السّامة التي لا تخضع لقانون الحياة المزيف ولا تعرف الرّياء ولا التباهي ولا الكبر .

"**هُمُ الرَّهْطُ لَا مُسْتَوْدَع السِّرِّ شَائِعُ**

لَدَيْهِم ولَا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَل"[3]

فهؤلاء الوحوش هم مستدع سر الشاعر فهو يبوح لهم بما يثقل عليه حمله ،فلغتهم لغة صدق لا مجاملة ولا كذب فيها، وباطنهم كظاهرهم فلا وجود للخداع ولا للنفاق بينهم، فهم إن غضبوا ثاروا وكان باديا عليهم ما يريدونه ، وإن رضوا وشبعوا اكتفوا ولم يعتدوا، هذا

1-يوسف خليف :الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة ، د ط ،د ت ، ص:168.
2- المرجع نفسه ، ص:50.
3- المرجع نفسه، ص:50

بخلاف نفوس البشر التي لا تعرف الشبع، فالوحوش تمثل له الأمان والسّلام النفسي الــذي يفتقده بين قومه .

ويأتي الإسلام فيجعل للمرء هدفا يزيح عنه الاغتراب النّفسي،ويحكم الأواصــر بــين أفراده فينتفي الاغتراب الاجتماعي، ويجعل للفقير حق في مال الغني يدفعه له بطيب خاطر فيبعد عنه الاغتراب الاقتصادي ، فتصبح النّفس مطمئنة راضية، ويزهــد الشــاعر الــذي تحركه المشاعر في قول الشعر، ولكن سرعان ما يتغير حال المجتمع بعدما تقلبت أحــوال البلاد وكثرت الصراعات وتنافس النّاس من أجل الدنيا الفانية، فعاد الشعراء ليعزفوا لحــن اغترابهم بعدما خالجهم الشعور بالإقصاء و لا انتماء. ففي العصر الأموي يمثل "**جرير**" قمة الاغتراب الاقتصادي" فعلى الرغم من أن الشّاعر كان من شعراء البلاط الأمــوي إلا أنــه اكتوى بنار التجربة، وعانى من الاغتراب الاقتصادي الذي دفع به دفعا شديدا إلــى اتخــاذ الرحلة وسيلة ونمطا لمعالجة اغترابه "[1]، فقصد الخلفاء واشتكى ضــيق الحــال وضــياع العيال، فأمهم تنتظره لاطمة خدها لشدة ما تعانيه مع صغارها الجياع :

" أَشْــــكُــــو إِلَيْــــــــــكَ فَاشْــكِــنِــي* ذُرِّيَّـــةً

لَا يَــشْــبَعُونَ وَأُمُّـــــهُــــم لَاتَــشْــبَــــــــــعُ

كَــــثُـــــرُوا علَيَّ فَمَا يَمُوتُ كَــبِيــرُهُم

حَــتَّى الحِــسَابِ وَلَا الصَّغِــيرُ المُرْضَــــــــــــعُ

وَإِذَا نَــــظَـــرْتُ يُـــــرِيبُــنِي مِنْ أُمِّهِم

عَــــيْنٌ مُهَــجَّـــجَةٌ وَخَدٌّ أَسْــــفَــــــــعُ

1- فاطمة محمد حميد السويدي :الاغتراب في الشعر الأموي ، مكتبة مدبولي ، مصر ، ط : 1، سنة : 1997، ص:6.
*- اشكني : اقبل شكواي، المهججة : الغائرة ، الأسفع : الملطوم والمضروب .

وَإِذَا تَقَــسَّـــــمَتِ العِـــيَالُ غَـــبُوقَهَا

كَثُرَ الأَنِــينُ وَفَاضَ مِــنْهَا المَــدْمَـــــــــــــــعُ

رِشْنِي فَقَد دَخَلَتْ عَلَيَّ خَصَاصَـــــــةٌ

مـــِــــمَّا جَمَعْـــــتَ وَكُـــــــلَّ خَيْــرٍ تَجْــمَــعُ *"[1]

فالشاعر لم يجِد بُدّا من أن يشكو حاله، فيمد يده مستجديا ليسُدّ رمق عياله، ولـــيس أشـــق على نفس الحرّ من أن يرى نفسه يتذلل من أجل لقمة،وهذا ماينكأ جرحه النفسي أكثر.

ولا يمكن المرور على العصر العباسي دون الوقوف عند أبي العلاء المعري.فقد زادت ظلمة عينيه بزيادة اغتراب روحه، فصار لا يرى إلا ضلال النّاس وظلمهم :

" **رَأَيْــــــتُ الحَقَّ لُؤْلُؤَةً تَـــوَارَت**

يلــج مِن ضَـــلَالِ النَّـــاسِ جَـــم

وَقَد يَلْقَى الغَرِيبُ عَلَى من ولاه

أَعَز عَـــــلَــيْــكَ مِنْ خَـــالٍ وَعَــم"[2]

ولا يشعر بغربة الغريب إلا من ذاق مرارة الغربة وعانى ألآمها، فصارت نفســه تبحث عمن يشاركها غربتها ويقاسمها لوعتها، وقد يجد غريب المكان من يواليـــه فيكـــون أعز من قرابته وأهله.

1- جرير بن عطية بن حذيفة : الديوان ، تحقيق رمزي مكاوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،ط:1 ، سنة 1429ه ، ص: 351.

*- الغبوق : ما يشرب في العشي من لبن ، رشني : من راشه : أطعمه وكساه ، الخصاصة : الفقر وسوء الحال .

2- أبو العلاء المعري :ديوان أبو العلاء المعري ، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الكتب الجامعية،بيروت لبنان ، ط:01، سنة: 2008.

أما هناك في الأندلس فشعراؤها حملوا اغترابهم معهم، فكانت النخلة رمزا لمــدى تعلقهم بجذورهم وحنينهم لأهلهم وأحبتهم وهذا ما نطقت به قريحة "**عبد الــرحمن الــداخل**" وهو يرى نخلة وحيدة وسط الرّصافة :

" تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرّصَافَةِ نَخْلَـــةٌ تَنَاءَتْ بِأَرضِ الغَرْبِ عَن بَلَدِ النَّخْلِ

فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَّغَرُّبِ وَالنّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَن بَنِيَّ وَعَن أَهْــلِي

نَشَـــأْتِ بِأَرْضٍ أَنْتِ غَــرِيــبَــة فَمِثْلُكِ فِي الِإقْصَاءِ والمُنْتَأَى مِثْلِــي "[1]

فالأحداث السياسية التي عصفت بالدولة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كان لهــا الأثر البالغ في نفسية الشعراء، ولقد عمقت الفرقة والمكائد والحســد الشــعور بــالاغتراب أكثر،و"**ابن زيدون**" واحد من هؤلاء الذين اشتعلت أكبادهم بلهيب فرقة أحبتهم ، وامــتلأت قلوبهم جراحا من سهام حسادهم، فبكوا اغترابهم المكاني، والعاطفي، والاجتماعي:

" قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الحَشَا نُدُوبَـــــــا فِي الغَرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيبَـــــــا

عَلِيلُ دَهْرٍ سَـــــــامنِي تَعْـــذِيبَــا أَدْنَى الضَّنَى إِذْ أبْعَـــدَ الصبِيبَــا

يُـــبَرِّدُ حَــرَّ الكَــبِــدِ المَشْــبُــوبَا يَامُـــــــتْــعَــبًــا أَسَادَهُ الـــتَّأوِيبَا

مــشرقاً قَــد سَــئِــمَ التَّغْرِيــبَــا أَمَا سَــمِعْــتَ المَــثَلَ المَضْرُوبَــا

لم بَاتَ يَدْرِي لَيْلَـــه الغِرْبِيبَـــا لَــمَا انْــثَــنَى فِي سُكْرِهِ قصــيبــا"[2]

---

1 - ينظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد الثالث، د ط، 1993، ص:48.
2- ابن زيدون : الديوان ، تحقيق : الطيب عشاس ، جعفر ماجد ، الشركة التونسية للتوزيع ، د ط ، د ت، ص51.

ولقد ادلهمت خطوب الأندلس وزادت لياليها حلكة وظلمة بعد أن استشرى الـــوهن في جسد الأمة الإسلامية فانقسمت وتشتت أمرها فسهل على أعـــدائها افتراســـها، فســـلبوا أرضها ودنسوا عرضها ، فبكى أهلها اغترابهم الديني ، وشكوا حالهم قائلين :

" وَكُلُّ كِتَابٍ كَانَ فِي أَمْرِ دِينِنَــــــا

فَـــــفِي الــنَّارِ أَلْقُوهُ بِهُزْءَةٍ وَحُقْـــرَة

وَلَم يَتْرُكُوا فِيهَا كِتَابًا لِمُسْـلِــــــم

وَلَا مُصْــحَفًا يـــُخْلـــَى بِهِ لِلْقِــرَاءَةِ

وَمَن صَامَ أَو صَلَّى يُعْلَمُ حَالُهُ

فَـــــفِي النَّارِ يُلْقُــــوهُ كــُل حَالَــــةِ

وَمَن لَمْ يَجِئ مِنَّا لِمَوْضِعِ كُفْرِهِم

يُعَاقِبُــهُ اللباط شَـــــــــرَّ العُقُوبَـــةِ

وَيـــــلْطــمُ خَـــدَّيْهِ وَيـــأْخــذُ مَــــالَهُ

وَيَجْعَلْهُ فِي السِّجْنِ فِي سُوءِ حَالَــــــــةِ

وَفِي رَمَضَانَ يُفْسِدُونَ صِيَامَنَــــــــا

بـــــِأَكْلٍ وَشُربٍ مَرَّةً بَعْـــدَ مَــــرَّ ةِ"[1]

1- ينظر: محمد علي الصّلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض والسّقوط ، دار المعرفة ،لبنان، ط:5، سنة :2008، ص: 192.

ولا اغتراب أصعب على نفس المؤمن من العيش تحت سطوة كافر يسلبه أرضـــه ويمنعه من أداء شعائر دينه.

وظل الاغتراب بأنواعه المختلفة ملازما للشاعر صاحب الحسّ المرهف ، ولـــم يسلم منه شعراء العصر الحديث نظرا لما تعرضت له المنطقة من استعمار للبلاد واستدمار للقيم الاجتماعية والدينية والسياسية وغيرها فها هو "**السياب**"تتجلى غربته الحادة كما يتجلى إيمانه بوطنه،إلى جانب ذلّ حاله يقول الشاعر :

" الرِّيحُ تَلْهَثُ بِالهَجِيــرَةِ كَالجثَامِ عَلَى الأَصِيلِ

وَعَلَى القِلَاعِ تَظَـــلُّ تطوَى أَو تنشرُ لِلرَّحِـــيلِ

زَحـــم الخَلِيجُ بِهِنَّ مُكْتَدِحُونَ جُوابُوا بِـحَــار

مِن كُلِّ حَافٍ نِصْف عَـــــــــــــارِي"[1]

فهؤلاء الذين يجوبون البحار يحملون معهم فقرهم وحاجتهم ، لـــم يجـــدوا غيـــر الرحيل فهو قدرهم، والغربة تناديهم في كل لحظة من حياتهم ،والاغتراب يحتـــويهم فـــلا يترك لهم مجالا لرؤية ما وراء الأفق، صورة تكاد لا تفارق مخيلة أي شاعر عربي، فمرة يمس قلمه جرح الجماعة الكادحة ، ومرة يمس جرحه العميق فيصـــيح مـــن شـــدة الألـــم و"**البياتي**" صاح ولم يجد إلا الوحشة تغمره :

" وَحْـــــدِي بِـــلَا وَعْـــــــد أَصِيـــــحُ يَـــــا أَنـــــــت

تَـــــغْـمُـــرُنِي وَحْشَــــــةٌ وَاللّـَيْــــلُ لَــــمْ يَــــــأت " [2]

1- محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي (مرحلة الرواد) دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سنة: 1999، ص: 24 .

2- المرجع نفسه ، ص: 27.

أما شعراء الجزائر فقد فاقت غربتهم كل غربة ، فقد ذاقوا مرارة البعد والنـوى عـن الأهل والأحباب إذ تركوا بلادهم اضطرارا فهذا الأمير"عبد القـادر"الـذي واجـه فرنسـا وسامها من نصال سيفه سهام الموت يتخطف قادتها ، تنزل اليوم عبراته بعد أن اتقدت نار الشوق بين ضلوعه :

" تَذَكَّرْتُ وَشْكَ البَيْنِ ، قَبْلَ حُلُولِهِ فَجَادَتْ عُيُونِي بِالـدُّمُوعِ عَلَى الخَـدِّ

وَفِي القَلْبِ نِيرَانٌ تَأَجَّـجَ حَرُّهَا سَرَتْ فِي عِظَامِي، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى جِلْدِي

وَمَالِي نَفْـسٌ تَسْتَـطِيعُ فِرَاقَهُم فَـيَا لَيْتَ قَبْلَ البَيـنِ سَارَتْ إِلَى اللَّحْدِ

إِلَى اللهِ أَشْكُو مَا أُلَاقِي مِنَ النَّوَى وَحِمْلِي ثَـقِـيلٌ، لَا تَـقُومُ بِهِ الأَيْدِي" [1]

أما "**الهاشمي عبد القادر بن محمد**" فيرى في يتمه اغترابا وينادي الطير الدائم الترحال ليسمع شكواه ، ويشاركه ألمه :

" خطَّ الـعَذَابُ عَلَى الجَبِيـنِ رُسُومَا مُذْ صِرْتُ فِي دُنْيَا الحَيَاةِ يَتِيمَا

يَا طَيْرُ قِفْ فِي الجَوِّ وَاسْمَعْ شكْوَتِي فَـلَقَد عَرَفْتُـكَ لِلْغَرِيبِ حَمِيمَا "[2]

أما إذا نزلنا عند"**محمد العيد آل الخليفة**" وجدناه يتقلب بين نيران الاغتراب فما بـين صوفيته وبين إصلاحات جمعية العلماء المسلمين يعيش ما بين بين ، لكن غربة الاسـتعمار جعلته يتخطى اغترابا ته المتنوعة ، ويشهر سيف الكلمة فيوقظ الهمم النائمة ويجعـل زوال الاغتراب بزوال المستعمر ويدوي صوته مزلزلا عرش الطغيان:

" الأَسْرُ طَالَ بِكُـم فَطَالَ عَـنَاؤُكُمْ فُكُّوا القُيُودَ وَحَطِّمُوا الأَغْلَالَ

1- عبد القادر الجزائري: الديوان ، تحقيق : زكريا صيام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د ط ، د ت، ص:141-142.
2 - عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين ، دار هومة ، د ط، د ت ، ص : 277.

وَالشَّعْبُ ضَجَّ مِنَ المَظَالِمِ فَانْشدُوا   حُرِّيَّة تَحْمِيهِ وَ اسْتِـــقْلَالَا

لَا أَمْنَ إِلَّا فِي ظِلَالِ مُـــــرَفْـــرِفٍ   حرّ لَنَا عَالٍ يُـــنِيـــرُ هِلَالَا " [1]

وجاء الاستقلال وما رحل الاغتراب،و يئن شباب الجزائر من شدة وطأته عليهم . يقول **حمري بحري** :   " **يَئِنُّ**

يَئِنُّ القِطَارُ

يَمُرُّ لَفِيفَ الأَمَانِي عِجَافَا

يُعَانِقُهُ الاغْتِرَابُ "2

أما **محمد زيتلي** فقد أوغل فيه الاغتراب فهو منذ البدء كان غريبا ، وبحثـــه دائـــم مستمر عن لحظة استقرار.

"**غَرِيبًا مِنَ البَدْءِ كُنْتُ**

وَهَاأَنَذَا مُوغِلٌ فِي التَّغَرُّبِ

أَبحَثُ عَن لَّذَةٍ لِلضَّيَاعِ المُرَكَّبِ

عَنْ سَفَرِي يَنْتَهِي فِي زَوَايَاه صَمْتِي"[3]

ولكن "**عياش يحياوي**" جمع كل الألفاظ من معجم الاغتراب، فقد تعطر دمه بالمأساة، وفـــي العلقم المسموم اغتسل،وضمه الحزن أشلاء فبكى غربته :

1- محمد العيد آل خليفة: الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط:3، د ت، ص: 339.
2- حسن فتح الباب: شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والأفاق، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط ، 1987، ص: 156.
3- المرجع نفسه، ص: 168.

" غَرِيبٌ مِن دَمِي تَتَعَطَرُ المَأسَاةُ..تَكْتَحِلُ

غَرِيبٌ مِن حِيَاضِ العَلْقَمِ المَسْمُومِ اغْتَسِلُ

يَضُمُّ الحُزْنُ أَشْلَائِي سكَارَى ضَوْءهَا ثَمِلُ

يقطرها عَصِيرًا بَاكِيًا فِي عُمْقِهِ الأَجَلُ "1

وتبقى ظاهرة الاغتراب سمة واضحة ترافق الشاعر العربي في كل العصور مؤكدة على شفافية إحساسه، ورقة مشاعره.

3) <u>مفهوم الاغتراب عند الفلاسفة:</u>

يختلف مفهوم الاغتراب حسب اختلاف تلك الفلسفات والمذاهب ويبقى القاسم المشترك بين معاني الاغتراب التي تضمنتها الفلسفة اليونانية،والفكر الديني،والفلسفة السياسية هو الانفصال، انفصال الحسي عن المثالي، وانفصال النّفس عن عالم المُثل كما يرى "**أفلاطون**" ، أما في الفكر الديني فالاغتراب كان منذ انفصال الإنسان عن العالم العلوي ، أما نظرية **العقد الاجتماعي** فالاغتراب عندها يتمثل في انفصال الإنسان عن طبيعته الجوهرية وانتقاله من حالة الطبيعية إلى المجتمع المدني بعقد اجتماعي أساسه التنازل والتخلي عن حقوق طبيعية ومبادلتها بسلامة البدن و الثروة التي تكفله الدولة كشرطي عام وقد انتقلت هذه الفكرة – الاغتراب بمعنى الانفصال– إلى الفلسفة المثالية الألمانية، التي أصّلت حالة الانفصال فأقامت نسقا من الثنائيات المتقابلة أو المتداخلة ونظرت إلى الوجود نظرة مزدوجة تمتد جذورها في الفكر المثالي بشقيه اللاهوتي والفلسفي[2].

1- المرجع السابق، ص: 192.

2- ينظر: نبيل رمزي اسكندر : الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د ط ، سنة : 1988، ص:73.

ومن هنا نلاحظ أن مفهوم الاغتراب حمل معاني مختلفة يمكن إجمالها في ثلاث مفاهيم أساسية :

- Ø **المفهوم الأول**: بمعنى انفصال الإنسان عن العالم العلوي.
- Ø **المفهوم الثاني**: بمعنى انفصال الفرد و مخالفته لما هو سائد في المجتمع.
- Ø **المفهوم الثالث**: بمعنى انتقال الملكية عن صاحبها و تحولها للآخر.

ويعتبر "**هيجل**" أول من استخدم في فلسفته مصطلح "**الاغتراب**" استخداما منهجيا فناقش المفهوم ببعديه السلبي والايجابي ، ففي بعض الأحيان أشار به إلى علاقة انفصال أو تنافر كتلك التي تنشأ بين الفرد والمجتمع أو كاغتراب الذات الذي ينشأ بين الوضع الفعلي للمرء وبين طبيعته الجوهرية ، وفي أحيان أخرى أشار به إلى التسليم أو التضحية بالخصوصية والإرادة وخاصة فيما يتعلق بقهر "الاغتراب".

فالاغتراب بمعنى الانفصال عند "**هيجل** "هو وضع غير مقصود إنما يجد المرء نفسه داخل هذه الساحة دون إرادة ، ولا اختيار ، أما التخلي فهو يحدث بوعي تام منه وبقصد فهو يريد تحقيق غاية مرغوب فيها أي الوحدة مع البنية الاجتماعية ، ويتم التغلب على الاغتراب بصورة كلية أو جزئية من خلال التخلي.وبقي المصطلح مطويا بين مخطوطات "**هيجل**" إلى أن أتى "**ماركس**" فحوله من مفهوم فلسفي إلى مفهوم اجتماعي اقتصادي يركز فيه على الإنسان والعمل.

والاغتراب عند **ماركس** لا يتضمّن العامل وعمله فحسب وإنما هناك طرف ثالث وهو الذي يوجه العامل عمله إليه ، وإشارته التي ترد بين الحين والآخر إلى العمل المغترب باعتباره عملا عبود يا ولقد انصبّ اهتمام ماركس هنا على انفصال العمل عن اهتمامات العامل وشخصيته وبالتالي فهو مغترب عنه ، ويرى ماركس أنّ الحاجة إلى

تغيير النظام الاجتماعي – الاقتصادي للمجتمع المدني- ضرورة ويرى أن الحل يكون في الاشتراكية حسب رأيه .

وأتى بعد ماركس "**إريك فروم**" الذي استخدم مصطلح الاغتراب بطرق يبلغ تعدادها حدا كبيرا ، فهو يستخدمه ليصف علاقات معينة محتملة بين الشخص ونفسه وبين الآخرين، والطبيعة، والأشياء، ويشير بصور مختلفة إلى الاغتراب باعتباره" علاقة" ،"نمطا للتجربة"، إخفاقا في تحقيق نمط معين للتجربة، عملا، مرضا، موقفا"، و"عملية"[1] فهو يعالج الاغتراب "من خلال رؤية أحادية بمعنى أنه قد ركز فقط على الجانب السلبي من القضية ، لذلك فهو يتناول الاغتراب على أنه نوع من التّشيؤ، أو نزع إنسانية الإنسان، أما الجانب الأخر من القضية ... الذي يتمثل في اغتراب الفنان، أو رجل الثورة، أو المتصوف فهذا ما أهمله فروم"[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو هل الاغتراب يعني **اللاانتماء** أم أنه يعني **الاستلاب** أم أنه يعني **الاكتئاب** ؟ ونجد لكل واحد من هذه المصطلحات مكانه ونموذجه.

1– اللامنتمي:

يولد المرء منتميا إلى أسرته، وينشأ في مجتمعه بين أفراد قد يوافقونه في نظرته إلى العالم وقد يختلفون معه ، ويكون التعايش والتقبل ممكنا، ولكن هناك من يشعر باختلافه عن الآخرين ، ولا يستطيع التلاؤم مع أفكارهم فهو يرى أن هناك خلل، فيساوره القلق والتساؤل والحيرة وهذا هو حال المغترب، يعرف "**ويلسون**"اللامنتمي أنه" الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واه ، والذي يشعر بأن الاضطراب

1 - ينظر: ريتشارد شاخت: الاغتراب ، ص :174.

2- حسن محمد حسن حمادة:الاغتراب عند اريك فروم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط: 1 ، سنة : 1995،ص: 156.

والفوضوية هما أعمق من النظام الذي يؤمن به قومه"[1]، لذلك فهو يفضل البقاء بعيـــدا مـــع أفكاره ومبادئه بدل أن يجاري الناس وما يحبون، وهذا ما عانى منه"**معروف الرصافي**"فـــي آخر أيامه حتى وصفه البعض بأنه مات قبل موته فانبرى "**محمد العيد آل خليفة**" معاتبـــا من تتكروا له:

" **أَقِـــــيلُوهُ العِثَـــارَ فَـــكَيْـــفَ يُجْزَى**

أَبُـــــوكُـــــــــم فِـــــي عَوَاقِبِـــــهِ عِقَابَا...

أَبٌ بِاسْمِ (العِرَاقِ) سَمَا عَرِيقــــاً

وَفِــــــي أُفْقِ (السَّوَادِ) نَمَا شِهَابَا

أَتَعْرِفُهُ العَشِيــــيرَةُ وَ هُــــو كَهْلٌ

وَتُنْـــكِــــرُهُ العَشِيــــرَةُ حِينَ شَـــــابَا "[2]

فعندما يتنكر المجتمع للفرد فإن الشعور بالا انتماء هو الذي يطبع العلاقة بين الطرفين.

والشاعر الجزائري بعدما أفاق من فرحة الاستقلال ظن أنـــه ســـينعم بالاســـتقرار النفسي إلا أنه اصطدم بواقع مرير تقاذفته فيه أمواج من الأفكار والنظريات فأحس ببعـــده وعدم انتمائه. ولعل "**محمد بلقاسم خمار**" شعر برهبة الوحدة في الوطن فقال:

لِي مَوْطِنٌ ...غَيْرَ أَنِّي فِي هَوَامِشِهِ

كَأَيِّ ظِلٍّ... وَلَكِن لَيْسَ مِن جَسَدِي

أَنَا الذِي ضَاعَ يَوْمَ العِـــتْقِ مَسْلَكُــــهُ

1- كولين ويلسون: اللامنتمي ، ترجمة :أنيس زكي حسن ، دار الآداب بيروت ،ط: 3 ، سنة : 1982، ص: 5.
2- محمد العيد آل خليفة: الديوان ، ص:33.

فَتَاهَ عَــبْــدًا ولَم يَنْهَضْ ولَم يَسُد"[1]

فشعور"**محمد بلقاسم خمار**" بالضياع نابع من تهميشه في وطن لم يجد إلى النهــوض سبيلا ولا إلى السيادة طريقا ، فغاب الانسجام بين رؤيا الشاعر وبين واقع الوطن فالانتماء "هو في جوهره نزوع المتدين نحو نفي الخبث من الوجود، ومحاولة الانسجام مــع حركــة عالم الشهادة في تناغمها مع عالم الغيب وحينئذ يصبح التآلف والمحبة والتوازن هي أســس علاقات الوجود"[2] أما إذا كان ما حوله يفتقد التناغم فإن الشعور بعدم الانتماء يكبــر كلمــا كبرت الفجوة بين ما يريده وبين ما حوله ، فيصبح الكون كله كالضرير إذ أنه يخالفه فــي رؤاه :

" يَا فَتَاتِي كَوْنُكُم قَلْبٌ ضَرِيرٌ   مُقْلَتَاهُ فِي حَشَا النَّارِ تَغُورُ"3

فالشعور المتنامي بالاغتراب داخل أعماق الشاعر ينتج من خلال رؤية متبصرة للوضع الذي يعيشه من حوله، والذي في أغلب الأحيان لا يوافق طموحه"وفي ضوء هــذا نكتشف طبيعة ألا منتمي ومعاناته الوجودية ، فهو يبدأ بوعي انهيــار القــيم الدينيــة فــي حضارة تتميز بالفراغ الروحي"4 منغمسة في الماديات وتمارس أنواعا من الضــغط علــى الفرد من أجل قبوله للقيم الجديدة ، فتزيف الحقائق وحينها تكبر الهوة ويسقط جــدار الثقــة بين الفرد ومن حوله فيجبر على دخول قفص الانعزال فلا يعود يشعر بانتمائــه لهــؤلاء الذين خدعوه ، وخدعوا قبل ذلك القيم والمبادئ يقول "**أبو القاسم سعد الله**":

" خَدَعَتْنِي !

1- محمد بلقاسم خمار: بين وطن الغربة و وهوية الاغتراب ، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين ، د ط، سنة: 2004، ص: 89.

2- عبد الحفيظ بورديم: تجربة اللامنتمي في شعر خليل الحاوي، رسالة لنيل شهادة الماجستير ، تحت إشراف : محمد عباس، جامعة تلمسان، معهد اللغة والأدب العربي ، السنة الجامعية : 1993-1994، ص: 15.

3- عبد الحفيظ بورديم : ينابيع الحنين ، ديوان شعر ، رابطة إبداع الثقافية الوطنية ، د ط ، د ت ، ص: 13.

4 - عبد الحفيظ بورديم : المرجع السابق ، ص:17.

وَعَدَتْنِي أَشْيَاء كَالخَيَالِ

وَعَدَتْنِي جوَاهِر السُّلْطَان

وكُنتَ أَنتَ فِي القَفَصِ

وكَانَ صَوتُكَ الجَرِيحُ لَا يبِين

وكُنتَ عَاشِقًا مُتَيَّمَ الخَيَال

تُبْهِرُهُ لَآلِئ السُّلْطَان

تَهُزُّهُ جِرَاحِي الكِثَار

يَغَارُ عَنِّي غَرِيبُ الدَّارِ

وَيَركن الأَخطَار

***

خَدَعتنِي !

وَعَدتنِي حُرِّيَتِي

فَلَم أَجِد سِوَى قَفَص"[1]

ولم يكن "**أبو القاسم سعد الله**"هو الوحيد الذي يشعر بالا انتماء، ولكن أكثر من كان يكتب بالعربية وجد نفسه مغتربا. يقول "**أبو القاسم**" مواسيا "**أبو العيد دودو**" :

" **طَبِيبُكَ يَا(دُودُو) طَبِيبٌ مُزَيَّفُ**

1- أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر، ديوان شعر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط ، سنة 1985، ص : 369.

فَنَبضُكَ مَوْزُونٌ وَقَلبُكَ مُرْهَفُ

وَمَا بِكَ إِلاَّ الفَن عَزَّ بِمَوطِنِ

عَلَيكَ ، فَنَاجَاهُ الوَجِيبُ المُخَفَّفُ

يَمُوتُ عَلَى المِزْمَارِ لَحْنٌ مُقَيَّدُ

ويَسْلُو الهَوَى والفَنُّ قَلبٌ مُعنف "[1]

فعندما يسكن الاغتراب قلب مرهف يدق على أوجاع الوطن، ويرقص علـــى أفراحـــه تتخلخل موازينه وتضطرب نبضاته، فيحتار الطبيب ويشعر به الصديق فيواسيه:

" **حَنَانَيْكَ يَا بَحرَ الدُّمُوعِ أَمَا تَرَى**

بِأَنِّي مَقْهُورٌ غَرِيبٌ و مُدنفُ

كَأَنِّي أَرَى الأَفْكَارَ مِنَّا حَوَائِمَـــــــــا

عَلَى صَهَوَاتِ جَانِبِهَا يتَخَطَّفُ

تَحُطُّ ؟ فَلاَ أَرض، تَطِيرُ وَلَا سَمَا

فَتَحرِقُ هَذَا القَلب مِنَّا وَتُتلِفُ

آلاَ لَيْتَ تَيَّـــــــارَ الحَيَاةِ يَسُـــــــوقُنَـــــــا

إِلَى مَوطِنِ يَرْعَى الفُنُونَ وَيَعْطِفُ[2]

1- المرجع السابق، ص : 379.
2- المرجع نفسه، ص: 379.

ومن هنا نستنتج أن الاغتراب هو الشعور بعدم الانتماء إلى الجماعة ، إذ أن الشاعر شـــعر بالقهر والغربة عندما قوبل إبداعه بلا مبالاة، في حين هو يرى أن عليـــه تبليـــغ الكلمـــة ، والمشاركة في التغيير ، ولكن لا فرصة له في وطنه ، لذلك نجده يتمنى لو أن الأيام تمنحه الانتماء إلى وطن يقدّر فنه ويسمع كلمته .

2-الاستلاب، (الارتهان) (الانسلاب): Alienation

يعرف "**لالاند**" الاستلاب بأنه "في المعنى الحقوقي والقديم: بيع أو تنازل عن حق إلى شخص آخر، وهو مجازا حال المنتسب إلى آخر (مولى مملوك)"[1]، و غالبـــا مـــا يمـــسّ الاستلاب المجتمع فتضيع قيمه وتستبدل ثقافته الأصيلة بثقافة دخيلة تبدل أفكـــار أفـــراده وتسلبهم من جذورهم فيضيعون ، لأن الثقافة بمعناها الواسع " هي جماع السمات الروحيـــة والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها "[2] وأهـــم مـــا يميز أي أمة عن أخرى هي اللغة لذلك جندت طاقات خاصة من أجل إقصائها " فانتصـــار الإنسان العربي متمثلا في الثورة الجزائرية المظفرة لحقه الحصـــار الاقتصـــادي وإعاقـــة التعريب من الداخل ، وإذكاء رواد التغريب في الداخل لروح الفساد و التطرف العلماني"[3]. فبعد الاستقلال بدأ المبدع باللغة العربية يشعر بالاغتراب، فقد عمل دعاة التغريـــب علـــى جعل اللغة العربية غريبة بين أهلها وذلك بتهميشها، والتركيز على اللغـــة الفرنســـية وقـــد وصف "**ابن باديس**" خطر هذه الفئة بقوله " نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا فـــي غيـــر أحضاننا ينكرون وربما عن سوء قصد تاريخنا ومقوماتنا ويودون لـــو خلعنـــا ذلـــك كلـــه واندمجنا في غيرنا"[4]فخلع المرء لكل ما يربطه بأصالته هو ذروة الاستلاب إذ يمضي فـــي الحياة ضائعا، مغتربا عن نفسه وعن من مشى في ركبه . فالاندماج الذي نادى به بعضهم

1- اندريه لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، المجلد الأول A-G، منشورات عويدات ، بيروت، ط02، 2001، ص: 43 .

2- أحمد بن نعمان: هذه هي الثقافة ، شركة دار الأمة ، ط: 1 ، د ت ، ص: 23.

3 المرجع نفسه، ص: 238.

4 - محمود قاسم : عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ن ط: 2 ، دار المعارف ،ص: 67.

أيام الاحتلال لم تغب آثاره بعد الاستقلال، " والواقع إن غربة اللغة العربية ، وغربة أصحابها كانت وما تزال قائمة ، بل زادت بعد الاستقلال ، ولو رافقنا هؤلاء الشعراء في جل قصائدهم لوجدنا إحساسهم بهذا النوع من الغربة"[1]، بل للمسنا حرقتهم على الحال الذي وصلوا إليه ، فقد صار المبدع يبكي عروبته، وهويته الضائعة يقول "**محمد بلقاسم خمار**":

"عُرُوبَتِي غَادَرَتْنِي، دُونَ وِجهتِهَا وَأَبْحَرَت خَلْفَ مَوْجِ الغَرْبِ كَالزَّبَدِ

هُويَّتِي هُجِّنَتْ كَالمَسْخِ انْسَلَخَت وَانشَلَّ فِيهَا لِسَان المُعجِزِ الغَرِدِ

ولَم يَعُد لِي بَيَانٌ أَو مُطَارَحَةٌ إِلا الطغَام مِنَ الغَوغَاءِ وَ البَدَدِ"[2]

إن هذه الشكوى تنبعث من نفس شاعر يريد الإبحار في لغته ليخرج لآلئ وصدف ولكن حطموا مجاديف إبحاره ورموا بها في غياهب النّسيان، مسخوا هويته التي هي كل ذاته "فمن تلك الهوية التاريخية خرجت أنوار النبوات وأشرقت المعرفة الإلهية على العالم...فكيف نتقازم، مفتونين بالدمى الالكترونية واللعب الفضائية الوافدة من الغرب" [3]؟ فماضينا مشرق بأنواره السماوية السامية، فلمَ ينعت كل ما يمت لثقافتنا الأصيلة بالتخلف؟ لم ترفع شعارات المستعمر الهدامة ؟.

فالافتتان بالغرب، وجعله نموذجا يتبع ليس في علمه وما وصلت إليه تكنولوجيته وإنما في القشور، جعل الشاعر يقف باكيا على أمسه، خجلا من يومه ، يخاف على ابنه من غده يقول "**خمار**" :

" وَيَا تَجَاعِيدَ وَجْهِ العَارِ أَحْمِلُهَا حَيثُ اتَّجَهْتُ..فَيَا ذُلِّي، وَيَا نَكَدِي

1- عمر بوقرورة : مرجع سابق، ص: 28 .
2-محمد بلقاسم خمار : مرجع سابق ص: 89.
3 محمد سيد محمد: الغزو الثقافي و المجتمع العربي المعاصر ن ط : 1 ، سنة ، 1994،دار الفكر العربي القاهرة.ص : 330.

لَم يَبْقَ لِي مَا أَرُدُّ الشَّامَتَيْنِ بِهِ أَمْسِي تَلاشَى ..وَيَومِي مُخْجَلٌ كَغَـــدِي"[1]

فالاستلاب يخلق فردا مغتربا فلا هو بين أهله يعيش واقعهم، ويرفع مجدهم كلـه أمل في غد مشرق،فيقف منتصب القامة جذوره في الأعماق مغروسة، وفروعه إلى السّماء مرفوعة تأخذ من الآخر ما يثبت قدمها أكثر في التاريخ ، ولا هو مقبول ممن استلبه، فهو يبقى دائما مسخا لا هوية له ، ضائع تائه مغترب.

3 - الاكتئاب:

إن كل واحد من النّاس تمر عليه فترات من الضيق، فيشعر بالحزن والكآبة فيخلو بنفسه إلى أن يصفو خاطره، ولكن هناك من النّاس من يعتزل الدنيا وأهلها ويدخل كهف الأحزان فلا يعرف له منه مخرجا. فالاكتئاب هو " حالة من الحزن الشديد والمستمر الذي ينتج عن الظروف المحزنة الأليمة ، أو هو التعبير عن الشيء المفقود ، حيث لا يعي المريض المصدر الحقيقي لحزنه واكتئابه "[2]، فهذا الحزن الذي يسكن المبدع هو دافع من أجل خلق إبداعي جديد، فبقدر المعاناة النفسية تكون صورة التجربة واضحة في العمل. قال "**حمـزة بوكوشة** (1908—1995) :

"يَا بُلْبُلَ الشَّرْقِ مَا أَشْجَاكَ أَشْجَانـي قُم نَاجِ قَلْبِي بِتَـغْرِيـدٍ وَتَحْنَـانِ

فَـإِنَّ مِثْلِي كَئِيبٌ حَلَّ فِي شَـرَكٍ وأَنتَ مِثْلِي غَرِيبٌ حَلَّ بَيْنَ أَوْطَـانِ

لَولاَ فُرُوضٌ عَلَيْنَـا العِلْمُ يَفْرِضُهَـا مَا كُنْتُ أَلْقَاكَ نبل مَا كُنْتَ تَلْقَانِـي"[3]

فالكآبة شرك يلف النفس، و يجعلها تشعر بغربتها عمن حولها، فهي فـي صـراع داخلي إن استمر وزاد عن حده انقلب إلى جنون. " وكان ' **نيتشـه** ' علـى رأس هـؤلاء

1- محمد بلقاسم خمار: مرجع سابق ، ص 89.
2- عبد الرحمن وافي : مدخل إلى علم النفس، دار هومة . الجزائر، د ط، 2006.، ص: 254.
3-عبد المالك مرتاض : معجم الشعراء الجزائريين ، ص: 323.

المفكرين الذين انتهى بهم المطاف إلى التردي في هاوية الجنون"[1]،وهناك من قرر الانتحار بعدما استحال عليه العيش في دنيا رآها داء لا سبيل إلى الشفاء منـــه إلا بـــالموت. يقـــول "**أحمد العاصي**":

" إِنَّ دَائِي العَيْش فِي الدُّنيَا وَمَا

غَيْرَ صَرْفِ المَوْتِ مِنْ هَذَا دَوَاءُ

سَخرُونِي فِي حَيَاتِي دُونَ أَن

يفْهمُونِي أَهِـــيَ نعْـــمَى أَم شَـــقَاءُ؟

عِشْتُ فِي الدُّنْيَا وَمَا مِن لَذَّةٍ

لِي فِي الدُّنْيَـــــا وَ مَا بِي مِن رَجَاءِ

أَقْــطَعُ العُــمْرَ وَلَا خَـــيْـــــر أَرَى

فِـــــي بَقَاءٍ فِـــــي الحَـــيَاةِ أَو فَـــــنَاء"[2]

فالأبيات تُترجم ما يحمل قلبه من ألم وحزن واغتراب، " حيث أصبح هـــذا الاغتـــراب وجهة نظر يأخذ بها الشاعر وينصح بها الآخرين، "[3]ينصح بها كل من يرغب في الراحة إذ يقول :

"عِشْ غَرِيبًا وَارْتَحِلْ عَــنْهَا غَرِيبَا   لَن تَرَى فِي عَيْشِهَا إِلاَّ عَجِــيبَا

1- علي فهمي:علم النفس الإبداعي، السمات النفسية للعالم و الأديب، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، مصر، د ط، سنة: 2009، ص: 301.

2- رجاء النقاش: تأملات في محنة شاعر انتهى منتحرا، مقال في مجلة الدوحة، السنة السادسة العدد61، يناير 1981، ص: 32.

3- المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

لَا يَرَى مُسْتَـــنـــبِئ عَن سِرِّهَا بَيْنَ كُلِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مُجِيبَا

رُبَّ أَمْرٍ خِلتهُ حُـــــمْقًا و قَــد خَالَهُ النَّاسُ حَــكِيــمًا مُصِيبَــا

ربَّ فِعْـــــلٍ أَنْتَ تَــأْتِـــــيهِ لِكَيْ تُطْرِبَ الغَيْرَ فَــتَلْقَاهُ غَضُوبَـــا "[1]

فالشاعر فقد الثقة في الناس وهذا ما جعله يرى اعتزالهم راحة وسعادة :

" فَلْتُخَـــــلِّ النَّـــــاسَ يَحْيَــوْنَ كَــمَــــــــــا

قَـــــد أَرَادُوا وَلْتَــعِـــش فِيهِــم غَـــــرِيبَا

لَيْسَــــــتِ العُـــــزْلَــةُ عَــــنْهُم وَحْشَـــــة

فَأَنـــــتَ بِالــــعُــــزْلَـــــةِ قَد تَحْيَا طَرُوبَا "[2]

فهذه الحالة الاكتئابية التي عاشها الشاعر جعلته يضع حدا لحياته، وبــذلك صـــدق قوله عليه فقد عاش في الدنيا غريبا، وارتحل عنها غريبا .

و كثير من الأعمال الأدبية نجد أصحابها قد اغتربوا عمن حولهم لدرجة جعلتهم يهــذون من شدة المعاناة.يقول "**محمد زيتلي**":

" أَلَا أَيُّهَا الرَّبُّ دَعْنِي أَمُرُّ ابْــتَــعِــد عَن سَبِيلِي

جَمِيعُ المَسَافَاتِ قَد قَصُرَت

مَا عَدَا الدَّرْب نَحْوَكَ

كُلُّ الابْتِهَالَاتِ رفضَت مَا عَدَا الصَّبْر "[1]

1- المرجع السابق :الصفحة نفسها.
2- المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

فالشاعر في هذه الأبيات يقصر مسافات الأمل حتى تتعدم الرؤية الواضحة لديه فلا يري إلا حالته التي تقوقع داخلها فاغترب عن ذاته، واغترب عن معتقداته فأصبح ما يشغله أشبه بالمرض الميئوس العلاج، فالعالم في رأيه بقعة مليئة بالأحزان. يقول **سعد الله أبو القاسم** :

" الكَوْنُ فِي مِنْظَارِهِ

بُحَيْرَةٌ كَئِيبَةُ الأَعْمَاقِ

قَد لَفَّهَا النِّسْيَانُ..

وَالصَّمْتُ وَالعَيَاءُ"[2]

فالصمت والتعب والحزن، والنظرة السوداوية للعالم من حوله كلها مظاهر تجعله يعيش الحياة مكتئبا مغتربا. والاكتئاب حالة تطبعها تصرفات ظاهرة "يا هذا! الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة، ودلَّ عنوانه على الفتنة عُقَيْب الفتنة، وبانت حقيقته فيه الفينة حدّ الفينة"[3]فالشكوى والبكاء والرثاء لحالته هي عناوين اكتئابه يقول محمد العيد آل خليفة:

" عَبَثًا أَبْكِي وتَبْكِي شَجَناً   تارَةً سِرًّا وَطَوْرًا عَلَنَا

لَم نَجِدْ فِي الأَرْضِ مَن يرْثَى لَنَا   غَيْرَ وَاهِ فِيَّ مثلَ الزَّنْدوارِي

فَاصْطَبِرْ مِثْلَ اصْطِبَارِي يَا هزَارِي"[4]

1- حسن فتح الباب : شعر الشباب في الجزائر بين الواقع و الأفاق ، ص: 171.
2- أبوالقاسم سعد الله :الزمن الأخضر، ص:315.
3- أبو حيان التوحيدي :الإشارات الإلهية، ص: 114.
4- محمد العيد آل خليفة : الديوان ،ص:49.

وللاكتئاب أعراض نفسية تتمثل فيما يلي :

- ظهور البؤس واليأس والأسى.
- هبوط الروح المعنوية.
- الحزن الشديد وتقلب المزاج
- عدم ضبط النفس
- الشعور بعدم القيمة الاجتماعية
- ضعف الثقة بالنفس
- الشعور بالنقص
- الانطواء والانسحاب والانعزال والصمت والتشاؤم المفرط وخيبة الأمل والنظرة الحزينة للحياة وكل هذه المظاهر تطبع حياة المغترب .

فظروف الحياة القاسية التي مرّ بها المبدع الجزائري جعلته في أغلب الأحيان يعاني" من صراعات نفسية، وعصبية تنعكس بدورها على عمله الفني، وتبدو بالضرورة في إنتاجه الذي يعكس نفسية الأديب. وهنا يذكر "**داراك وليدس**" إن العصاب والإبداع الفني مخرجان للتعويض من الشفاء النفسي"[1] ، وهما متنفسا للمكتئب المغترب.

فالشاعر في اكتئابه الإبداعي وليس المرضي نجده يبحث عن ذاته من خلال ما يحيط به، فإن كانت الصورة من حوله مضطربة اضطرب شعوره واحتواه الحزن، وتلبدت سماؤه بالكآبة، وبعد هذه الدراسة لمفهوم المصطلح نخرج بنتيجة مفادها أن:

المعنى اللغوي للغربة والاغتراب واحد وهو الذهاب والتنحي عن النّاس.

أما في الاصطلاح فإن:

1- علي فهمي السيد: علم النفس الإبداعي ، ص:298.

الغربة من فعل "غرب "على وزن"فعل" هي فعل مرتبط بحدث وزمن، فهذا الغريب انتقل من مكان إلى آخر، ومنه فالغربة مرتبطة بالمكان.

أما الاغتراب يكون على وزن "الافتعال" وهو شيء يختلج داخل النفس فيثير فيها مجموع أحاسيس تظهر في سلوك الشخص، إما مع نفسه فيكون الاغتراب النفسي، وإما أن يكون مع المجتمع فينشأ الاغتراب الاجتماعي، وإما أن يخرج إبداعا متميزا فيتشكل الاغتراب الجمالي.

الفصل الأول

الاغتراب النفسي والاجتماعي

تمهيد

1- المبحث الأول : الاغتراب عن الذات

2- المبحث الثاني: اغتراب الذات

3- المبحث الثالث: الاغتراب الاجتماعي

4- المبحث الرابع: الاغتراب المكاني

5- المبحث الخامس: الاغتراب الثقافي

6- المبحث السادس: الاغتراب الاقتصادي

الفصل الأول: الاغتراب النفسي و الاجتماعي

إن المتأمل في النّفس البشرية ليقف عاجزاً أمام هذا المحيط الزاخر بالتّقلبات المزاجية، فهو بين مدٍّ وجزر بين رضا وسخط ،بين حزن وفرح، بين ألم وأمل، بين شك وريبة من جهة وبين طلب للهدوء والسّكينة من جهة أخرى ، وإنّها لمظاهر تتجسّد في كل واحد منا وإن اختلفت شدّتها من شخص لآخر حسب شخصيته، ويُعرف علماء النّفس الشخصية بأنّها " ذلك التنظيم الدينامكي المتكامل لخواص الفرد الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية حسبما يتكشف للآخرين من الناس "[1]، ومن خلال ما يعبر به الفرد عن نفسه وما يفصح به عن ذاته فيقوم" بالكشف عن معلومات شديدة الخصوصية والحديث عنها لغيره ، وتكون هذه المعلومات متعلقة بدوافعه أو برغباته أو بمخاوفه وأماله ، أو بما تكنه نفسه "[2]. وإن صرخة "**زهير بن أبى سلمى**"، وتعجبه من الذي يعيش تقلبات الدهر كيف لا يسأم!؟ إنّما هي إفصاح عن ما يختلج بنفسه من سأم وتعب:

"سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ

ثَمَانِينَ حَــوْلاً لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَم"[3]

فحكمة زهير نابعة من معايشته لهموم قومه، وتوجع نفسه لتوجعهم " هذه المميزات النفسية التي تميز شاعرا عن آخر هي التي دفعت بعض الشعراء دون آخرين إلى التعبير عن إحساسهم بالاغتراب ، وفقدان المشاكلة، واختلال التوازن "[4] لعدم قدرتهم على تحمل الواقع كما هو، فهم يرفضونه جملة وتفصيلا وبالتالي يغتربون عنه .

"ويحدد **مولفان سامون** Melvin seeman خمسة أبعاد أساسية لمفهوم الاغتراب هي:

1- محمد عبدالرحمن العيسوي: نظريات الشخصية ، دار المعرفة، مصر، د ط ، سنة: 2002، ص: 18.
2- طه عبد القادر فرج : موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، ص: 113.
3 - زهير بن أبي سلمى : الديوان ،دار صادر ،بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ص : 86.
4- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط:2 ، سنة : 2006، ص: 123.

- **الحرمان من السلطة**
- **غياب معنى الحياة**
- **غياب المعايير**
- ومن ثم **غياب القيم والإحساس بالغربة عن الذات** ويعني هذا المفهوم بصورة عامة كل أشكال القهر، ومشاعر البؤس والشقاء التي يعاني منها الإنسان في الحياة "1، سواء بالنسبة لغربته عن ذاته(الاغتراب النفسي)أو غربته عن الآخر(الاغتراب الاجتماعي) .

وإذا راجعنا كلمة Aliénationالتي تعود إلى إنجليزية العصر الوسيط ، و تمتد إلى اللاتينية القديمة فإنAlienatio تدل على حالة فقدان الوعي و عجز أو فقدان القوى العقلية أو الحواس، حيث اقترن المصطلح في أغلب الأحوال بكل ما يهدد وجود الإنسان و حريته، وأصبح الاغتراب و كأنه مرض أصيب به الإنسان الحديث. و من أبرز المفكرين والباحثين الذين جاؤوا بعد "**هيجل**" و اهتموا بتناول الاغتراب : "**إريك فروم**"، "**كارين هورني**"، "**فرويد**"، "**ماركيوز**" وغيرهم من الذين أعطوا لمفهوم الاغتراب معنى سيكولوجي، فمثلا "**فروم**" ينظر "إلى الاغتراب نظرة سلبية تماما إذ يرى أن الإنسان المغترب هو إنسان مريض من الناحية الإنسانية، على الرغم من أنه بمعيار النظرة الحديثة للصحة العقلية، فقد يبدو سويا "2. ويتناول "**فرويد**" الاغتراب من وجهة نظر اللاّوعي، كما تناوله بفكرة غربة الذات، واهتم بالشعور واللاّشعور،بالإضافة إلى وصفه للاغتراب بصفته"اضطراب مرضي"، و تناولت النظرية الفرويدية الاغتراب بتركيزها على فكرة الإحباط من خلال تحضر المجتمع و هذا ما أشار إليه "**فرويد**" في كتابه"**ألم الحضارة** "في عام1929. فإنسان العصر الحديث أصبح يبحث عن نفسه المفقودة في زخم المعاناة . يقول "**سعدالله**" :

1- علي وطفة : المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية ، بحث في إشكالية القمع التربوي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الثاني، أكتوبر – ديسمبر 1991، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون و الأدب – دولة الكويت ، ص:247.

2- حسن محمد حسن حمادة :الاغتراب عند اريك فروم، ص: 125.

"أَعِيشُ هُوَّةً بِلاَ قَرَار

أَغُوصُ فِي أَعْمَاقِهَا .. أَنْهَار

يَدَايَ تَبْحَثَانِ عَن طَرِيق ..

لَمْ تَعْرِفَا بِدَايَتِه

وَتَتْعَبَانِ .. تدْميَانِ

وَترْجِعَانِ صَفْعَةً لذاتية

وَأَسْتَلِذُّ الصَّفْعَ ..إِنَّنِي إِنْسَان"[1]

فالشاعر بعد معاناته المستمرة، وبعد ضياع هدفه يعود إلى ذاته ليومها ويؤنبها، فهو يقوم بصفعها ويستلذ صفعها، يعاملها كما لو كانت منفصلة عنه. قال بعض القدماء " إني أجد الإنسان ونفسه كجارين متلاصقين، يتلاقيان فيتحدثان ، ويجتمعان فيتمازجان، وهذا يدل على بينونة بين الإنسان ونفسه "[2] وتتسع هذه البينونة بقدر اتساع الهوة بين ما يرغب فيه الفرد من سمو روحي وبين ما ترغب فيه نفسه من شهوات أرضية زائلة، فينشأ عن ذلك الاغتراب الذي يمس الذات فتغترب عن صاحبها .

1- <u>الاغتراب عن الذات :</u>

يشير هذا النوع من الاغتراب إلى إزالة كافة ما كان عليه المرء، بما في ذلك ارتباط حياته الحالية بماضيه، وجوهر هذا الاغتراب هو البعد عن مشاعر الفرد ومعتقداته وفقدان

1- أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر ، ص: 337.
2- يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، مصر ، ط: 6، د ت ، ص : 284.

الشعور بذاته ككل، وهو" يتميز عن باقي المعاني بكونه ينطوي على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته"[1]. فالاغتراب عن الذات أو النفس يأخذ بعدين يمكننا أن نمثلهما بالمخطط الآتي :

------ انفصال الفرد عن ظرف إنساني مثالي

الاغتراب عن النفس --ا

------ افتقاد المغزى الذاتي والجوهري للعمل

الذي يؤديه الإنسان وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضا .

كما يشير "**فروم**" إلى نوعين من الذات : "الذات الأصيلة والذات الزائفة" ويعتبر اغتراب الذات حالة أقرب إلى الانفصال عن الطبيعة المثالية للفرد، فالذات الأصيلة عند"**فروم**" هي الذات الفريدة الغير قابلة للتكرار، و التي يتسم صاحبها بأنه شخص مفكر،قادر على الحب و الإحساس، والإبداع مبدع لما يقوم به من أفعال[2]. فيكون الفرد راض عن أعماله ويرى أن لا أحد غيره يستطيع القيام بما قام به. يقول "**الأمير عبد القادر**": " **لِذَاك، عَرُوسُ المُلْكِ كَانَتْ خَطِيبَتِي**

كَفَجْأَةِ مُوسَى بِالنُّبُوَّةِ ، فِي طُوَى

وَقَد عَلمَتْنِي خَيْرَ كفْءٍ لِوَصْلِهَا

وكَم رَدَّ عَنْهَا خَاطِبٌ بِالهَوَى هوَى

فَوَاصَلْتُهَا بِكْرًا لَدَيَّ تَبَرَّجَتْ

ولَي أَذْعَنَتْ، وَالمُعْتَدِي بِالنَّوَى ثَوَى

1- قيس النوري :الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا ، مجلة عالم الفكر ،المجلد العاشر، ع:1،ص: 18.
2- ينظر : شاخت : الاغتراب ،ص: 132.

وَقَد سِرْتُ فِيهِم سِيرَةً عُمَرِيَّةً

وَ أَسْقَيْــتُ ظَامِيهَا الهِدَايَـــةَ، فَارْتَوَى"[1]

فالأمير"**عبد القادر**" يرى أن لا أحد يستطيع القيام بما قام به لذلك كانت له السيادة ،

فالذات الأصلية تؤدي دورا جوهريا في الحياة وهي تمثل الوجود المثالي الذي ينبغـــي أن يكون عليه الإنسان.

و في المقابل، يقدم "**فروم** "الذات الزائفة بأنها الذات التي تفتقد لصفات الذات الأصيلة .

وترى "**كارين هورني**" في تحليلها للاغتراب عن الذات أن " الشخص المغترب هو شخص أصبح ذاهلا عن نفسه ،عن ذاته الحقيقية ، وتشير "**هورني**"إلى أن هذا الوضع ينشأ حينمـــا يطور المرء"صورة مثالية "عن ذاته يبلغ من اختلافها عما هو عليه حـــدا كبيـــرا، وبـــذلك تحدث هوة عميقة بين صورته المثالية وذاته الحقيقية2، فيصبح المرء يتقلب بـــين اللّـــوم والشّكوى. يقول "**محمد العيد آل خليفة**":

"أَطَـــلْتَ انْـتِـقَـادِي	**فَـــمَهْ يَـــا فُـــؤَادِي**
لَـــقَـــــد ذُدْتَ عَنِّي	**لَــذِيـــذَ رُقَـــــادِي**
بِـــوَخْـــزِكَ جَـنبِـــي	**كَوَخْــــزِ القتَــــــادِ**
وَوَرْيـــــكَ نَـــفْسِي	**كَوَرْيِ الــزِّنَــــــادِ**
أَفِي كُلِّ لَيــــــــــلٍ	**بِـــوَيْلِ تُنَــــــــادِي**

1- الأمير عبد القادر:الديوان ، ص :107-108.
2 ينظر: شاخت : الاغتراب ، ص:201.

كَـــأَنَّـــــــكَ ثَكْلَـــــى غَــلَتْ فِي الحِـــــــدَادِ"[1]

فالشاعر ينشأ محاورة مع ذاته أو بالأحرى (مونولوج)، يصوّر من خلاله الصّراع الدائم من أجل أن يلحق بالمثال، ومنه يصل إلى الكمال، وهذا ما يشير إليه **اريك فـــروم** إذ يقول: " أن الإنسان لم يقترب في يوم ما من تحقيق أعز أمانيه مثلما اقترب اليوم ...ولكـــن ماذا يستطيع أن يقول إذا نظر إلى نفسه ؟ هل اقترب من تحقيق حلم آخر للبشر هو كمـــال الإنسان"2 فإذا عجز عن تحقيق بغيته احتواه الاغتراب ومسّ نفسه الحزن " والحزن ينشأ عن النفس الأمارة بالسوء لا المطمئنة ، فإن المطمئنة تحزن على تقصيرها في أداء الحـــق وعلى تضييعها الوقت وإيثارها غير الله في الأحيان ، وهذا الحزن لابد منـــه إذ التقصـــير والتضييع لازم "3 فهو من طبيعة البشر في حين أنّ العارف الذي يذوب شوقا للجنة منزله الأول يسعى دائما إلى الكمال فهو يعيش في حرب دائمة لا هوادة فيها مع هوى الـــنفس و" النفس من الوجهة السيكولوجية هـــي مجموعـــة الوجـــدانيات والأحاســـيس والانطباعـــات والعمليات العقلية بجوانبها الثلاثة من تعرف ووجدان ونزوع"4 فما تنزع لـــه الـــنفس مـــن شهوات يبررها العقل في كثير من الأحوال هو ما جعل "**محمد العيـــد آل خليفـــة**" يحـــذر منهما:

"النَّفْسُ والعَقْلُ مَعْبُودَانِ مِن قِدَمِ وَ المَرْءُ عَبْدُهُمَا لَو أَنَّهُ دَرَى

مَا النَّفْسُ والعَقْلُ إِلاَّ لِلأَذَى الْتَقَيَا فِينَا (كَغَدارة)فِي كَفِّ غَدَّارِ" [5]

1- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص: 54.
2- مجدي أحمد عبد الله : علم النفس المرضي، دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، د ط ، سنة 2000، ص: 5.
3- ا بن القيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص: 399.
4- عبد العالي الجسماني :موسوعة علم النفس ، الدار العربية للعلوم ، لبنان ، بيروت ، ط: 1 ، سنة :1994، ص : 205.
5- محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص :361.

فالمتصوفة يعيشون حالة من الانفعال إذ تتشطر أنفسهم فيغتربون عنها وعن ما يحيط بهم" فقد روي عن **أبي سعيد الخراز** أنه قال : تهت في البادية مرة فكنت أقول :

أَتِيهُ فَلاَ أَدْرِي مِنَ التِّيهِ مَن أَنَا   سِوَى مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيَّ وَ فِي جِنْسِي

أَتِيهُ عَلى جِنِّ البِلاَدِ وَ إِنْسِهَا   فَإِن لَم أَجِد شَخْصًا أَتِيه عَلَى نَفْسِي"1

فالتيه حالة من البحث في الوجود عن هدف إذ يشعر التائه بكيانه يتلاشى أمام غياب هدفه وشعوره بغربة ذاته،فهو يعيش تجربة تبعده عن الإنس وعن الجن وعن ذاته وعن عالمه الحقيقي لتدخله عالم يفقد فيه الانسجام مع دنيا النّاس و يعيش حالة من الانقسام والذي هو مؤشر للاغتراب الذي " يحول دون شعور المرء بالتوافق مع ذاته حيث أن كل روح تنظر إلى الآخر باعتباره غريبا "2 لذلك تجده في أغلب الأحيان يتهم ذاته و يلومها ويؤنبها على ما أتته من الفعال المضادة لمبادئه .

يقول **محمد العيد آل خليفة** :

"وَدَعْ يَا قَلْبُ عَنكَ الأَمَانِي   فَجُلُّ حَدِيثِهَا رَجْمٌ وَظَنٌّ

أَتَطْلُبُ كُلَّ عَاجِلَةٍ تولى   وَتَرْقُبُ كُلّ أجِلَةٍ تَعِنٌّ

وتَخْفِقُ كُلَّمَا خَطَرَتْ مهَاةٌ   غَضِيض الطَّرْفِ أَو رشَا أَغَن

فَكَيْفَ يَقِرُّ فِي الدُّنيَا قَرَارِي   وَبَيْنَ جَوَانِحِي جَرَسٌ يَرِن

وكَيْفَ يُزَانُ عِرْضِي فِي البَرَايا   وَأَنْتَ بِكُلِّ شَائِنَةٍ تَرِن

1- أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 34.
2- شاخت: الاغتراب، ص: 28.

تَشَـــــــوَّقْ أَوْ تَحَرَّقْ أو تَمَزَّقْ   فَلَسْتُ أَحِــــنُّ قَط لِمَا تَحِـــــنّ"[1]

فالشاعر يدرك تماما أن ما تطمح له نفسه يؤدي به إلى الهلاك لذلك فهو يخالفهـــا بالرغم من هذا الصراع الداخلي الذي يهز ذاته ووجدانه .ويعلن العصيان لأوامر قلبه الذي يمثل هوى النّفس وأنّه مهما تشوق أو تحرق أو حتى تمزق فلن يطاوعه لأن هدفهما لـــيس واحدا " فالسمة الأساسية للطبيعة الإنسانية هي مقدرتها على معرفة ذاتها ، ومعرفة ما ليس منها ، أو ما هو مختلف عنها ،وما أن يعي الإنسان هذه الحقيقة حتى ينعزل

عن الطبيعة و بقية الكائنات "[2]بل ينعزل عن ذاته وما تمثله من رغبـــات تعـــاكس المنحنى الذي اختاره لحياته فهو أوجد لنفسه مثالا يريد السير على خطاه بينما نفسه تقـــف كحاجز بينه وبين مبتغاه،لذلك فهو مجبر على كبتها والقبض على زمامها.يقول "**جمال بـــدة زكري**"في قصيدته"**شرود**" :

" شُرُودٌ شُرُود

وَأُمْنِيَتِي صَفَّدَتْهَا القُيُود

وَبَابُ الرَّجَاءِ كَبِيرٌ وَلَكِنْ

رَجَائِي فِي جَنَّةِ اللهِ حُلُمٌ بَعِيد

أَنَا مُهْجَتِي ارْتَكَبَتْ

كُل قَد يشِين

فَهَلْ يَغْفِرُ اللهُ ذَنْبِي ؟ ! .

1-محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص: 366.

2- اريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة : سعد زهران ، عالم المعرفة ، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت ، أغسطس 1980، ص:12

إِذَا سَوْفَ أَغْدُو هُنَاكَ سَعِيد "[1]

فأمنية الشاعر في جنة الخلود صفدت بقيود المعاصي والذنوب لذلك عزم على الاغتراب عن هوى نفسه حتى يفوز بالمُنى ويرتاح في الأخرى وذاك دأب المتصوفة فهم يغتربون عن ذواتهم ويعيشون ارتقاء أرواحهم من مقام إلى مقام وينتقلون من حال إلى حال وكلما ارتفعوا إلى أعلى ابتعدوا عن كل ما يربطهم بالأسفل .

2- **اغتراب الذات :**

إذا كان الاغتراب عن الذات هو انفصال عن ظرف إنساني مثالي فان اغتراب الذات هو افتقاد للهدف وضياع للطريق فلا يرى في الأفق إلا النّدم وحرقة الآهة تنبعث من بين كلمات سعد الله :

"**اليَأْسُ وَالضَّيَاعُ وَالأَلَم**

وَآهَةُ الغُرُوبِ والنَّدَمِ

والنَّغْمَةُ الخَابِية الإِيقَاعِ

وَكُلُّ فِكْرَةٍ بِلَا هَدَفِ

وَخَاطِرٌ يَشُكُّ أَو يَلْتَاع .."[2]

فالشاعر لا يرى لحياته معنى فكل أفكاره بلا هدف، لذلك يزداد شعوره بالضياع والألم ولقد حلل"**ماركس**" الاغتراب وربطه بالعمل وبالناتج وأعطاه معنيين:

1- جمال زكري بدة : تجليات صوفية ، نشر الجاحظية ، الجزائر، د ط، د ت، ص :79.
2- أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر، ص:355.

المعنى الأول: يرى فيه أن الناتج جزء من الشخص، و بالتالي فإن اغتراب النـــاتج يعني اغتراب الذات، فهو يربط بين العمل الممارس وحياة الإنسان الذي يقوم بالعمـــل وأنّ إنتاجه هو حياته فإنْ اغترب عنه إنتاجه فقد اغتربت ذاته ، و إذا كانت العلاقة التي تربطه بعمله علاقة مغتربة عنه ،ولا يشعر بانتمائه إليه فإن حياته و ما تحمل مـــن طاقـــات هـــي غريبة عنه ،وحينما تخضع طاقته الشخصية والروحية والعضوية في نشاطه وعمله لتوجيه آخر فإن حياته ذاتها لا تعود بعد حياته ،ومن ثمّ فإنه يغدو مغتربا عن ذاته.

أما **المعنى الثاني** :فيستخدم ماركس اغتراب الذات للتعبير عن انفصال المرء عن ذاته الإنسانية الحّقة،وعن الطبيعة الجوهرية وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير فكـــرة الفقـــد الكلي للإنسانية [1] فاغتراب العمل ينتج عنه اغتراب الذات ،و"**حمري**" في قصيدته "**مغتـــرب عائد من مناجم لوران**" يجسد صورة مغترب الذات والتي مثلها العامل البسيط الذي تـــرك وطنه ورحل باحثا عن عمل، ليجده في "**مناجم لوران** "حيث يعانقه الاغتراب.فهـــو قضـــى زهرة شبابه في كدّ وجهد حتى أصبحت اليدان كالخيط وصارت العينان غائرتين كـــالحفرة ،وبعد كل هذا العناء في عمل لا يمت له بصلة في بلد أجنبي غريب عنه، لا ينال منه سوى صحة معتلة و ذات مغتربة.يقول "**حمري بحري**"

" يَئِنُّ

يَئِنُّ القِطَار

يَمُرُّ لَفِيفَ الأَمَانِي عِجَافًا

يُعَانِقُهُ الاِغْتِرَابُ

. . . .

1- ينظر: شاخت ، الاغتراب ،ص: 159.

وتَصْدَأُ كَفَّاهُ

وَالوَشْمُ فَحْمٌ

تَمُرُّ السُّنُونُ

يَجِيءُ الحَنِينُ

ويَفْتَحُ لِلذِّكْرَيَاتِ البَعِيدَةِ

جِسْرًا وبَابَا

ويَشْتَاقُ صَوْتًا بَعِيدًا

يُنَادِيهِ "بَابَا "

ذِرَاعَاهُ خَيْطٌ

وَعَيْنَاهُ حُفْرَةٌ

يَكحُّ. . .يَكحُّ

مَنَاجِمُ لُورَان " آه "

لِمَاذَا تَشِحُّ . . . تَشِح"[1]

ففي تساؤله حيرة وقلق وخيبة أمل، فهو بهجرته كان يسعي إلى التوفيق بين طموحاته ومجهوده ،ولكنه يشعر بالانكسار والفشل ويحدث "التصادم بين الشخصية التي اختارها

1- حسن فتح الباب : مرجع سابق، ص: 155.

لنفسه، وواقعية الحياة التي كان عليه أن يعيشها "[1].فيصبح مشلولا عاجزا عن الحركة ثمل بالأحزان مغترب الذات يبحث عن بقاياها في حلم الطفولة وحضن الأم :

"قَمَرٌ مَشْلُولٌ يَجْلِسُ فِي العَتَبَة

وَالبَابُ يَا أُمِّي جُرْحٌ يَغْفُو

وَأَنَا ثَمِل

أَتَدَحْرَجُ بَيْنَ الحُلمِ وَبَيْنَ سَلاَلِمِ ذِي العَقَبَة

وَالحُزْنُ عَمِيق

والجُرْحُ عَمِيق

وَالحُلمُ وَلَيْلٌ طَرِيق"[2]

وحينما يقول "**أبو القاسم سعد الله** " " **أقلامنا سجينة**" فهي دلالة على سجن النفس ومحاصرتها فتصبح الخيول عجاف فلا مجال للجري في رحابة الحياة، فالذات مغلولة مغتربة.

" نَكْتُبُ بِالإِبَر

سُيُوفُنَا مَغْلُولَةٌ وَخَيْلُنَا عِجَاف

نرْجمُ بِالسِّيَاطِ وَالحَجَرِ

***

1 المرجع السابق: ص: 289.
2- المرجع نفسه: ص: 154.

نَكْتُبُ بِالإِبَرِ

أَقْلَامُنَا سَجِينَةَ الأَغْمَادِ

لاَحِبْر وَلاَ وَرَق

لاَ مُلْتَقَى قِتَال

***

نَكْتُبُ بِالإِبَر

عَلَى جُلُودِ عُصْبَةٍ طُغَاة

لِتَرْتَوِي بِالحِبْرِ وَالمَطَر

أَقْلاَمُنَا، وَتَخصبُ الفكر "[1]

إننا نحس بقلم "**سـعد الله**" وهو يضغط على ورقته ليرسم الحرف الـذي يخصـب الفكر ويرتقي بالنفس لترفرف فوق الألم، والقهر وتسمو أكثر فأكثر فترى ما بعـد الألـم راحة وما بعد الضيق انفراجا،ولكن الطغاة يأبون إلا أن يحولوا هذا الخصب إلـى جـدب، فيسجن القلم وتصادر الأفكار ويرمى بالنفس في غياهب الحيرة والأحزان. ولكن المبدع لا يستسلم إذ يلملم شتات الحروف ويحملها صورا من شظايا نفسه المنكسرة، فهو يهرب مـن الواقع إلى الكتابة إذ أن " الكلمات تخلق عالما من الوهم كي تحمي الفنان من فظاظة الحياة الواقعية غير المحتملة، وعبثيتها "2. فالفنان عامة والشاعر خاصة يحاول أن يهـرب مـن اغترابه بخلقه لإبداعاته " وقد أشار بعض علماء النفس إلى أنه مثلمـا تعـوض الأجهـزة

1- أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر ، ص : 373.

2- كولين ولسون : الشعر والصوفية ،دار الآداب بيروت ، نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة الطبعة الثانية سنة1979،ص193.

الفيزيولوجية عما يصيب بعض الأجهزة الأخرى من اضطراب فإن الإنسان يقوم بفاعليات يعوض بها عما لحق بكرامته من إهانة "1 .

فحين يخاطب" **محمد بن صالح ناصر**" "**بدر شاكر السياب** " في قصيدته "**غريب بالخليج ينادي** : " **مطر ! مطر ! مطر !**" يحاول أن يعوض ما لحق بكرامة الأمة نتيجة غزو أمريكا للعراق بأن لا اغتراب في عراق الصمود، ولكن القصيدة تشكو اغتراب نفسه المحطمة على الصمت العربي :

" يَا بَدْر مَاتَ الحَرْفُ، وَانْتَحَرَ الغِنَاءُ، فَلاَ أَصِيل ولاَ هزَار

نَعِقَ الغُرَابُ، فَخَبَتْ مُعَلَّقَةُ الفخَار

وتَجَرَّدَتْ نَخْلُ الجَزِيرَةِ حِينَ رَاحَ السَّيْلُ يَرْتَادُ البِحَار

والخَيْلُ تَلْهَثُ دُونَ رَكْض ، وَالدِّيَارُ بِدُونِ نَار

خَسِئَ (ابْنُ شَدَّاد) يُسَلِّمُ سَيْفَهُ غَازِي الدِّيَار

خَاَن القَبِيلَةَ وَالصَّلِيبَ عَلَى المَصَاحِفَ، أَيُّ عَار ؟

فَبَكَى الرَّسُولُ بِقَبْرِهِ وبَكَى مَعَ اللَّيْلِ النَّهَار"[2]

فالشاعر يريد أن يزيل اغتراب العراق المتمثل في "**بدر شاكر السياب** "، ولكنّه لا يستطيع أن يتجاوزه لأن نفسه مشحونة بطاقة وفي عمقه قوى متناقضة، هنا صمود وقوف العراق في وجه الغازي، وهناك تخلى الدول عنه.

1- فاخر عاقل: علم النفس، دار العلم للملايين ، بيروت، ط:8، سنة : 1982، ص: 230.
2- محمد بن صالح ناصر: ألحان وأشجان ، جمعية التراث – القرارة غرداية ، الجزائر ، د ط ، د ت ، ص : 12.

" اكتشف"**فرويد freud**" أن الإنسان بصفته قيمة روحية عقلية يتركب من قوى يمكنها أن تكون ذات طبيعة متباينة ومتناقضة وتكون مشحونة بطاقة "[1].هذه الطاقة التي تتفجر عنـــد الشاعر كلمات تحمل افتقاده للمعنى الحقيقي لحياته بافتقاده للرضا عن منجزاته

يقول "**عمار مرياش**":

وَخَرَجْتُ لِهَذَا العَالَمِ طَيْرًا يَشْدُو ... مَنَعُونِي ...

وكَبُرْتُ بلاَ سَبَبٍ فِي اللَّيْلِ ... فَمَا عَرَفُونِي

مَاذَا يَحْدُثُ لِلدُّنيَا لَو عَرَفُونِي ... وَالوَضْعُ خَطِير

أَحْسَسْتُ بِشَيْءٍ يَتَغَيَّرُ فِي ذَاتِي فَكَتَبْتُ وَصِيَّة

أَحْسَسْتُ بِغَلْطَةِ مَوْلاَتِي فَرَفَعْتُ قَضِيَّة !

أَدْرَكْتُ النَّاس يُغَطُّونَ الشَّمْسَ بِغِرْبَالٍ مَثْقُوبٍ ...فَبَكَيت عَلَيَّ

إلي أن يقول :

وَهَذَا العُمْرُ يَضِيعُ هَبَاء !

مَن يَفْهَمُهُ؟

لاَ سَيْف الدَّوْلَةِ ، وَلاَ كَافُور وَلاَ النُّقَّاد وَلاَ الجُمْهُور ..وَلاَ الآبَاء

وَلاَ الأَبْنَاء ..."[2]

1- إريك فروم : ما وراء الأوهام ، ترجمة :صلاح حاتم ، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية سورية ، ط: 1 ، سنة 1994، ص: 32.

2- عبد الملك مرتاض : معجم الشعراء ،ص 547-548.

فإنتاجه مغترب عن الكل وبالتّالي فإنّ ذاته تعاني الاغتراب فلا معنى لكلماتــه ولا لحروفه ولا لصوته، وسيعرف بعد انطفاء عمره أنه لم يجن ســوى آهــات تمــزق نفســه الملتاعة.

"**أَطْفَأْتُ عُمْرِي فِي نَسجِ الحُرُوفِ ولَم**

أَشْفِ الغَلِيلَ الذِي يَرْوِي صَبَابَتِي

فَلَم أَنَلْ مِنْكَ يَا زخ الحُرُوفِ سِوَى

بَعْضَ النَّشِيجِ الذِي يَسْتَفٌّ آهَاتِي

كَأَنَّنِي حِينَ أُبْدِي دَمْعَتِي وَتَــــــــرَا

يَهِيجُ اللَّحْنُ كَيْ يَرْسُو عَلَى الآتِي "[1]

فدمعته المترجِمة لمعاناته تنزل على أخاديد اغتراب ذاته لتهيج لحنا يعزف للآتي لعله يزيل الاغتراب عن إبداعه ومنه يزول اغتراب ذاته. هذا الاغتراب الذي يكون نتيجة عاملين:

- **عامل الشعور بزيف الواقع:**

يعني شعور الفرد المغترب أن العالم المحيط به ليس حقيقيا بل زائفــا، وأن الحقيقــة ضائعة، والشعور بأن هناك مسافة نسبية بين الفرد و الآخرين مع وجود الكراهية للآخرين ونقص الثقة فيهم،و اتساع الفجوة بين ذات الفرد و ذوات الآخرين، والرغبة في هجر النّاس والرّحيل إلى مكان بعيد واعتزال الآخرين و تجنبهم، وهذا كله ناتج عن تنــاقض وجهــة نظر الفرد مع المحيطين به من أفراد مجتمعه و الشعور بعدم التكيف فكريا أو عقائــديا،مع المحيط الخارجي.

1- جمال زكري بدة: تجليات صوفية، ص : 36.

أما العامل الثاني فهو:

- **الاغتراب عن الآخر:**

يعني عدم الشعور بالحب و الوّد اتجاه الآخرين، والشعور بأن الماديات قد سيطرت على العالم فألغت الوجدانيات وبذلك يسود الشعور بأن الآخرين لا يكترثون بالمشاعر الشخصية، والأحاسيس والاتصالات،ويتسمون باللامبالاة وعدم الرغبة في المشاركة الاجتماعية،فينعدم الأمن النفسي الذي يجعل الفرد يشعر "بأنه قادر على الإبقاء على علاقات مشبعة ومتزنـــة مع النّاس"[1] وهذه العلاقات هي التّي تهيئ للفرد الجو الملائم للاندماج مع الآخرين، وبالتالي التوازن النفسي والاجتماعي.

3) الاغتراب الاجتماعي:

إن الإنسان بطبعه اجتماعي يعيش في تلاؤم وانسجام مع أفراد مجتمعه فهم يجمعهـــم المكان الواحد ويحتويهم الزمان الواحد ويعزفون على نفس الوتر "و كلما كانت العلاقـــات الاجتماعية علاقات قوية انعكس ذلك على حياة الفرد النفسية ، ويمكننا هذا مـــن القـــول إن الاتزان العقلي و النجاح في الحياة يتناسب طرديا مع اتزان علاقـــة الفـــرد بمجتمعـــه "[2]. فالإنسان بحاجة إلى الجماعة فهو ينمو ويكبر ضمن أفراد أسرته و تزيد أواصر الصـــداقة من ارتباطه مع أقرانه و يظل في تفاعل مع محيطه "فهو يستقي من المجتمع الـــذي يظـــل مرتبطا به ارتباطا خياليا للقوة والنشاط ، والمجتمع أبدا حاضر أمامه يرنو إليه مهما تعامى عنه "3 فبقدر شعور الفرد بالانتماء للمجتمع والاستماتة في الدفاع عنه بقدر ما كانت الدولة قوية لا تهزها عواصف الزمان ولا يتمكن منها الأعداء والذي عُرف عن الدولة في العهـــد

1- عباس محمد عوض: الموجز في الصحة النفسية ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، د ط ،سنة 1989 ، ص: 57.
2- عبد الحكيم العفيفي : الاكتئاب والانتحار ،ص ، 64.
3- هنري برجسون: "الأعمال الفلسفية الكاملة ، منبعا الدين والأخلاق ، ترجمة : سامي المدروبي ، عبد الله الدائم ، الهيئة العامة للتأليف والنشر، 1971، ص21.

العثماني – في الجزائر –أنها كانت " متقوقعة على نفسها داخل هياكل إدارية ، بل نستطع القول ، إنها كانت تحيا على هامش المجتمع . لأنها عجزت على بناء مجتمع متماسك ، تستطيع التمفصل حوله " 1 وهذا الذي سهل على فرنسا الدخول للجزائر عام 1830 فساعتها " لم تواجهها طبقة اجتماعية تدافع عن مصالحها ، ولا متطلبات السوق الوطني .ولكن واجهتها قبائل بالجهاد المقدس."[2] التي رفعت شعاره للتصدي للغريب الذي لم يراع حرمة الشيخ الكبير، ولا المرأة الضعيفة،ولا الصبي الرضيع ،ورد صفعة مروحة الريش على وجهه بصفعة الحديد والنار والشتات والضياع لمجتمع أعزل.ويتعجب "**سعد الله**" من ذلك الموقف في قصيدته "**المروحة**":

" أَكَذَا الرِّيشُ حَرِير وقبل

أَبْيَضُ كَالقُطْنِ جَذَّاب خضل

مَاتَ فِيهِ الحُبُّ ظَمْآن الأَمَل

حِينَ طَاشَتْ مِرْوَحَة

وَذَوِي الرِّيشِ النَّدَى

وَاللَّهِيبُ المُتَعَالِي

يُؤْكَلُ الشَّوْقُ مَعَه

وَدُخَانٌ كَالسَّرَابِ

1- محمد مدان :المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية قسم علم الاجتماع ، جامعة أبي بكر بلقا يد تلمسان، مجلة انتروبولوجيا الأديان ، أعمال مخبر انتروبولوجيا الأديان ، العدد التاسع ، يناير 2011، ص:143.

2 - المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

غَامَ فِي وَجْهِ الدَّعَه

فَبَدَا الشَّرُّ نيُوب

مِن شِفَاهِ الوَادِ عين

وَغَدَا الأُنْسُ جُنُون

والشِّعَارَاتُ حِدَاد ! "[1]

تغير كل شيء في بلد الخير والأمان ، سُلِبَ الفرد الجزائري ممتلكاتـــه وأصـــبح " خماسا "في أرضه يسكنه الاغتراب الاجتماعي.

ويُعتبر"**ماركس**"أول من تناول الاغتراب باعتباره ظاهرة اجتماعية تاريخية ســواء من حيث نشأتها أو تطورها.وهو يشير إلى اغتراب الإنسان عن العمل من خــلال فهمــه للنظام الاقتصادي و لذا نجده يتناول الاغتراب الذي يصاحب العمليات الإنتاجية من خــلال أربعة أوجه و هي (اغتراب العامل عن نفسه، اغترابه عن الآخرين، اغترابه عن الإنتــاج، و بالتالي اغترابه عن عمله).

ولهذا نجد أن الماركسية قد أرجعت أسباب الاغتراب إلى أن بعض الأفراد يغتربــون عــن أعمالهم لأسباب موضوعية كامنة في علاقات الإنتاج و نسق السيادة الطبقي مما يؤدي إلى انفصالهم عن العمل و الإنتاج،كما يؤدي في نفس الوقت إلى اغترابهم عن الطبيعة و عــن ذواتهم كذلك[2].

1- أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر ، ص :203.
2- ينظر : شاخت : الاغتراب ، ص : 145-151.

ويرى " **روسو**" الإنسان الاجتماعي الذي يعيش في مجتمع" أنه الإنسان وقد سقط من حالة الطبيعة إلى جحيم سياسي ونظام اجتماعي لا يرحم "1. فهو بين مطرقة الضمير وسندان المجتمع الذي لا يرحم الضعيف يصور "**سليمان جوادي**" المشهد في قصيدته

" **ما سر القمة يا أماه** " إذ يصبح حلمه ضائعا وأشعاره مغتربة وسط مجتمع لا تهزه أوتار قلب رقيق ولا إنحناءة جسم نحيل فيقول :

"وَيَضْحَكُ جُرْح فَوْقَ جَبِينِ الأَحْزَابِ الأَيْتَام

تَسُودُ الزَّحْمَة بَيْنَ الشَّارِعِ وَالأَوْهَام

يَمْتَدُّ الحُلُمُ الضَّائِع

يُصْبِحُ مُغْتَرِبًا عَن خَارِطَةِ الأَحْلاَم"[2].

وعندما يشعر الفرد بالاغتراب يحدث شرخ كبير بقلبه فتتصدع علاقاته الاجتماعية فلا يعود يبالى بمن حوله ولا هم يبالون به، فتقتل الشفقة والحب بين الناس ، ويضيع الاطمئنان :

" **أَتَذَكَّرُ أَنِّي قَتَلْتُ بِوَالِدَتِي الشَّفَقَة**

أَتَذَكَّرُ أَنِّي سَرَقْتُ لِمُجْتَهِدٍ عَرَقَه

وَتَرَكْتُ قُبَيْلَ صُدُورِ قَرَارِي

القَلْب عَلَى وَرَقَة

صَيَّرْتُ الغَدَ مَوَاوِيلاَ

1- نبيل رمزي اسكندر: الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د ط، 1988، ص: 72.

2- عبد العالي رزاقي: نماذج الشعر الجزائري المعاصر، شعر ما بعد الاستقلال ، سلسلة أدبية تصدرها مجلة آمال ،ص:114.

صَيَّرْتُ الصَّفْعَةَ تَقْبِيلاَ"[1]

ومهما أراد الفرد تجاوز اغترابه الاجتماعي إلا أنه يجد نفسه محاصرا بأفكار تختلف عن أفكاره ، وحتى إن حوّل الصفعة قُبلة ، ومدّ يده محاورا فسيبقى دائما يدور ضمن دائرة اغترابه الاجتماعي ، ما دام هناك من يرفض سماعه .

"وَجَلَسْتُ أُحَاوِرُكُم .. وَأُحَاوِرُكُم

وأَمُدُّ يَدَيَّ إِلَى أَصْحَابِي المُرْتَزِقَة

الحَرْفُ يُبَاغِتُهُ الكِتْمَان

وتَنْفِيهِ الأَعْمَاقُ

وتَرْفُضُهُ الخَشَبَة "[2]

فحينما يُكتم الحرف ويُدفن في الأعماق يتنازل المرء عن السؤال وعن المعرفة ويستسلم لأفكار مكتئبة تفرض عليه الانعزال لأن لا قوة لديه للمواجهة.

" وَأَنَا لاَ أَسْأَلُ عَنْ ؟..

لاَ أَعْرِفُ مَنْ ؟ .

ظَلَّتْ أَشْعَارِي مُغْتَرِبَة

ظَلَّتْ أَفْكَارِي مُكْتَئِبَة

يَحْتَجُّ السَّيْفُ ..

1- المرجع السابق :الصفحة نفسها.
2- المرجع نفسه : ص : 114.

وَلا تَحْتَجُّ أَيَا وَطَنِي الرَّقَبَة"[1]

فالسيف يَحِقُ له أن يحتج لأنّه قوي، أما الرقبة فلا حُجَة لديها لأنهـا ضـعيفة و بالتّـالي يتغير جوهر الإنسان الطّاهر النّقي ويتحول إلى التّصنع والمُداراة والنّفاق الذي يوسّع الهوة بين ظاهر الإنسان وباطنه وكلما ابتعد الإنسان عن جوهره الحقيقي وانغمس فـي التصـنع كلما زاد الاغتراب والملاحظ " أن وجود الإنسان بصورته التي نراه عليها فـي المجتمـع الحديث لا يتفق مع جوهره أو ما هو من حقيقته ، وإنما هو يختلف عنها بـل و يتعـارض معها ، فما هو كائن لا يتفق مع ما ينبغي أن يكون "2 وهذا ما ينشأ صراعات نفسيه داخلية يختلف ردُّ فعلها من شخص إلى آخر" ففي الصراع بين الفرد والمجتمع مواقف متفاوتـة: فهناك الغربة أو (الاغتراب)، وهناك الثورة على المجتمع، وهنـاك التـأقلم مـع المنـاخ الاجتماعي، وهناك العزلة الكلية عن المجتمع"3 وكثيرا ما يكون الاغتراب من نصيب الفرد الذي لا يُلتفت إلى قدراته لأن " أغلبية المجتمعات التّي كبرت وقامت على نظـام الرُّتـب والتدرج الاجتماعي عرفت ظاهرة اغتراب السلطة ،فالكفاءة الأصلية المفترضة أو الحقيقية تنتقل إلى اللقب أو البذلة الرسمية"[4]، يعني ببساطة إلى المظهر الخارجي، وهذا مـا يجعـل الفرد يشعر بالألم والحسرة والبعد عن الجماعة "فمن شروط إشباع الحاجة للانتماء أن يتقبل الفرد جماعته التّي ينتمي إليها وأن تتقبله هذه الجماعة "[5]، فيكون الانسـجام بـين الفـرد ومجتمعه.

يقول مصطفى دحية :

المَسْكُونُ بِالإِبْكَار ... يَا ...

1- المرجع السابق : الصفحة نفسها، ص : 115.
2- عزت حجازي : الشباب العربي و مشكلاته ، علم المعرفة ، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت فبراير 1985، ص: 72.
3- المرجع نفسه، ص 201.
4- المرجع نفسه، ص: 51.
5- عباس محمد عوض: الموجز في الصحة النفسية، ص: 60.

يَا العَابِر ونَعلى اصْطِبَارِي

هَاؤُمُ اسْتَجَلُّوا نَـهَارِي

لِي مِن السجفِ مُوئِل

عَيْنَايَ مُوغَلَتَانِ فِي اللَّهَبِ الحَسِيرِ

أَنَا هُنَا خَلْفَ التَّوَارِي "1

فالشاعر يشير إلى نفسه من أجل أن ينتبه له الآخر، من أجل أن يعطيه فرصة ليشارك هو أيضا بأفكاره، ليرسم هو أيضا أحلام الوطن.

" **وَفِي خِيَارِ المَوْتِ وَالإِرْجَاف**

يَا ...

مُرُوا عَلَى انْسَاغِ رُوحِي...كُلُّهُم فتل الوَرِيدِ"[2]

فأداة النداء " يا ..." تبقى دائما تبحث عن مجيب ، وعندما ييأس من المجتمع يعود إلى الله ، إلى الكلمات الخالية من النّفاق ينادي الأسماء التي لا زيف فيها هناك يبحث عن حُبّه واشتياقه إلى الاطمئنان و إلى الوطن .

" **وَأَنْتَ كُنْتَ الانْبِثَاق مِنَ الوَرِيدِ**

يَا الله ..

يَا الكَلِمَات...

1- مصطفى دحية: اصطلاح الوهم، منشورات الجمعية الوطنية للمبدعين، د ط ، سنة : 1993، ص: 36.
2- المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

يَا الأَسْمَاء :

ذَا حُبِّي عَلَى حِيفِ التَّوَجُسِ ذَاهِلِ

عينِي سُؤَالٌ فِي العَرَاءِ ...

وَمَوْطِنِي . "

فالبحث عن الانتماء، يتجلى من خلال السؤال عن مكان الوطن "ومـــع الاغتـــراب يبدو الزمان والمكان هلاميين يأخذان شكل محيط لا تضبطه المعايير ولا تحده التعـــاريف"[1] وتضيع معه الخطوط والزوايا ولا يبق سوى الفراغ يتخبط فيه المغترب بأفكاره ، الـــواعي لهموم أمته ، فهو" يعيش الصراع بين رغبته في إصلاح العالم و تحقيق الحريـــة ، وبـــين واقع الفوضى واللا معنى الذي تفرضه عليه الحضارة "[2] ويتبناه المجتمع أما هو فيـــرفض الاعتراف بهذا الواقع وهذا ما يجعله ينفصل عن مجتمعه ويتقوقع داخل شرنقة الاغتـــراب ويُصبح اليأس والإحباط منهجه في الحياة ، ومن ثَمَّ تضيع على المجتمع فرصة اســـتغلال قدرات أ فراده الذين يعانون من الاغتراب .

<u>4) الاغتراب المكاني:</u>

بعدما ضاقت القُرى بأحلام أهلها لم يجدوا بُدّا من شدِّ الرّحال إلـــى المدينـــة لعلّهـــم يظفروا بالراحة والأمان فلم يجدوا إلا خيبة الآمال " وقد ذهب كثير من علماء الاجتماع إلى أنَّ كثيرا من الإحباطات التي يحس بها ساكن المدينة إنّما هي نتيجة صراع أساســـي بـــين القيم "[3] المختلفة فالفرد في صراع داخلي بين ذاته وبين الآخرين، بين انطلاقـــه وحريتـــه

1- فاطمة طحطح :الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ، ط: 1 ، سنة :1993.

2- عبد الحفيظ بورديم : تجربة اللامنتمي في شعر خليل الحاوي ، ص:17.

3- إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت ، 2 صفر ربيع الأول 1398ه-فبراير شباط 1978.ص113.

وبين سلطة الجماعة المفروضة عليه ، بين المحبّة والأخوة والجوهر النّقي وبين الصّراع والتّنافس والنّفاق. ولقد عانى الشعراء الذين يطمحون لصفاء الرُّوح من جوّ المدينة الخانق وشعورهم بالا انتماء. يقول **يوسف وغليسي**:

"القَلْبُ فِي وَهْرَان يُوقِظُهُ الأَنِينْ،،

والقَلْبُ فِي وَهْرَان يُوقِدُهُ التَّسَاؤُل وَ الحَنِينْ ،،

عَبَثاً أُسَائِلُ ذِي المَدِينَةَ فِي المَسَاءِ وَالصَّبَاحِ:

وَهْرَانُ ! مَا للْعَاشِقِين يُعَذَّبُونَ مُشَرَّدِينَ

عَلَى شَوَارعكِ العَتِيقَهْ؟!

وَالفَاسِقُونَ مُكَرَّمُونَ ، كَمَا النَّوارِس،

فِي شَوَاطِئكِ الطلِيقهْ "[1]

فتساؤل الشاعر يكبر كلما رأى هذا التناقض الذي يطبع الحياة من حوله، فهو يرى كيف يضيع الشرفاء وتكتم أصواتهم، فالمدينة بحر يلقف الجميع في جوفه ثم يبقي على الأقوياء ويلفظ الضُّعفاء، أما القرية فهي النَّهر الصَّافي الهادئ الذي تنساب بين دفتيه المحبة والتآزر والتآلف بين أفراده " إن الشعراء الفحول في التُّراث العربي كانوا أبناء القرى،

لا تأت إلى المدينة حتى لا تتلوث"[2]، نصيحة سمعها شاعر*، ولكن لم يأخذ بها كما لم يأخذ بها معظم شعرائنا فغادروا قراهم وحملوا أحلامهم إلى المدينة التي سحرهم بريقها من بعيد،وأحرقهم لهيبها من قريب.

1- يوسف وغليسي: أوجاع صفصافة ، ص:105.
2- أرزاج عمر : هكذا أهان بومدين مفدي زكريا ، مقال في جريدة الشروق اليومي ،20من ذي القعدة 1432/ 18-10-11، العدد 3448،ص: 17.

إن المدينة تأخذ من القادم إليها زهرة العمر وتمنحه الاغتراب لأنّ نفسه الحالمة بالكمال المشتاقة للاحتواء ،وإلى السُّمو والارتقاء لن تجد في المدينة بغيتها، فالمدينة تُؤمن بالمادة لذلك تزداد حيرة الشاعر "**عياش يحياوي**" فأيامه في المدينة متداخلة أمًّا ليلها فخدمة لأبناء الطبقة الرّاقية ،ويُلقى بالبسطاء في بحر التّشرد والغربة:

"يَنْسَى المَكَانُ مكَانَه ويَغِيبُ يشردُ فِي المَدِينَة

النَّبْعُ يَزْدَرِدُ المَصَبَّ وتَمْضَغُ النَّاسُ المَدِينَة

نَأْتِي صِغَارًا يَسْتَبِينَا الأملُ ... نُزْهِرُ فِي المَدِينَة

تَتَدَاخَلُ الأَيَّامُ .. نَنْضُجُ .. نَمْنَحُ العُمرَ المَدِينَة

ونَهيمُ .. نَرْكُضُ خَلْفَهَا هِيما .. نُغَازِلُهَا المَدِينَة

تَتَدَاخَلُ الأَيَّامُ.. يعصر كرمنا لَيْلَ المَدِينَة

خَمْرًا لِأَبْنَاءِ الأَرَائِكِ .. ثُمَّ تُلقِينَا المَدِينَة

وَهُنَا.. قُشُورًا لِلنَّوَارِسِ يَسْحَرُ المَاضِي المَدِينَة

ونَهِيمُ بِالمِجْدَافِ وَالبَحْرِ التَّشَرُّد وَالمَدِينَة"1

يتساوى في معجم الشاعر البحر، والتشرد، والمدينة، وكأن مدينة الأحلام ما هي في الحقيقة إلاّ بحر بأمواج عاتية يقذف بهؤلاء القادمين من مصبّ القرية إلى شط التشرد والضياع. ولا تلبث أن تعُمَّ نفس الشاعر التساؤلات عن سبب اغترابه في المدينة فهو ليس بغاز غريب إنّما هو طير مُغرِّد يبحث عن غُصن مورق وظل وارف، هو مبدع لا يملك سوى

---

*ـ النصيحة كانت من الرئيس هواري بومدين للشاعر أرزاج عمر.

1 - حسن فتح الباب : المرجع السابق ،ص:191.

الأحلام يريد أن يسمعها للعالم، هارب من اغترابه المكاني هناك بالقرية ليصطدم باغتراب مكاني هنا في المدينة.

يقول "**أرزاج عمر**" :

" ولَسْتُ بِغَازٍ غَريب

لمَاذَا تَفِرُّ المَدينَةُ مِنِّي ؟

ولَكنَّني أَمْنَحُ اللَّيْل صَوْت البَلَابِل

عَلَى شَفرَةِ الوَرْد وَالمِقْصَلَة

لِمَاذَا تَفِرُّ المَدِينَةُ مِنِّي ؟ "[1]

المدينة تفر من الضّعفاء لأنّ فيها تتغيّر المعايير وتتبدّل المفاهيم وتصبح العلاقات بين الأفراد أقل ترابطا. يرى فروم " أن السُبل تضيق بالإنسانية، وأن أشكال المجتمعات الحالية تدفع بالإنسان إلى الاختلال والاضطراب "[2].لأنه لا يجد نفسه في هذا الوسط المكتظ بالنّاس والبنايات فلا مجال لتنفس هواء نقي ولا لسماع كلام شاعري هذا ما يحطم أوتار النفس ويرمي بها في الاغتراب المكاني الذي تُمثله المدينة والذي سرعان ما ينتقل إلى الوطن فيبحث الشاعر عن مجال أرحب وأوسع.

يقول **يوسف وغليسي** في قصيدته " **موسم الهجرة إلى بغداد**":

"بَيْنِي وبَيْنَ مَدينَتِي بَحْرٌ مِن المَأْسَاةِ والذِّكْرَى ..

---

1 - المرجع السابق: الصفحة نفسها.

2- اريك فروم: الإنسان بين الجوهر و المظهر ، ترجمة : سعد زهران ، عالم المعرفة ، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، أغسطس 1980، ص:11

وَقَلْبِي – آه مِن قَلْبٍ – عَلَى شَطِّ الرَّحيلِ مَضَى

يَنِزُّ دَماً وشِعْرا..

أَمْضِي ..وَحِينَ يَمْضِي تَعَبُ الرحِيلِ

أَمُدُّ كَفِّي - بِالدّعَاءِ – إِلَى السَّمَاءِ

لِكَي تَجُودَ – سِوَى - بِعَودَة "عَنتَرَة" !."[1]

فعنترة عانى من الْاغتراب الاجتماعي ولكنه أثبت وجوده في مكانه وأصبح أسطورة لا تغيب عن ذاكرة الشجعان ، فالشاعر عندما يتمنى عودة عنترة فإنما هو في الحقيقة يتمنى ردّ اعتباره الشخصي في مكانه المتواجد فيه ، ولكن تخيب أمانيه لذلك يقرر الهجرة إلى بغداد:

آتِيكِ يَا بَغدَاد مِن مُدُنِ الخِيَانَة مُطْرِقاً

وَعَلَى جَبِينِي وَصْمَة العَارِ المُشِينَة ، وَاليَدَيْن ..

آتِيكِ أَسْتَرِقُ الخُطَى.."[2]

ولكن لا يستطيع الوصول إلى بغداد فيبحث عن مكان قريب منه ويكتب فيقول:

" **مهاجر غريب في بلاد الأنصار**" ويسجل في الإهداء :

" إِلَى وَطَنِي المَطعون مِن الوَرِيدِ إِلَى الوَرِيدِ ..

الوَطَنُ المشَتَّتُ ذَاتَ اليَمينِ وذَاتَ اليَسَارِ ..

1- يوسف وغليسي : أوجاع صفصافة، ص:45.
2- المرجع نفسه :الصفحة نفسها.

الوَطَنُ الذِي طَالَمَا اشْتَاقَ إلَى رَسُولٍ جَدِيد

يؤَاخي بَينَ " أَنصَارِه " وَ " مُهَاجريه " !!!... . "[1]

فلا وجع ولا اغتراب يشبه اغتراب الوطن اغتراب يمزّق القلب فتخــرج منه " الآه " ممزوجة بالألم والقهر تنبعث منها رائحة الدّم والدّمع ونحن نقرأ لـــ "**يوســف وغليسي**" " **آهٍ يا وطن الأوطان !**" :

"**فِي وَطَنِي ،،**

فِي وَطَنِ الأَوْطَانِ !

في فَضَاءِ حُقُولِ القمْحِ

تَشَاجَرَ عُـــصْفُورَان .. "[2]

فعندما تتشاجر العصافير على الشجرة تهتز الأغصان وتسقط الأوراق فيحتويها الاغتــراب فتذهب تبحث مع الرياح عن ملجئ يحتويها.

يقول "**يوسف وغليسي**" :

" **أُهَاجرُ مِن " مَكَّتِي " ..**

أُهَاجِرُ مِن مَهبِطِ الوَحْيِ والأنبِيَاء

إلَى " يَثْرِب " الحُب والخَيْر والشِّعْر والشُعَراء ...

ويُعْلِنُ " أنْصَارُ "(سِرْتَا) انْتِظَاراً

1- المرجع السابق، ص: 75.

2- المرجع نفسه، ص: 80.

لهَذِي المَوَاكِب.. يَا فَرْحَتِي !... "[1]

يا فرحته بمكان يضمّه ويجد فيه الحب والأمان، يجد فيه الأنصار يساندونه يشاركونه الفرحة والمأوى ، ولكن يبقى الاغتراب ملازما له ، فلا مكان يأويه ، تتحطم أحلامه علـــى صخرة الرفض ، فيقول :

" **أَنَا اللاّجِئُ القُرَشِيُّ المُهَاجِرُ نَحْوَ القَبَائِلِ،،**

أَبْغِي الهَوَى يَتَضَوَّعُ فِي كُلِّ شِبْرٍ مِن الأَرْضِ ،،

يَدْخُلُ .. يَنْسَابُ في كُلِّ مَخْرَجْ !

أَوَدُّ الهَوَى الأَخضَرَ العَذب أَن يَعْتَلِي كُلّ هَودجْ !... .

وَآهٍ ! تُبَاغِتُنِي المُدُنُ " اليَثْرِبيَّةُ " بِالرَّفضِ .. "[2]

رفض يباغته في كل مكان يحل به فيشعر بأنه منبوذ لأنّه يحمل في أعماقه اغتراب آخر ، اغتراب ديني:

" **أَنَا المُسلمُ القرَشِيُّ..**

رَحَلتُ مَعَ الرَاحِلِينَ

أَجُوبُ المَدَى ..

أَجُوبُ المَدَائِنِ وَالفَلَوَات البَعيدَهْ،،" [3]

1- المرجع السابق، ص : 75.
2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
3- المرجع نفسه، ص: 77.

كما أنّه يحمل اغترابه الثقافي بعاداته وتقاليده وتاريخه بماضيه وحاضره، بآرائه وأفكـــاره فلا يجد أمامه سوى باب الله مفتوحا فيحمل شكواه إليه:

" أَحمل شَكوَى إلَى الله !

لأَنَّ " المَدينَةَ" إرتَدَّت - اليَومَ – بَعدَ وَفَاة

النَّبِيّ وَ أُولاَئِكَ الفَاتِحِين !

وَعُدْتُ مَعَ العَائِدِينْ..

مَرَرتُ عَلَى قَبْرِ" زيغود "..

وَطُفْتُ بأَرْجَاءِ " ديدوش"..

بَكَيْتُ عَلَى قَمَرٍ لاَ يَعُودْ ،،"[1]

فالهُوّة تتسع بين الشاعر ومدينته "ويتطور شعور الاغتراب في المدينة إلى ما يمكن أن نسمّيه العجز عن التواصل ، وهو شعور عام لدى شعراء المدينة العرب "[2] بغض النظر عن ميولاتهم واعتقاداتهم،فما بالك بهذا المتصوف الذي يبحث عن لحظة وصال مع حبيبـــه كيف ينعم بها وهو ضائع في هذا الزخم المكاني؟ كيف له أن يرتاح وهو يرى أن المدينـــة ارتدت عن كثير من القيم وتنكرت لتاريخها الجهادي والثقافي؟ .

1- المرجع السابق، ص : 75..
2- مختار علي أبو غالي ، المدينة في الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، سنة 1990، د ط، ص:20.

5) الاغتراب الثقافي:

إن نكبة الجزائر كانت مع دخول فرنسا إلى أرضها حيث أنها لم تكتــف بـــاحتلال المكان وإنما عمدت إلى تغريب ثقافة الأمة لذلك حاربت تعليم العربية وفي المقابل شـــجعت تعليم الفرنسية وزرعت الاغتراب منذ الوهلة الأولى فـــي نفـــوس الجزائـــريين بتغريـــب أرواحهم و لغتهم ، وأصالتهم ، فالثقافة بمعناها الواسع" هي جماع السّمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تُميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها "[1]وفرنسا كانـــت تريـــد لهذه البقعة الطيبة الالتحاق بالأراضي الفرنسية فقد "صدر في دســـتور عـــام **1848** بـــأن الجزائر جزء لا يتجزأ من الأرض الفرنسية وهو مشروع الإذابة أو الإدماج في فرنسا " [2] لأجل هذا فقد سعت فرنسا بكل الوسائل لطمس الهوية وتغيير ثقافة النشء الذي راهنت على تغريبه وذلك بخلق فرد يتحلل " من الثقافة الشعبية وعدم قبول القيم الأساسية للمجتمع الذي يعيش فيه "[3] بكل بساطة خلق فرد مغترب لأن الاغتراب" ظاهرة اجتماعية تدخل في نسيج الحياة الثقافية الاجتماعية "[4] وهي ركزت على نشر ثقافتها من خلال تغيير التعليم والتربيـــة والتذوق . يشير "**كينستون**" إلى : " أن مقاييس التذوق و التربية هي بالطبع جزء من البيئة الاجتماعية الأكثر شمولا ".5 وهي التـــي تميـــز شـــعبا عـــن غيـــره لـــذلك يعتـــز بهـــا الأفراد.والجزائري لم يقبل عن ثقافته بديلا فقد باءت كل محاولات الإدماج بالفشل، وغابت فرنسا منهزمة ولكن لم يغب الاغتراب على الساحة الثقافية الجزائرية ، فالطبقـــة المثقفـــة كانت تجمع بين جيلين أو بالأحرى بين اتجاهين " بين ما كان يسمى آنذاك بالأدباء الشـــباب والأدباء الشيوخ ، من بين عناصر هذا الصراع الأدباء الشيوخ كانوا لا يريدون الاعتراف بحركة الشعر الحر على وجه الخصوص وبالنزعة الحداثية"[6] فهذه الصراعات الاجتماعيـــة

1- أحمد بن نعمان: هذه هي الثقافة ،ص: 23.

2- محمد الطيب العلوي: التربية بين الأصالة والتغريب ، منشورات دحلب ، د ط، د ت ، ص :66.

3- شاخت : الاغتراب ، ص : 250.

4- علي وطفة: المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية ، ص ، 242

5- شاخت :المرجع السابق ، ص :238-239.

6- أزراج عمر : هكذا أهان بومدين مفدي زكريا ،ص: 17.

خلقت صراعات داخلية عرقلت الإبداع لسنوات طويلة لأنّ " وضع الإنسان في ظروف تبعث على الملل أو الشقاء فإنه يحدث العكس، إنه يخفضه بدلا من ترفيعه إذا جاز التعبير ويأخذ إحساسه بهويته - أي أهميته في التناقص والانحطاط بصورة ثابتة "[1]فلا يجد لإبداعه متنفسا ويبقى حبيس الأدراج ، ومن ثَمَّ كان الاغتراب من نصيب الجيلين ، وما كان هناك مجال للتغيير إلا بتقبل الآخر وعدم إقصائه فلا تصبح العلاقة مع الأنا والآخر " من خلال مفردات الأصل والمحافظة أو الخوف والخشية، بل من خلال مفردات الخروج والمغامرة أو الإبداع "[2] ولكن أي إبداع يكون إذا كان الآخر لا يعترف بإبداعك، يروي"**عمر أرزاج**" قصته مع الرئيس"**هواري بومدين**" فيقول "وسألني عن عملي فقلت له بأنني أشتغل في مهنة التعليم، وقال لي بسرعة وبحدة بأن المعلم الواحد أفضل من ألف شاعر "[3].

نعم إن الحاجة إلى التّعليم عند الإنسان "أشد إلحاحا وأعظم خطرا إذ يولد الإنسان قاصر العدة لا في القوة على مواجهة مطالب الحياة الاجتماعية فقط بل أيضا في القدرة على مواجهة مطالب الحياة المادية ... كما أنه في حاجة إلى أن يغذي فطرته ويزيدها ثراء وكمالا "[4] لذلك كان للمعلم مكانته، ولكن للشاعر دور هام في سمو النفس والارتقاء بها، وتجاهل المجتمع لهذا الدور جعل المبدع الجزائري يشعر بلا انتماء فينعزل مع إبداعه متسائلا:

" أَأَنْتَ الذِي كُنْتَ تَحلُمُ بِالمُسْتَحِيلِ

وَتَصنَعُ للشَّمْسِ حَبْلَ الوِصَالِ

وَتَكْتبُ فِي وَجنَاتِ النُّجُومِ

1- كولين ويلسون: الشعر والصوفية ، ص: 101.

2- علي حرب ، حديث النهايات فتوحات العولمة و مآزق الهوية ،ط: 02 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، سنة : 2004، ص: 27.

3- أزراج عمر : المرجع السابق، ص: 17.

4- يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، مصر ، ط: 6 ، د ت ، ص: 212.

حِكَايَاتُ عِشْقِكَ

وتَحْرِقُ قَلبَكَ بِالنَّبَضَاتِ المُضيئَةِ ؟

وكُنْتَ تَقُولُ : سَأَفْتَحُ بَابَ السَّمَاءِ

وَأبدعُ جَنَّات عَدْنٍ

تسَمَّى وَطَن! "[1]

هذا الواقع المرير الذي جعل الشاعر يقف عاجزا عن تحقيق أحلامه، بل مستغربا كيف استطاع أن يحلم بهذه الأشياء؟ وهل هو فعلا من حلم بهذا ؟ أخذته التساؤلات ورمت به في الاغتراب ليس في مجال الشعر فقط ولكن دخلت روح اليأس إلى جميع مجالات الحياة، والسبب الرئيسي في ذلك راجع للاستعمار البغيض الذي حاول تغريب الشعب وسلبه مقوماته الروحية والثقافية ولم يفلح، ولكن بقي من يكمل مهمته وقد وصف "**ابن باديس**" خطر هذه الفئة بقوله " نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون وربما عن سوء قصد تاريخنا ومقوماتنا ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا "[2].

وصاح "**مفدي زكريا**" صيحة مدوية أراد بها تنبيه الغافلين للخطر الجارف :

"أَمَاناً مِن الخَطَرِ الدَّاهِم   وَ مِن مِعْوَلٍ قَاصِفٍ هَادِمِ

غَزَا المَذهَبِيّونَ عَقْلَ الشَّبَاب   وبِمُسْتَوْرَدٍ آفِنٍ آثِم "[3]

1- أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر، ص: 371.
2 - محمود قاسم :عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ن ط: 2 ، دار المعارف ،ص: 67.
3- يحي الشيخ صالح :شعر الثورة عند مفدي زكريا ، دراسة فنية تحليلية ،دار البعث ، قسنطينة ،ط: 1، 1987، 226.

فالتخلي عن الأصالة والجري وراء أفكار الآخرين ومذاهبهم يخلق مجتمعا تـــابع لغيـــره وبالتالي يفقد أساس وجوده العقلي، وإذا كانت الثقافة المتكاملة التي تميز المجتمـــع الســـائد المستقر تنعكس في بروز عقل فعال مستقل، فإن الثقافة المستلبة تخلق فردا بلا هوية ، بـــلا أحلام ، بلا طموح، بلا فاعلية إيجابية قادرة على التدخل في مجرى التـــاريخ والتـــأثير فيه، لأنه غير قادر على تجاوزه وضبط تناقضاته[1].

فهو تائه لأن تأثير الغزو والنتيجة الحتمية لهذا الأمر ضياع الأنا و السير فـــي ركب الآخر، فالمسلم "لا يخش الالتحام ولا يهاب المواجهة . بل إن نقاء جوهره لا يظهـــر إلا بالالتحام، وطاقاته لا تنفذ إلا بالاحتكاك ، وقوته لا تتجل إلا بالتحدي ، ورأيه لا يســـود إلا بانكسار الآراء الأخرى في معارك محايدة "[2]، فالأمة راسخة بجذورها في التاريخ مـــا استطاعت سنين الظلام تغريبها"فمن تلك الهوية التاريخية خرجت أنوار النبوات وأشـــرقت المعرفة الإلهية على العالم"3 وباللغة العربية سادت الأمة وسجلت تاريخها الذهبي ، فبقـــدر ما احتفى المرء بلغته التّي هي أصل هويته بقدر ما حافظ على استواء استقامته فلا اعوجاج ولا اندحار ولا استلاب يقول "**مفدي زكريا**":

" ذُلّ شَعْب لَمْ يَتَّخذْ لُغَةَ الأَجْدَادِ   حِصْنًا وَرَامَ عَنْهَا انْفصَالاَ

وَعُقُوق البَنِيـــن أَعْظَمُ خَطْب   يُرهِقُ الشَّعْبَ ذِلَّةً وَنِكَالاَ" [4]

ولغة الأجداد لم تجد الطريق ممهدا لها في جزائر الاستقلال فقد " كان التعليم المعرب يقف موازيا للنظام التربوي الموروث عن الإدارة الفرنسية ، ويحتل موقعا هامشيا لا يفتح أمامه

1- ينظر: غليون برهان : مجتمع النخبة ، دراسات الفكر العربي ، معهد الإنماء العربي، بيروت ، لبنان ، ط:1 ، سنة : 1986، ص : 225 .

2 محمد سيد محمد: الغزو الثقافي و المجتمع العربي المعاصر ن ط : 1 ، سنة ، 1994،دار الفكر العربي القاهرة.ص : 330.

3- المرجع نفسه ، ص :331.

4- مفدي زكريا : اللهب المقدس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، د ط ، سنة : 1983،ص:190.

أي سبيل للتطور الكمي ، ولا التطور النوعي "[1] هذا التهميش الذي جعل اللغة يتيمـــة بـــين أهلها ، يقول" **مصطفى دحية**":

" وَأَنَا اليَتِيمُ كَاللُّغَةِ !!

أَلغَزتُ آيَات اليَتَامَى في غَدٍ حَفَّتْهُ آيَات

الجُحُود"[2]

فقد أصبح كل شيء قادم من هناك من وراء البحار يبهرنا،ويمسخ عقولنا ، ويغيـــر ثقافـــة المجتمع، يقول" **مصطفى دحية** ":

"يَقْتَفِي أَثَرِي تَوْأَمَان :

جَسَدِي ...

وَنَشيجُ المَعَانِي

والذَّاكرَةُ

ورَأسْمَالَه:

عَوَاطفٌ مِن الكَرْبونِ

أَحلَامٌ مِن الكَرْتونِ

مدوَّنٌ عَلَى صَفَحَاتِهَا :

1" MADE IN USA

1- محمد الطيب العلوي:التربية بين الأصالة والتغريب، ص : 260.
2- مصطفى دحية : اصطلاح الوهم ، ص:55-56.

فاغتراب الشاعر دلّ عليه باغتراب مكان الصنع ،فـالاغتراب سـكن العواطـف والمشاعر فأصبحت جافة لا نداوة فيها ،فهي تزييف للواقع وضياع للغد ،كل هـذا صـنع هناك في أمريكا بفكر غريب عن فكرنا عبرت عنه لغة غير لغتنا ." وبسب من محدوديـة الوعي ،فقد انزلق (الغموض) أو الالتباس إلى أعضائنا ، وابقي ضغط وعينا منخفضـا "[2]. فسماحنا لهذا السيل الجارف أن يأخذنا في تياره ويغربنا عن نبعنا الصّافي هو ما جعـل إنتاجنا الثقافي مغتربا لأنّ "النشاط غير المغترب هو عملية ولادة ، عمليـة إنتـاج شـيء ،وعلاقة موصولة بالشيء الذي أنتجته "3. بينما النشاط المغترب يـأتي إنتاجـه مطبـوع باغتراب صاحبه ، فالثقافة لا يعني أن ننبهر بالأقوى ، فنتبنى أ فكاره وندافع عـن مبادئـه ولكن تعني بالدرجة الأولى أن أقبل بك وتقبل بي وأن تكون هناك تثاقف الثقافات بحيث أنها تصب في نهاية المطاف في مصب تراث إنساني مشترك مع المحافظة على خصوصـيتنا "فالاتصال الثقافي واقع تاريخي وفي الوقت نفسه ضرورة معاصرة."[4] ولكن حينما نتعامـل معه بإيجابية تزيد من احترامنا لذواتنا ولمجتمعنا ولثقافتنا لأن" خطـر موقـف السـلبية والرفض في وعي الحياة اليومية هو أنّه يجعلنا نهدر حياتنا والوقت هو العملية المتداولـة للوجود الإنساني وكل لحظة تضيعها في السلبية إنها تدمرها"[5] فعندما نتخطـى اغترابنـا السلبي هناك فقط نخط أول حرف في تقدمنا نحو الأمام ونتجاوز بقية الاغترابات .

6) الاغتراب الاقتصادي

يؤثر عن **علي بن أبي طالب** – كرّم الله وجهه - قوله :" لو كان الفقر رجلا لقتلته " وما كان علي رضي الله عنه ليقول هذا القول لولا أنه أدرك ما للفقر من أثـار نفسـية واجتماعية على الفرد والمجتمع.

1- مصطفى دحية : بلاغات الماء ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ط:1 ، 2002، ص:14.
2 اريك فروم : ما وراء الأوهام ، ص : 63.
3-اريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر ، ص: 83.
4- محمد سيد محمد: الغزو الثقافي والمجتمع المعاصر، ص: 326.
5 - اريك فروم : ما وراء الأوهام ،300.

يقول "**الأمين العمودي** ":

حَالِي اسْــتَحَالَ وَفَــاقَــنِي الأَقْــــرَانُ مُذْ غَابَ عَنِّي الأَصْفَـــــرُ الرَّنَانُ

أخْفَى بَنُوا غَبْرَاء نُــــورَ حَقِيقَــــتِي وَأَحِبَّتِي نَقَضُوا العُهُـــودَ وَخَانُوا

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيَّ فِي شَرْخِ الشَّبَــــــا بِ وَ فَاتَنِي مَا يَفْعَـــــلُ الشُّبَّـــانُ"[1]

فهذا الفرد الذي يجوب الشوارع طلبا للعمل ليسدّ جوعه ويحفظ كرامته ولا يجد. كيف ينظر إلى مجتمعه الذي لم يوفر له حقه في العيش الكريم ؟

يقول **محمد زيتلي** :

" **وَأَسْأَلُ مَا بَالُ هَذِي الجُمُوع**

يُحَاكِمُهَا الجُوعُ

يَخْتَصِرُونَ الجوَابَ بإِيرَاد فَصْل التَّحَوُّل

فأَبْقَى وَحِيدًا

أُطِلُّ عَلَى شَجَرِ القَلْبِ

ثُمَّ يُعَذِّبُنِي الانْتِمَاءُ لِقَائِمَةِ الفُقَرَاء[2]

فهو يرفض انتماءه لهذه الطبقة الفقيرة ، المهمشة اجتماعيا، وعندما يعذبه الانتمـــاء إلى الفقراء ليس لأنه يكرههم ولكن يرفض أن يكون همُّ الفرد الجزائري هو البحـــث عـــن عمل لسدّ جوعه " لقد أثبتت البطالة أنها أكثر من مشكل اقتصادي واجتماعي وعليه فإن أي

1- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص:284.
2 - حسن فتح الباب : المرجع السابق ، ص: 167.

تفريط في مواجهتها من شأنه أن يزيد الأوضاع تأزما"[1]، ويزيد الفرد بعدا عـن الانشـغال بالوطن بل يزيد الهوة بين طبقات المجتمع، فيخلق نوعا من النقمة والمرارة والاغتـراب، فمن حقّ كل فرد أن يكون له مصدر رزق يكفيه ويغنيه عن سؤال النّاس أعطوه أو منعوه، فهو في الحالتين لن يكون في تلاؤم مع المجتمع الذي لم يوفر له الشغل بالأخص للشـباب الذي يفتح ذراعيه لمستقبل أفضل،فإذا به يتلقفه شبح عدم توفير منصب شغل" إن البطالـة في الجزائر بطالة شبابية حضرية كون أنها تمس الفئة التي يقل عمرها عن ثلاثين سـنة"[2]. وشعراء فترة ما بعد الاستقلال الذين عالجوا المواضيع الاجتماعية هم شباب أحسـوا بمـا يحس به جيلهم من ضائقة اقتصادية حاولت البلاد تخطيها، ولكن " مشكل التشـغيل يظهـر كحاجز صعب التخطي، ويشق على الاقتصاد الجزائري مواجهته خاصة عندما يتعلق الأمر ببطالة مكثفة طويلة الأجل"[3] ومع بقاء الحاجز يبقى ألم الشاعر من الوضع القـائم، ومـن الطبقية التي بدأت تظهر في المجتمع.

يقول **محمد زيتلي** :

" هَذِي المَلايين لاَينْتَهِ جُوعهَا

يُتْعِبُنِي زَمَنٌ لِلْمُلُوكِ السُّكَارَى

عَلَى شُرُفَاتِ القُصُورِ الظَّلِيلَةِ

لَكِنَّنِي ضَائعٌ بَيْنَ هَذِي الوُجُوه"[4]

فضياعه بين الوجوه لم يضيع السؤال بل أصبح يلح عليه أكثر من أي وقت مضى

1- عبد القادر بلعربي: الجزائر بين البطالة والقطاع الغير رسمي ، دراسة قياسية بمنطقة تلمسان الحضرية ، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية تخصص: اقتصاد التنمية ، المشرف : بونوة شعيب ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ، جامعة أبي بكر بلقايد ، ص: 86.
2- المرجع نفسه : ص : 112.
3- المرجع نفسه ص: 93.
4- حسن فتح الباب، شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والأفاق ، ص171.

"... هَذِي المَلاَيين لا يَنْتَهِ جُوعهَا

فلِماذَا تَجُوعُ ؟ هذِي المَلاَيين لاَ ينْتَهِ

صَبْرهَا ولِهَذَا تَجُوعُ ..."[1]

أما أحمد حمدي فيصور حالته في منزل بحي يحمل اسم شهيد في شارع الاستقلال:

" فِي نَزْلٍ رَطْبٍ تسْكُنُهُ الجُرْذانُ مَعِي

فِي نَهْجٍ مَهْجُور يَحْمِلُ اسْمَ شَهيد

مَاتَ كَمَا يُحْكَى فِي ظَرْفٍ غَامِضٍ

فِي أَخِرِ طَرَفِ مِن حَيِّ القَصَبَةِ

---.---

مَازِلْتُ أجُوبُ الشَّارِعَ

ضَيِّقٌ شَارِع الاسْتِقْلاَلِ

فَسِيحَةٌ سَاحَةَ الشُّهَدَاءِ

يُجْبِرُنِي الحُزْنُ

أَنْ أضْحَكَ فِي وَسطِ الشَّارع"[2]

1-المرجع السابق، ص : 170.
2- المرجع نفسه : ص: 85.

فالشاعر وهو يصف مكان تواجده يضع القارئ أمام صورة بائسة لفرد يعيش في مكان يحمل اسم شهيد مات من أجل كرامة كلّ فرد في هذه الأمة ، فساحة الشهداء فسيحة بما كانت تحمله من أمال وأحلام ، فسيحة بما تضمه من أسماء حضرت ولادة حلم الاستقلال ، وجسدت حضورها أكثر باستشهادها ،فهم جعلوا الحلم حقيقة وقدموا للمجتمع وطنا محررا ، أما شارع الاستقلال فهو ضيق بما يحمله من عايش فترة الانتقال من مرحلة إلى أخرى بتطلعاتها وتناقضاتها واغترابها وهذا الذي دفع به إلى أن يجوب الشارع حزينا مجبرا على الضحك (شرُّ البليّة ما يضحك).

فالإحساس المرهف لدى الشاعر الجزائري دفع به إلى أن يجعل من شعره رسالة تحمل هموم الطبقة الكادحة -إلى من يهمه الأمر- وهذا ما جعل "**حسن فتح الباب**"* يخرج بنتيجة مفادها "أن القضايا الاجتماعية والاقتصادية تغلب على القضية السياسية والهموم القومية في إنتاج شعراء الجزائر، ومن ثم" يشغلهم شبح الجوع والفقر أكثر من هزيمة حزيران ، وإن رددوها أحيانا في بعض القصائد على اختلاف بين شاعر وآخر في الوعي بالعلاقة الجدلية بين هذه القضايا ، بعضها وبعض "[1]

فانشغال الشاعر الجزائري بالهموم الاقتصادية في وطنه، ليس انشغالا عن هموم أمته، بل هو نقل لوجع جزء من هذه الأمة والتي مسّها الاغتراب بشتى أنواعه، فضاعت وتشتت أمرها وتكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب .

---

*- حسن فتح الباب أكاديمي و شاعر مصري،ولد عام 1923 م بالقاهرة. حصل على ليسانس الحقوق 1947م وماجستير العلوم السياسية 1960م ودكتوراه القانون الدولي 1976م.عمل ضابط شرطة, وأحيل إلى المعاش برتبة لواء 1976م. أمضى بعد تقاعده عشر سنوات في الجزائر عمل خلالها أستاذاً بكلية الحقوق بجامعة وهران. له عدّة مؤلفات من بينها: رؤية جديدة في شعرنا القديم ـ شعر الشباب فى الجزائر بين الواقع والآفاق ـ شاعر وثورة، أما دواوينه الشعرية فهي: من وحي بور سعيد 1957 ـ فارس الأمل 1965 ـ مدينة الدخان والدمى 1967 ـ عيون منار 1971 ـ حبنا أقوى من الموت 1975 ـ أمواجا ينتشرون 1977 ـ معزوفات الحارس السجين 1980 ـ رؤيا إلى فلسطين 1980 ـ وردة كنت في النيل خبأتها 1985 ـ مواويل النيل المهاجر 1987 ـ أحداق الجياد 1990 - الأعمال الكاملة 1995 - الخروج من الجنوب 1999.

1-حسن فتح الباب: مرجع سابق، ص: 169.

يقول **محمد ناصر** :

"يَا أُمّـــة الوَحْي أَهْوَال مَاسِينــَا   طَمَّت مَوَاجِعنَا إذْ غَابَ آسِـــــينَا

قَدْ غور الجُرحُ في أَعمَاقِ مِحْنَتنَا   شَعـــبٌ يُغازلُ حُكَّاما فَرَاعــينَا

الغَربُ يقتلنا ذبحا ومَــسْـــــغبَة   والعَرَبُ تَقتُلُنَا صَـــمْتاً وتَسْكِينَا

وَأمَّة الوَحْي تَحْتَ الذُلِّ صَامتَة   تُنَادِمُ الحُزْن تَهْجِيراً وتَهْجِينَـــا "[1]

إن أوجاع الأمة لامست جرح الشاعر، فانفجر مناديا أمة الوحي لتسترجع ماضيها المشرق وتعيد الأمان لأفرادها.

فالاغتراب إن كان عند مفكري الغرب حالة مرضية فإنه عند الشـــاعر الصّـــوفي المسلم حالة صحية تداوى بها نفس العارف فتُصقل لتتجلي عليها صفات الكمال ،ولتكـــون أهلا للقرب والفوز بالجنان . والشاعر الجزائري عبّر عن اغترابه بإيجابية، فلـــم يستســـلم لهواجسه النّفسية، ولم يتخل عن رسالته الوجودية،فباح باغترابه النّفســـي وشـــكا اغترابـــه الاجتماعي ،ونبّه لاغترابه الثقافي ، وبكى اغتراب دينه .

1- محمد ناصر: الآيات الشيطانية بين رفت الغرب وعبث العرب ، قصيدة شعرية ، الشعب الثقافي ، العدد: 7950، 06 أبريل 1989.

الفـــصـــل الـــثاني

الاغتراب الديني

تمهيد

1- المبحث الأول : اغتراب شعراء ما قبل الاستقلال

2- المبحث الثاني :غربة واغتراب

3- المبحث الثالث: اغتراب شعراء ما بعد الاستقلال

<u>الاغتراب الديني</u> :

قد يكون المُكَوِّن الدّيني في الشخصية الجزائرية له حضور مميز، وملمح بارز في تكوين هذه الشخصية بأبعادها المختلفة، فما إن جاء "**عقبة بن نافع**" حاملا رسالة الإسـلام إلى هذا البلد حتى أصبح همّ أبنائه الدّفاع عنه،ونشر تعاليمه السّمحة إلى البلدان المجـاورة، وما حملات الفتح التالية لفتح إفريقية ومشاركة البربر الفعالة في هذه الحمـلات إلا دليـل واضح على هذا الحرص الشديد، والصدق الكبير في منافحتهم عن الـدّين الـذي اعتنقـوه حديثا وتشبعوا به حدَّ الاستماتة في نشره، وكان الجزائري بعد ذلك متى ما شعر بـالخطر يحدق بمعتقداته ودينه إلا وهرع مدافعا عنها، مستميتا في نصرتها ابتغاء الأجر والثـواب، وخوفا من أن يكون للجزائريين دين آخر غير الدين الذي ارتضوه لأنفسهم، وتعبـدوا بـه زمنا طويلا، وما كان استنجاد أهالي الجزائر "**بعروج**" و"**خير الـدين**" فـي بدايـة القـرن **السادس عشر** إلا خوفا على هذا الدين من حملات الصليبيين التـي مـا فتئـت تتحـرش بالسّواحل الجزائرية بعد سقوط الأندلس سنة 1492، .وما كانت حادثـة "**المروحـة**" التـي اختلقها الاستعمار الفرنسي سوى امتداد لتلك الحملات، فلقد بذلت فرنسا المنتصرة للصليب الجهد الجهيد من أجل تغريب هذا البلد وإبعاده عن دينـه ، "أخـذت ترسـل الإرسـاليات التنصيرية أملا في أن تنصر هذا الشعب"[1] لكن مسعاها سرعان ما اصـطدم بتضـحيات جسام وبطولات منقطعة النظير من شعب لا يقبل أن يكون تبعا لصليبي عـلاوة أن يغيـر دينه ويستبدله بغيره، فعلى الرغم من الآلام والجراح التي عانى منها الجزائري إلا أنّه كان كل نبض فيه ينادي ب "لا إله إلا الله " هذا الرفض وهذا الصراع العقائدي كان له انعكاس واضح في الشعر الجزائري ، فقد كانت القصيدة الدينية تؤكد رسوخ العقيدة الإسلامية لدى شعب الجزائر:

1-محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، التاريخ المعاصر ، بلاد المغرب ، المكتب الإسلامي ، ط:2، سنة : 1996، ص : 237.

" **الجَزَائرُ كَانتْ مَنْصُورة ًوأَمِيرَة**

مَنْ يُضَمِّد الآنَ الجِراحَ التِّي نُعانِيهَا،

إِنَّ قلْبهَا نَهْرٌ منَ الدُّمُوعِ ،

أوَّاه ! سَأضَحِّي بِحيَاتِي مِنْ أَجْلِ المُنْقِذ الجزَائِرِي

الذِّي يَسْحَقُ الصَّليبَ مِنْ سَواحِلنَا ،

وَ يُعِيدُكَ حُرّاً، يَا وَطَنِي ، الجَزائِر* "[1]

فالجزائر التي كانت أميرة بدينها منصورة بإيمانها جُرحت في عمقها بتحكُم الصّليب في شأنها، فانقلب حالها ، وضاع الأمان من أهلها ، وأسكت الهمُّ شعراءها إلا أنّ الخوف من تسلط المستعمر وفرض عقيدة مغايرة قد تؤدي بالمسلم الجزائري الحق أن يشوب إسلامه زيغ أو انتقاص دفعت بهذا الشاعر إلى أن يلجأ إلى الله وأنبيائه وأوليائه الصالحين حتى يمدونهم بالمدد لمواجهة هذه التحديات الدّينية وسط هذا الاغتراب نطقت القصائد ، فكان الشعر مرآة عاكسة لحالة اليأس والضياع التي عاشها كل فرد من أفراد هذا البلد الذي أرادت فرنسا أن تجعله فرنسيا، "إن أرض الجزائر تشكل جزءا لا يتجزأ من أرض فرنسا "الأم" ، وعليها أن تعيش نفس الحياة التي تحياها .. مبادرة وتنفيذ في الجزائر حزم ومراقبة في باريس"[2] "فكان نتيجة ذلك عنف واضطهاد يمارس ضدّ الأبرياء عملوا كل ما بوسعهم من أجل اقتلاع هذا الشعب من أرضه، شوّهوا تاريخه، ومسخوا شخصيته، أرادوا أن يقْطَعوا كل صلة له بعروبته وإسلامه "والذي يلفت النظر هو أن حلقة من حياة

1- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط:1، سنة:1981، ص:17.
* مقطع من قصيدة لشاعر مجهول مترجمة من العربية إلى الفرنسية إلى الانجليزية ، ترجمها أبو القاسم سعد الله عن الانجليزية شعرا حرا ، أورده عبد الله الركيبي في كتابه الشعر الديني الجزائري في هامش الصفحة 17.
2- عبد الحميد زوزو : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900) المؤسسة الوطنية للكتاب ، د ط،1984، ص: 165.

الشعر قد انقطعت أو كادت تنقطع ، وتبدأ هذه الفترة منذ بداية الغزو الفرنسي حتى أوائـــل هذا القرن"[1]، فنجد أن الاغتراب قد سكن نفوس الشعراء فلم يعد لهم لسان يغني الأشعار في وطن يُحرق شجره، وتُرمّل نساءه، ويُشرّد أطفاله، وإن كان الشعر فُرض عليـــه الانعـــزال والبُكاء على الأطلال فإنّ الشعب اختار المواجهة والجهاد.

1- اغتراب شعراء ما قبل الاستقلال :

بعد دخول النصارى الجزائر المسلمة كان أول من وقف لهم بالمرصاد هم هؤلاء الذين تعلقت قلوبهم بمحبة الله فانزاحت الغشاوة عن أعينهم، وصفت قلوبهم فارتقوا في مقامات* التوبة، والورع، والزُّهد، والفقر لرحمة الله، والصّبر والتّوكل، والرّضـــا، فتيقنـــوا بحـــال المراقبة فاقتربوا وتنسّموا ريح المحبّة، وشملهم حال الخوف من الله وحده، فانفتح لهم حال الرّجاء، وصحبهم الشّوق، وأنسوا بالله فاطمأنت قلوبهم﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِـــذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾2 فتمتعوا بحال المشاهدة * قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِـــي ذَلِـــكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾3.

وتيقّنوا باليقين " قال أبو يعقوب : لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع عن كل ســـبب حال بينه وبين الله تعالى، من العرش إلى الثرى، حتى يكون الله لا غير، ويؤثر الله تعالى، على كل شيء سواه، وليس لزيادة اليقـــين نهايـــة، كلمـــا تفهمـــوا وتفقهـــوا فـــي الـــدّين ازدادوا يقينا على يقين"4 وهم زاد يقينهم واغتربوا عن دنيا النّاس فرخصت أرواحهم

1-عبد الله الركيبي : دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، تقديم: صالح جودت، دار الكتاب العربي، د ط ، د ت، ص: 42.

2- الرعد، الآية : 28.

3- سورة ق ، الآية: 37.

4- أبو نصر السراج عبد الله بن علي بن محمد بن يحي الطوسي :اللمع في التصوف ، شركة القدس للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط:1، 2008، ص:97.

* - يعرف أبو نصر السراج في كتابه اللمع في التصوف ، قال الشيخ رحمه الله : فان قيل : ما معنى المقامات ؟ يقال معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات و الرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل .

*- أما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار .

في سبيل الله حين وجب الجهاد قام الأمير عبد القادر الذي قال:" كـــان هـــدفي أن أطرد الكفار من الأرض العائدة لآبائنا ورفضت الاستعانة بـــالأجواد النـــبلاء العســـكريين واعتمدت في السلطة على المرابطين والأشراف"[1] الذين أخذتهم الغيرة على ديـــن الله فمـــا تقاعسوا على رفع سيوفهم في وجه هذا العدو وراح **الأمير عبد القادر** يفتخر بـــأي نصـــر يحققه على الكفار.وكأنه رَدُّ اعتبارٍ ليس لنفسه فقط بل لكلّ واحد من شعبه، ولكل مقدس من مقدساته ، ولكل ذرة من تراب أرضه :

" أَلَمْ تَرَ فِي "خَنْقِ النِّطَاحِ " نِطَاحَنَـــــــــا

غَدَاةَ التَقِيْنَـــــــــا، كَمْ شُجَاعٍ لَهُمْ لَـــــــوَى؟

وكَمْ هَامَـــــــةٍ، ذَاكَ النَّهَـــار قَدَدْتُــهَـــا

بِحَدِّ حُسَامِـــي، وَالقَنَـــــــا، طَعْنه شَـــــوَى

بِيَـــــوْمِ قَضَى نَحْبَا أَخِي فَارْتَقَى إِلَـــــــى

جِنَـــانِ لَـــــــهُ، فِـــــيهَا نَـــبِيّ الرِّضَا أَوَى

وَيَـــــوْمَ قَـــــضَى تَحْتِي جَـــوَاد بِرَمْيَـــةٍ

وَبِـــــي أَحْدَقُـــــوا، لَوْلَا أُولُو البَأْسِ وَالتَّقْوَى

وَلَمَّـــــا بَـــــدَا قُـــــرْبِي، بِيُمْـــــنَـــــاهُ حَرْبَـــةً

وكَفَى بِهَا نَار، بِهَا الكَـبْـــش قَـــــدْ شَــوَى

فَأَيْقَنَ أَنِّي قَابِضُ الرُّوحِ ، فَانْكَفَا

1- برونو إتيين :الأمير عبد القادر الجزائري ، ترجمة : ميشيل خوري ، دار عطية للنشر بيروت ، لبنان ، ط:1 ، سنة : 1997، ص : 163.

يُولِّي، فَـــــوَافَـــاهُ حُـسَـامِي، مُذْ هَـوَى

شَـــدَدْتُ عَلَيْهِمْ شِدَّةً هَاشِـمِيَّـة

وَقَـــدْ وَرَدُوا وِرْدَ المَنَايَــا، عَلَى الـــغَـوَى"[1]

ويؤرخ "**الأمير عبد القادر**" لهذه المعركة ويسجلها في شعره حتى تبقى سندا موثّقـا يعرف الظالمون من خلاله أن الضّعفاء لن يتنازلوا عن حقّهم ولن يرضوا بالكفار أوصـياء عليهم، وسيزفُّون شهداءهم إلى جنان الخلد كما زفَّ الأمير أخاه الذي انتقل من دار الغربـة إلى دار الخلود حيث نبي الله محمد – صـلى الله عليـه وسـلم– والصـحابة و الشـهداء المقرّبون. ويستمر الشّاعر في ذكر صولاته وجولاته في الميدان أين أحـدق بـه الخطـر وأحاط به الأعداء لولا أولوا البأس والتقوى، هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله، لا لطمع فـي عرض من أعراض الدُّنيا ولا لغرور في أنفسهم ولكن لرفع راية الإسلام خفاقة في سـماء الحرية والانعتاق، فالمتصوفة طلاب حرية إذ لا يكون "العبد تحت رق شيء من المخلوقات ولا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة، فردا لفرد لم يسـترقه عاجـل دنيـا، ولا حاصل هوى"[2] لأجل هذا حارب "**الشيخ بوعمامة**"، و"**الشيخ الحداد**" وغيرهم مـن شـيوخ الزوايا ومقدميها الذين أخذهم الخوف على دين الله فلم يرضوا أن يكون للنّصارى قدمٌ فـي هذه الأرض الطيبة. واعترف بالفضل القريب والبعيد ، ولقد " امتدح **ابن باديس** تصـوف السيد **أحمد الشريف السنوسي** ويصفه بأنه كان على جانب عظيم مـن التمسـك بالكتـاب والسنّة والتخلق بأخلاق السلف الصالح"[3] ولقد ذكر"**عبد المنعم الحنفـي**" فـي"**موسـوعته**

1- الأمير عبد القادر: الديوان ، ص:15.

2- القشيري : الرسالة،ص:252.

3- عبد الحميد بن باديس: آثاره ،المجلد الثالث ،دار البعث ، ط:1، سنة:1984، ص:262.

*- السنوسي الخطابي السني الإدريسي الذي ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب ، وقد ولد في بلدة مستغانم بالجزائر، وينعت البعض تصوفه بالتصوف السياسي .

* - هو محمد بن عبد الله من أولاد سيدي أحمد بن يوسف ،فرع قبيلة أهل غسول قرب عين تموشنت ، وفي عام 1840 استقر في مدينة تلمسان. اشتغل معلما للقرآن في زاوية أولاد سيدي يعقوب .بعد احتلال تلمسان في أواخر شهر ديسمبر 1841 حمل لواء المقاومة ضد الفرنسيين لمدة تقارب 30 عاما.

الصوفية" الطريقة السنوسية فقال: " وكانت الطريقة السنوسية في التّصوف سببا في أعمال المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر والثورات المختلفة التي قامــت ضــد فرنســا كثورة "**محمد بن عبد الله**"* في تلمسان وصحراء الجزائر"[1]، فما كان العدو يرتاح من ثورة حتى يُواجَه بأخرى تشتعل فيسْتعِرُ بنارها مدّة من الزمن، وما إن يُطفِئها حتى تُوقد جــذوة أخرى في منطقة من مناطق الجزائر الأبية، وما كان لهؤلاء الثوار من زاد ســوى قــرآن ربّهم وسنّة نبيّهم، نورٌ أنار أرواحهم فبذلوا النَّفس والنّفيس للدّفاع عــن ديــن الله تعــالى، وراحت سيوفهم تقطف رقاب الغاصبين، وألسنتهم تلهج بالدُّعاء لربّ العــالمين أن ينــزع الاغتراب عن الدّين، لأنهم مؤمنون بنصر الله تعالى ولو بعد حِينٍ. يقول **الأمير عبد القادر**:

" **الدَّافِــعُونَ عَــــــنِ الإسْلامِ كُــلّ أذَى**
بِأنْفُسٍ قَدْ غَــــلَــتْ قَـــدْرًا وَأَثْــــمَانَـــــا
كَـــــمْ غُــمَّـــــةٍ كَــشَــفُوا، كَــمْ كُرْبَةٍ رَفَــعُوا
وكَـــــمْ انْــزاحُــــوا عَــنِ الإسْــــلاَمِ عُدْوَانَــا
يَـــــا رَبِّ زِدْهُـــــمْ بِتَــــأْيِـــيدِ إذَا زَحــفُـــــــوا
وَاقْـــــطَــــعْ بِــسَيْفِهِـــمْ ظُلْمًا وكُــفْـــرَانَــا
أَلْـــــقِ السَّـــــكِـــينَــــــةَ رَبِّـــي فِــــي قُلُوبِهِمْ
وَزِدْهُـــــمْ يَــــا إِلَــــــــهَ الــعَــرْشِ إِيــمَــانَا
وَجَّهْتُ وَجْهِي، أَنِلْنِي مَا دَعَوْتُ بِـــــــــــــــــهِ
بِأَهْلِ بَدْرٍ – حُمَاةُ الدِّينِ – أَرْكَانَـــــــــــــــــــا"*[2]

يرفع الأمير يديه إلى السّماء راجيا ربّه أن يؤيّد هؤلاء المؤمنين كما أيَّد أصــحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يوم بدر، فأهل بدر كانوا ضعفاء ثلــة قليلــة بعــددها

1-عبد المنعم حنفي: الموسوعة الصوفية، أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد، ط : 1، سنة 1992، ص: 210.
2- عبد القادر الجزائري:الديوان، ص:296.

كثيرة بإيمانها حمت الدين ووقفت أمام جيش فاقها عدّة وعتادا أخذته العزة بالكفر فطغى و تجبّر، صورة يراها الشاعر ماثلة أمامه فيتمنى نصرا كنصر بدر. وكثير هم الشعراء خاصة المتصوفة منهم الذين رفعوا توسلاتهم إلى الله لكشف الغمة عنهم وعن الأمة بعد أن اغتربوا، ورمى بهم العدو الفرنسي في غياهب السجون يقول **مصطفى بن التهامي** في استغاثته التي نظمها " أثناء سجنه مع الأمير في قلعة **امبواز (فرنسا)** حيث ضاقت بهم الحال، وطال عليهم الأسر وكاد يصيبهم اليأس ، فهم يئسوا من رحمة النّاس ولكن الأمل في رحمة الله كان واسعا لذلك فرّوا إليه :

" لَمَّا جَرَى القَدَرُ بِالخِلاَفِ — وَوَقَعَ الخِلاَفُ بالإتلاف

وَوَجَبَ الوَحْشُ بِقَفْر اليَمِّ — و التَحفَ النقص بِبَدْرِ التَّمِ

واقْتَنَصَ الصَّقْرُ عَدُو صَائِد — وللنَّعَمِ فِي القرَى وَصَائِدِ

وابْتَعَدَت عَن العُقُولِ حِيَلَ — واقْتَعَدَت بِالاعتِرافِ جِيل

لَمْ يَبْقَ إِلاَّ الابْتِهَال والسَّكَن — لِلقَاهِرِ المَالِكِ كُلّ مَا سَكَن

هَذَا الذِي قَدَّمَتْهُ نَجْوَاي — فِي رَفْعِ ضَيْمِي وبَلاَ بَلْوَاي

فَامْنُنْ عَلَيْنَا بِصَلاَحِ الحَالِ — وأَنْقِذْنَا مِنْ شِدَّةِ المُحَال

مَوْلاَيَ يَا ذَا المدِّ وَالأَفْضَال — دَاوِ سِقَامَ دَائِم العُضَالِ

فَنَجْمُ الرُّفْقَةَ وَ الأَفْذَاذَ — منْ رِبْقَةِ الأَسْرِ إِلَى اللِّوَاذِ

بِمَنْزِلِ رَحْبِ الجنَابِ والسَّعَة — وَمسْجِد جَمَاعَة وَجُمُعَة"[1]

1- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثامن، 1830-1954،دار الغرب الإسلامي ،ط:1، سنة1998،ص:234-235.

فالشاعر يتوق للجُمعةِ التي تَجمعُ الجماعة في بيت الله تتلوا آياته وتنعم بسكينته ، يتوق ليوم تُفك فيه الرّقاب من أسر صليبي متعصب، فيعود للمسجد نوره الذي يحيي القلوب ويزيح الظلمة عن الوجود، هذا الدّور الذي قَضَّ مضجع فرنسا فعملت على إزاحته من طريقها. ولنأخذ كمثال مساجد الجزائر العاصمة وما آلت إليه بعد الغزو الفرنسي " لقد كان في مدينة الجزائر يوم دخلها الفرنسيون مائة وستة مساجد ، وبقي فيها يوم خرجوا منها ثمانية مساجد فقط "[1] فالكثير منها حولت إلى كنائس أو إلى ثكنات للجيش يرتعون ويمرحون ويدنسون قدسيتها ويدوسون على رقاب الضعفاء فيها، أمور يَنْدَى لها جبين الأحرار الذين لا يرضون بذلّ القيد والهوان، وينادي " **محمد الجريدي**" رسول الله ليُطهر الأرض ممن لا يُراعَ عندهم ذمّة ولا حرمة ، ويحلم بيوم تشرق فيه الأنوار فتتبدد الظلمة ، ويعلو الذكر :

"يَا رَسُولَ الأَخْلاَق قمْ طَهِّر الأَرْ ضَ فقَدْ شَانَ وَجْههَا الآثَامُ

عَكَّرَتْ صَفوْهَا مَأْثَم قَوم لَمْ يَكنْ عنْدَهمْ يُرَاعَى الذمَامُ

جَلَّ يَوْم أشْرَقتَ فِيهِ عَلَى القَوْ مِ مَنَارًا فَإنْجَابَ عَنْه الظَّلاَمُ

جَلَّ يَوْم نُشِيدُ فيه بِذِكْرَاكَ و تَعْلُو بِهَلك الأَعْلاَمُ"[2]

ففي زمن الغلبة للأقوى تغيب الأخلاق وتدقُّ الأعناق بلا رحمة ولا شفقة وبقدر ضعف الضعفاء يزيد طغيان الطغاة، ولا يبق للمقهورين سوى باب الله يدقونه يشكون له حالهم .

يقول الهادي السنوسي:

"هِلاَلُك فِي السَّمَوَاتِ مشْرِقٌ وأَوْطَانَنَا مِنْ فَوْقِهَا خَيَّمَ الكَرْبُ

1- شاكر محمود : التاريخ الإسلامي المعاصر ، ص : 235.

2- صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث ، الملحق الشعري، المؤسسة الوطنية للكتاب ، د ط ،1984، ص: 35.

أَلَمْ يَدْنُوا مِنّا بِرْهَة، فَلَوْ أَنَّــهُ دنَا، لا نمْحَى مِنْ قَلْبِ أَبْنَاءِهَا الرُّعْبُ
أَيَهْجُرُنَا والظُّلْم أَرْخَى سُدُولَهُ وَقَدْ زَاغت الأَبصَارُ وَ انفطَر القَــلْبُ "[1]

فالشاعر يشكو إلى سيد الخلق حال الدّين في وطن خيّم عليه الكرب فاشتدّ، وعمَّ الظــلام فزاغت الأبصار وانفطرت قلوب الغيورين على دينهم فلم يجدوا إلا التوسّل إلى الله تعالى و بنبيه أن يغيث هذه الأمة :

" مُحَمَدٌ هَذَا حَــالُ أمَتِّــكَ التي عَرَفْنَا وَهذَا الحَالُ فِي شَرْعِنَا عَيْبُ

نَذُوبُ أَسَى مِمَّا نَرَاهُ وَحَسْرَةً وَمَا لذوِي الإِهْمَال غَيْر الرَّدَى غبُ

فَإِنْ دَامَت الأَيَام فينَا كمَا تَرَى فَــضَيْقُ قَبْرِ دونَ ذلَّــتِــنَا رَحْبُ

لَعَلَّكَ تَدْعُو اللهَ فِي القَبْرِ قَانِتًا فَيهْتِفُ فِينَا هَاتِــفُ اللهِ، أَنْ هُبُوا "[2]

وليس أشق على المسلم من أن يرى مقدساته تدنس وهو مكتوف اليدين ،عاجز عن رد الذلّ والهوان، لذلك فالشاعر يفضل أن يدسَّ في القبر بدل أن يدوس ترابــا يحكمـــه كـــافر مشرك بالله يتحكم بمصيره ومصير أمته التي اغتربت، فدينها حاربه الأعداء وعاشــت بـــه الأهواء وغزت الخرافات عقول النّاس ، فعمّ الجهل وضاع الحقُّ .

يقول عمر بن قدور :

"وَنَزْعُـــمُ أَنَّا مُسْــلمُونَ وَ دِيننـــا عِيـــث بِهِ الأَهْـــوَاء وَ الكُــلُّ ذَاهلُ

وَنَبْغِـــي حَيَاةَ العِــزِّ وَالجَهْل دَأْبنَـــا وهَــلْ نَال عزًّا فِي البَسِيطَةِ جَاهِــلُ "[3]

1-المرجع السابق، ص : 15.
2- المرجع نفسه، ص:17.
3-المرجع نفسه ، ص:14.

فالدين الذي نزلت أول أية منه تدعوا إلى القراءة لا يُمكّنُ له إلا بالعلم ، ولا تُرفـعُ رايته إلا بتفتح بصر وبصيرة لذلك نجد أن ذوي البصائر يُولون العلم أهمية كبرى فهـاهو الأمير"**عبد القادر**" صاحب العاصمة المتنقلة يُصرّح لعدوه قائلا :" واجبي كقائد وكمسلم أن أنهض بالدّين والعلم ، ولكي تتقد جذوة الدّين التي يمكن بها وحدها مجابهتكم في كل مكـان في المدن كما في القبائل فقد أقمت المدارس التي يعلم فيها الأولاد إ قامـة الصـلاة وأهـم إرشادات القرآن الكريم إلى جانب القراءة والكتابة "[1] فالعلم والإيمان سلاحان يقهران الظالم في كل زمان ومكان ، لذلك رحل الكثير من أبناء هذا الوطن طلبا لنور العلم لرفع الظلـم عن هذا البلد .

2- غربة و اغتراب :

عمّ الظلم والظلام البلاد والعباد فحُوِّلت المساجد إلى كنائس، وضيّقت فرنسا الخنـاق على كل من رفع الحرف العربي شعارا ، ولكن الأزمة تلد الهمّة ، فكانت الهمّـة بانتشـار الكتاتيب في كل القرى والأرياف ، وسعى الأهل إلى تحفيظ أبنائهم كتاب الله ، وانتزعـوا من قوتهم ليرسلوا بهم إلى الخارج ليتفقهوا في دينهم و يتضلعوا في لغـتهم فكـان مـنهم العالم، والكاتب، والشاعر " إن جيلا كاملا من الشعراء قد ظهر في النصـف الثـاني مـن القرن الماضي، وقد أسهم هذا الجيل بنصيب وافر من الموضوعات والشعارات و الأساليب الشعرية "2 فلم يكن هناك بُدٌّ من الغربة والاغتراب حتى يُنزع حجاب الجهل عن البصـر والبصائر، فانطلقت جموع الراحلين إلى جامع الزيتونة في تونس، و القرويين فـي فـاس، والأزهر الشريف في القاهرة ، لعلّهم يقهروا الاغتراب وتمتدُّ أمـامهم الآمـال ، وتُرسـمُ الأحلام ، لغد أفضل لجزائر الإسلام ويعود لمدنها بهاء العلم يزيّنُها كما كان دائما فلقد كتب الجنرال" **بيدو**" قائد فرقة قسنطينة العسكرية تقريرا عن التعليم العمومي الأهلي في الجزائر

1- برونو اتيين :الأمير عبد القادر الجزائري ، ص :166.
2- أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص : 33.

يقول فيه : " ... لا جدال في أن مدينة قسنطينة كانت منذ الفتح الإسلامي مركــزا رئيســيا بالمنطقة ، أو ببايلك الشرق كما كانت تسمى ... كان يوجد بها خمســة وثلاثــون مســجدا وسبع مدارس، تتسع لعدد من التلاميذ يتراوح بين ست مائة وسبع مائة، ويتلقون فيهــا مــا يعرف بالتعليم الثانوي... وفي نفس الفترة كانت بالمدينة تسعون مدرسة ابتدائية "[1]. تغيرت هذه الأرقام بعد دخول المستعمر المدينة ، فشعا ر التّحضر الذي كان ينادي به العدو ما هو في الحقيقة إلا مجرد أكاذيب فضحتها التقارير التي أعدّوها بأنفسهم, فعدد المــدارس فــي مدينة قسنطينة وحدها " ... قد انخفض إلى ثلاثين كما انخفض عدد التلاميذ إلى ثلاث مائة وخمسين. وهكذا نلمح فروقا مؤسفة جدا "[2]، جعلت الجهل يتفشى بين الأهالي خاصة بــين الفقراء المعدمين الذين لا طاقة لهم بإرسال أبنائهم إلى خارج الجزائر للتعلُّم الذي لم يتسن إلا للمحضوضين، الذين كان يحتفل بنجاحاتهم لأنّهم الأمل في الخلاص من هــذا الوضــع المزري .

يقول **الزاهري** :

"مَضَى نَفَرٌ يَبْغِي المَعَارِفَ مِنْ بَنِي ال　　جَــزَائرِ حَــــتَّى آبَ أَوْبَةَ ظَــافــر

فَأَهْلاً وَسهْلاً بِالذِينَ (تَطَوَّعُوا)　　لخِدْمَةِ هَــذَا الشَّعْب شَعْب الجَزَائــرِ

شَبَابُ لعمْر الحَق لَمْ يكُ فِيهِــــم　　سِوَى حَازِمٌ، عَفٌ الطَّـــــوِيَّة طَاهِر

تَجَــلوا عَلَى هَذِى الجَزَائِر، بَعْــدَمَا　　سَجَى الجَهْلُ أَشْبَاه البُدُور الزَّوَاهــر"[3]

شباب تنوروا بالعلم، فلمعوا كالنجوم الزواهر أفاقوا على أحزان أمتهم فأبوا إلاّ أن يسجلوا للتاريخ صورا عجزت الكاميرات على التقاطها، والأقلام على كتابتها فكــانوا هــم

1- عبد الحميد زوزو : نصوص ووثائق ،ص:209.
2- المرجع نفسه، ص: 209.
*- كان الاستيلاء على مدينة قسنطينة سنة 1837.
3- صالح خرفي: محمد السعيد الزاهري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر د ط ، سنة : 1986، ص : 93- 49.

الكاتبين والمصورين والمسجلين لأحداث جزائرهم ، والمشاركين في تغيير أوضاع أمتهم سواء في الداخل أو الخارج ، فلم يكن الجزائري في غربته منعزلا عن آلام إخوانه ، ولا عن معاناة أمته ، وكان يزيد همّه ، و يتهز كيانه عندما يبصر نور العلم مشرقا في كل مكان إلاّ في وطنه وهذا ما سجله **الشيخ العقبي** في قوله: " إن المهاجر الجزائري الذي عاصر الثورة العربية الأولى في مكة ، وساهم فيها فكرا وقلما، وعانى في سبيلها ، هالته الحالة المتعفنة في الجزائر "1 حالة كان الاستعمار السبب الرئيسي فيها، فهو من حاول طمس الهوية الإسلامية للجزائريين، سلب سهولهم وأحرق جبالهم وشرّد أطفالهم، فتاهوا في أرض الله التي ضاقت عليهم ، فخرجوا والحيرة تلفُّهم وسؤال واحد يتردد بين الشّفاه " **إلى أين؟** " صورة برع "**أبو القاسم سعد الله**" في تصويرها، تنطلق أحداث القصة من واقع الإنسان الجزائري في ظل الاستعمار، بطلاها طفلان لم تشفع لهما طفولتهما بأن يعيشا الهدوء والاستقرار ماتت أمهما ولحق بها والدهما فغاب المعيل والمرشد والموجه.

يقول "**سعد الله** ":

"إِلَى أَيْنَ نَسِيرُ ؟

وَالبَرْدُ يَلْفَحُنَا

إنَّ الجَوَّ أَحْمَقُ

وَالسَّمَاء غَاضِبَةُ

لَقَدْ بَعُدنَا عَنِ الكُوخِ

كُوخنَا المِسْكِين الَّذِي جَرَفَهُ السَّيْلُ

1-- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص:41.

وَنَحْنُ نَأْكلُ ...

فتَاتَ الخبْزِ المجَفَّفِ الذِي ابْتَاعَهُ أَبِي

منْ بَائعِي الوَرَقَةِ"

عائلة فقيرة تقتات على فتات الخبز المجفف كآلاف العائلات الجزائريـــة فـــي ذاك العهد " لقد طرد السكان من أراضيهم (وهناك وثائق تبين الطريقة القسرية التي اســتعملتها مصلحة الأملاك اتجاههم) ، واضطروا إلى اكتراء الأراضي المحتجزة التي هي ملك لهــم منذ عهد سحيق كما أبعدوا من السهول ،فالتجأوا إلى الجبال حيث منعــتهم إدارة الغابــات استغلال هذه الأماكن* ..."[1] فهم لا يتمتعون بأي حق في الحياة الكريمة ، يُهجّرون مــن أملاكهم، ويُحرمون من استغلال غابتهم ، يتيهون بحثا عن عمل يحفــظ حيــاتهم و حيــاة عيالهم.

آهٍ ! أيْنَ أَبِي ؟

مَالَهُ لاَ يُؤْنِسُنَا ؟

مُنْذ أيَّام لَم أَرَه

لمَاذَا لاَ نَقِف أَوْ نَعُود

إنَّ الظَّلاَم يخِيفُنِي

والأَشبَاح تتَواثَبُ أَمَامِي

* - مقتطف من رسالة نابليون الثالث الطويلة إلى ما كماهون بتاريخ : 20-06-1865، عدد السكان بالجزائر في ذاك التاريخ تحتضن الجزائر : 2.580.000 أهلي

و 200.000 أوروبي   112.000 فرنسي

و 76.000 من الجيش   80.000 أجنبي

1 - عبد الحميد زوزو : نصوص ووثائق، ص: 155.

إنِّي أخَافُ ... أُشْفِقِ

لَقَدْ طَالَ الطَّرِيقُ ...

ولَمْ نَصلْ "[1]

نَفَسُ الشاعر في هذه القصيدة طويل لأنّه يحمل زفرات الألم والجوع والتعب والذُّل والقهر في ظل حقدِ مستعمرٍ غاشمٍ لا يرحم " لم يكن ذلك الحقد الذي ملأ قلوب المستعمرين منصبا على المسلمين الذين يقفون في وجه الطغاة أو يثورون عليهم، لا ليس هذا أبدا، و إنّما كان منصبا على المسلمين جميعا بصفتهم مسلمين لا بصفتهم ثائرين أو متمردين "[2]وهذا ما يصوره "**أبو القاسم سعد الله**" في قصيدته "**إلى أين** " فالعائلة الصغيرة لم يُحرق كوخها ويُشرد أبنائها سوى لأنها عائلة مسلمة. ونلاحظ طغيان ضمير المتكلم في القصيدة، فنحن نرى صورة الشاعر في تساؤله " إلى أين نسير ؟ " صورة كل مشرد جزائري ضاع منه المأوى والسكن ، غاب الكوخ المسكين الذي كان يأوي هذه العائلة العربية المسلمة المتكونة من "أب" و"أم" يحملان رسالة الوجود يذكران ربّاً هو المعبود يدعوانه في كل لحظة وحين أن يُفرج الكربة، ويرزقهم اللُّقمة الحلال ويبعد عنهم الأشرار، كان كل أملهم أن يعيشوا بسلام، ولكن همجية المستعمر الغاشم أبعدتهم عن كوخهم حيث الأمان ورمتهم في الاغتراب بخوفه وحيرته وتساؤلاته وغده المجهول بل بلحظته الغائبة وبروحه التائهة .

فكيف ينشأ طفل في غياب المرشد الموجه ؟ أكيد أنه سيعاني من الاغتراب الروحي ويعيش الاغتراب الديني، صورة لمأساة كثير من الأطفال الذين أشبعت الكنيسة جوعهم ولكن سلبتهم دينهم فنشئوا على غير ما نشأ عليه آباؤهم ، فلقد" أصرت فرنسا على

1- أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر، ص : 111-112.
2- محمود شاكر: التاريخ المعاصر، ص : 244.

أن تحرم شعب الجزائر وسائل الحياة جميعها ، فعليه إمّا أن يستسلم للموت، وإما أن يستسلم للإرساليات التنصيرية التي تُقدِّم له بعض الوسائل من طعام وشراب مقابل أن يتخلى عن عقيدته"[1].

ويستمر **أبو القاسم سعد الله** في تصوير مشهد التحول من الأمان والطمأنينة إلى الضياع والرهبة والظلام، ظلام المستعمر، وظلام دين المستعمر، فهو يخاف الظلام ويبحث عن النّور، عن حضن دافئ يبعد عنه البرد والخوف ، يسأل عن أمّه وأبيه لأنّه يراهما المنقذان له من هذا الضياع إذ أنّ وجودهما يوفر له الحماية حتى لو خرجوا من ديارهم وطرقوا باب الحدود شأن كثير من المغتربين .

" أُخْتَاهُ ! إِلَى أيْنَ نَسِيرُ ؟

فِي الظَّلاَمِ

قِفِي ... حَدِّثِينِي

ضُمِّينِي إِلَى صَدْرِك الدافِئ

أنْقِذِينِي مِنَ البَرْدِ ...

منَ الجُوعِ "[2]

تُمسك الأخت بيد أخيها الصغير وتمضي صامتة، فهي لا تعرف إلى أين تسير؟، لا تستطيع التوقف لتضمّه إلى صدرها، الظلام يلف المكان، والأشباح تتراقص أمامها، والصغير لا يفهم ما تُعانيه أخته الضائعة الحائرة ، فهو لا يزال يلحُّ في السؤال.

1- المرجع السابق، ص: 244.
2 - أبو القاسم سعد الله ، الزمن الأخضر ، ص :112.

طال الطريق، وبدأ الطفل يهذي من شدّة التعب ومن الجوع والبرد ومـــن الخـــوف يزيد في الهذيان فيزيد ضغط أخته على يده، تريد أن تشعره بوجودها معه، تريده أن يحس بشيء من الأمان.

"وَبَيْنَمَا الطِّفْلُ يَهْذِي

أَحَسَّ بِضَغْطٍ عَلَى يَدِهِ

فَانْتَبَه ...

وتَدَافَعَتْ قدَماهُ

كَأنَّ الأَرضَ تمِيد به

وكُلَّما أمْعنَ في الهَذَيَانِ

اشْتَّد الضَغْطُ علَى يَدِهِ

مِسْكينُ إِنَّهُ لاَ يَعِي !"[1]

ضغوط كثيرة تقع على هذا الناشئ الصّغير، تجعله يهذي ثم يغيـــب عـــن الـــوعي ليستفيق على آخر أنفاس لأخته وهي تودع الحياة " إنهم يرفضون إسعاف إنســـان ينـــازع سكرات الموت من الجوع أو الظمأ قبل أن يرضى بالدخول في النصرانية "[2] مشهد إن دلّ على شيء فإنما يدلُّ على الحقد الذي كان يحمله المستعمر للإسلام والمسلمين، ولقد نجـــح الشاعر في نقل اغتراب الجزائري العاطفي والروحي والديني، "ولا شك أن بين ســـعد الله وهؤلاء البؤساء أكثر من صلة فقد شُرِّد هؤلاء وحُوربوا وطُردوا من ديارهم ، ولـــم يســـلم

1- المرجع السابق، ص:113.
2- محمود شاكر:التاريخ الإسلامي ، ص: 244.

الشاعر من شيء كهذا"[1]، فإن لم يكن قد عاش التجربة بنفسه، فقد عايشها بوجدانه مع كل تائه ضائع في بلده و مع كل طفل يتيم ضاع منه دينه بسبب الآباء البيض[ð]، ففرنسا المنتصرة لصليبها كانت تشجع أي نشاط تنصيري في الجزائر بينما تحارب المساجد والمدارس والزوايا " ففي الجزائر العاصمة اختفى العديد من المساجد وهدمت خمس زوايا ، وصودرت عائدات المساجد والزوايا جميعها ... "[2] والأمر ليس خاصا بالجزائر العاصمة فحسب بل كان في كل منطقة من مناطق الجزائر التي يصادر فيها تعليم الدّين الإسلامي واللغة العربية بينما تشجع مراكز التنصير هذا ما جعل الشيخ "**عبد الحميد بن باديس**" يرفع استنكاره لهذه الازدواجية في التعامل بين الأديان: "توجه لومنا واستنكارنا لما نراه من الإدارة المحتفلة بهذا المؤتمر من وقوفها إلى اليوم وقفة المعارض لنا في نشر ديننا ولغة ديننا... ففي بلدة اغيل علبي- مثلا- تجد دار التنصير مفتحة معانة، وترى المدرسة الإسلامية مغلقة"[3].

فسيطرة الاستعمار على الأوقاف وزيادة ضغوطه على الجزائري جعله يعيش الاغتراب وهو بين أهله و ذويه، اغتراب روحي وهو يهان في وطنه، واغتراب ديني وهو يمنع من تعليم أبناءه لغته ودينه، واغتراب اقتصادي وهو يرى الفقر يعصف بمجتمعه، واغتراب ثقافي وهو يرى ثقافته تستبدل بثقافة غريبة عنه وعن دينه. اغترابات شتى تتقاذف المسلم الجزائري في وطنه " والإحساس المرهف عند شعرائنا بالحالة التعيسة التي عاشتها الجزائر في أوائل هذا القرن، فجّر فيهم نغمة جريحة شجية، وكثيرا ما تغطي ملامح التفاؤل في شعرهم ، وتخنق نغمة الأمل في قصائدهم، وتغمرهم بإحساس مرير

1- عمر بوقرورة : الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث ،ص:131.

ð - فقد" تلقى دير مريم العذراء بسطوا لي إخوانا جددا ، فازداد ازدهاره وتأكد ، وفي الجهة الغربية قام أخوات المعتقد النقي في مسرغين بتأسيس دار للأيتام يستقبل 180طفلا ، في حين وسعت الراهبات الثالوثيات نشاطهن بخلق مؤسسات في مستغانم وسانت أندري (وهران) وسيدي بلعباس و أرزيو بحيث يبلغ عدد تلاميذ مؤسساتهن هذه 900 تلميذ.

2- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص:207.

3 - محمد الطاهر فضلاء: قال الشيخ الرئيس، الإمام عبد الحميد بن باديس ، مطابع دار لبعث ، قسنطينة ، الجزائر ، د ط ، سنة : 1968، ص: 361.

بالغربة "[1] هذه الغربة التي يصبح وقعها أشد على نفوسهم عندما يعودون إلى الوطن وكلهم أمل في تغيير حاله، فإذا بهم يواجهون الحقيقة المرّة وهي عدم تجاوب النّاس معهم ، فعندما كانوا بعيدين عن الوطن كانوا يعيشون حرقة الغربة والحنين، أما عندما رجعوا إلى الوطن المكبّل احترقوا بنار الاغتراب الفكري والديني، وقام بعضهم يندب حظه العاثر الذي جعلــه يغترب، ويتعلم ثم يعود إلى من لا يعرف قدره ولا قدر علمه .

يقول" **السعيد الزاهري** ":

"مَنْ يَعِشْ بالعُلومِ عُمْرا سَعيدا أَوْ يذُق بالعُلومِ طعمَ النَّعِيمِ
فَأَنَا لمْ أزَلْ أُكَابِدُ فِي العِلْمِ صنُو فاً من الشَّقاءِ الألِيـــمِ
قَدْ تَغَرَّبْتُ أَطْلبُ العلْمَ مــــِن قبْلي ولا قَيْتُ أقسَى الهُمُوم
وتَغَربْتُ أنشُرُ العلْمَ فِي قـــوْ مِي فَلَم يعْبأوا بِنَشْرِ العُلُومِ "[2]

فسياسة التهجير والتجهيل التي اتبعتها فرنسا أنتجت شعبا يسكنه الاغتراب، تائه في دوامة الجوع والمرض ، والرّعب والخوف ، فأنّى له أن يعبأ بنشر العلوم وحتى الذي أنير عقله وتفتحت مداركه بقي يحيره السؤال لم هو حقير ضعيف؟ لم يرضى بالذلّ والهــوان؟ دينه دين عزّة وكرامة، وأرضه أرض خير و نعيم ، بالأمس القريب كان خيرها يعُمُّ هؤلاء الكفرة الظالمين. حيرة نطق بها لسان "**محمد العيد آل خليفة**":

" لَنا وَطَن مثْل الفَرادِيسِ بَهجَة فكَيْفَ رَضِينَا أَن يُداسَ و يُنْهَبَا
وكَيْفَ رَضيناَ أنْ نَعيشَ أذِلَّـــــةً ضِعافًا، يَراناَ الغَيرُ أَحقَر مَنْ هَبَا

1- صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث ، ص : 43.
2 - صالح خرفي : محمد السعيد الزاهري، ، ص: 95.

أَلسْنَا مِنَ الأجْنَاسِ أفْصَحهُمْ فَمًا وَ أسْمَحهُم دِينًا، وَ أَصْلحهُمْ أبَا؟

بِــنَا درَّت الدُّنْيَا عَليْهِم بِخَيْرِهَا وَأَخْصَبَ مِنْهَا كل مَا كَانَ أَجْدَبَــا

وَلَدْنَا، وأنْجَبنَا، فَــفُزْنَا عَليْهِم وَمَنْ وَلَدَ الصيد المَنَاجِيد أنْجَبَا"[1]

هذا الوطن الذي بدأ أبناؤه يشعرون بدائه ويبحثون له عن الدواء، يرفعون شكواه إلى إخوته لعله يجد يدا تمتد إليه فتخرجه من يمّ الظلم والطغيان.

يقول" **أحمد سحنون**" في قصيدته " **الجزائر تشتكي** "

" يَا أُمَّة جمَعتْهَــا عَقِيــدَةُ الإِيمَــان

وَإِخْوَةٌ قَد تَــلاَقُوا عَلَى هَوَى الأوْطَانِ

و أَنْفُسا ظَــامِئَاتِ لِــلْعِلمِ وَ العِرْفَــانِ

تَحِيَّةٌ مِـــن فؤادٍ فِي حُبِّك مُتَفَانِـــي

إنَّ الجَزَائِر تَشْــكُو لَكُم بِدُونِ لِسَـــان

تَشْكُو لَكُم مَا تُلاَقِي مِن ذلَّــةٍ وهَــوانِ

تَشْكُو اغْتِصَابَ حُقُوق تَشْكُو ضَيَاعَ أَمَان

فلْتــنُجِدُوها لِتُحْــمِى كَسَائر البُلْـــدَانِ "[2]

1- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص : 196.

2- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص: 50.

فالجزائر تشكو اغتصاب الحقوق وضياع الأمان ، تشكو لإخوانها ما تلاقي من ذلة وهوان على أيدي هؤلاء الكفار الذين وضعوا أيديهم على ثرواتها فاستغلوها أبشع استغلال ثم ينتقل الشاعر من الشكوى ووصف اغتراب الجزائر إلى تحسس مواضع الداء.

" ونَحْنُ لَمْ نَــتتَبَــعْ   مَا جَــاءَ فــي القرآن
وَهُــوَ الكتَابُ المرْقى   للْــكائــنِ الإنْسَـــان
وهُوَ الدَّواءُ لمَرْضَى ال   عُــقُــولِ والأذْهَانِ
وَهوَ الحُسَام قصمْنَا   بِــحَــدِّهِ كُــل شَان
فَــكَــمْ دَعَانَا لِخَيْرِ   بحِكْــــمَــةِ وَ بَــيَانِ
فمَا فعَلْنَا فَــابــنــا   بِالطَّرْدِ و الخُـــسْرانِ
وَيْحَ الجزائر كــم ذَا   تَــلْــقَى مِن الحِرْمَانِ
قَضَتْ زمَانًا تُعَــانِي   مِنَ الأَسَى مَا تُعَانِــي "[1]

فاغتراب الجزائر طال بسبب اغترابها الديني، وبعدها عن قرآنها الذي لم يكن بيــدها فالاستعمار ضيّق الخناق على الفرد الجزائري وجعل همّه توفير اللقمة لأبنائه، فلا يطمــع في أكثر من ذلك، فالبلاد أصبحت في حالة يرثى لها.

يقول "**محمد السعيد الزاهري**" :

"غَيْرَ أنَّ البِلاَدَ فِي حَالَةِ يرْثى   لَها كــــلُّ مُشْفِــق ورَحِــيمِ
مِن شَقَاءِ ، إِلَى هَوَانِ . وَمِنْ فَقْرِ   وَجَهْلِ ، إِلَى مُصَابِ جَسِيــــمِ "[1]

1- المرجع السابق، الملحق الشعري، ص:51.

فقر وجهل ، تشرد وضياع ، شقاء وبلاء، هموم شتّى تتلقف الفرد الجزائـــري منذ أن يفتح عينيه على الدنيا إلى أن يفارقها، وشعراء هذه الفترة فتحوا أعيـــنهم فوجـــدوا القيود في انتظارهم والهوان يطيح بكرامتهم فلم يعد للحياة معنى ولا للحقيقة وجود، وأصبح الشاعر يتساءل :

"هَلْ لِلْحَقَائِقِ فِي الحَيَاةِ وُجُود كَادَتْ عَلَى عَقْلِي الشُّكُوكُ تَسُودُ

مَا فِي الحَيَاةِ حَقِيقَةٌ مَحْدُودَة إِلاَّ اصْطِلاَحَات بِهَا وَ قُيُـــــودُ

تَدْعُو إِلَى العِرْفَانِ وَهِيَ جَهَالَةٌ وَتُشِيدُ بِالإِيمَانِ وَهِيَ جحُـــــودُ"2

شكوك تراود الشاعر حينما يرى الواقع المر الذي يعيشه شعبه، والذي كان نتيجـــة للسياسة المتبعة من طرف فرنسا، ففي رسالة **نابليون الثالث** إلى **مـــاكمهون** يقول : " كمـــا حاولنا تفكيك القبائل والإخلال بالقضاء الإسلامي ، من غير أن يكون لدينا عوض نمنحـــه لهذا الشعب الذي أصبح تائها من غير دليل، بعد أن تعرضت مؤسساته لهزة عنيفة لم يسلم منها سوى جهله وتعصبه الديني " [3]. هذا الذي يراه هو تعصبا دينيا من الفرد الجزائري ما هو في الحقيقة إلا تمسك بدينه في وقت يرى أن كل شيء يضيع منـــه، الأرض والمـــال، وحتى ابنه فهو يساق إلى التجنيد الإجباري من أجل الدفاع عن عرض فرنسا، التي بعـــدما نالت استقلالها جازت هذا الشعب بمجازرها وقنابلها الذرية ، أحرقـــت ودمـــرت ، قتلـــت وشردت ، عذبت وسجنت ، ولم تجد من يردعها وينهاها عن طغيانهـــا ، فالعـــالَم يكيـــل بمكيالين، والأمم القوية تعلوا بطغيانها، أما الأمم الضعيفة لا أحد يعترف بحقّها على الرغم من عدالة قضيتها، لذلك قام الشاعر الجزائري يستنهض الهمم لتسجل بأعمالها انتصـــارها ولا تنتظر الرأفة من أحد:

1- صالح خرفي: محمد السعيد الزاهري ، ص: 98.
2- محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص: 20.
3 -عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق ، ص:155.

"حُثُّوا العَـــــزَائِمَ واصْــدُقُوا الأَمَـــالاَ   إنَّ الزَّمَـــانَ يُسَجِّــلُ الأَعْمَـــــالَ"[1]

والزمن سجل للشاعر أعماله في إحياء شعائر دينه التي بها تعود الحياة للنفــوس اليائســة المستكينة لظلم الظالمين، وبدأ بالصّلاة التي هي عماد الدين فنادى تاركها قائلا :

"أيُّهَا التَّارِك الصَّلاة أبِنْ لِي   أَيّ عُذْر لَهُ تَركَتَ الصَّلَاَة

أَيّ عُــذْر لَهُ تَركْتَ صَــلاَةً   تُكْسِبُ العَبْدَ خَشْيَةً وَأَنَاةً"[2]

كما حذر من شرب الخمر وما تجره من آثام على شاربها، وعلى عائلتــه ومجتمعــه بالإضافة إلى غضب ربه.

"الخَمْـــــرُ شَرْبَةُ رِجْس أُمُّ أرْجَاسِ   الخَمْرُ صَاعِقَةُ تَهْوِى عَلَى الرَاسِ

الخَمْرُ مِحْنَةُ سُوءِ مَنْ أُصِيبَ بِهَـــا   أُصِيبَ فِي كُلِّ وَعْي مِنْه حَسَاس"[3]

ودعا الغني إلى أداء حق ربه، ومساعدة أخيه المسلم المحتاج للمال لإعالة عائلته، ويسأله لماذا لا يزكي وقد بلغ ماله النصاب ؟ ويذكره بالخير العميم الذي سيجنيه عند زكاة ماله :

" أيُّهَا التَّارِك الزَّكَـــاة لِمَاذَا   لاَ تُزَّكِي وَقَدْ مَلَكْتَ النِّصَابَا

مَرَّ حَوْلُ عَلَيْكَ مِن بَعْدِ حَوْلِ   مِثْلَمَا يَتْبَعُ السَّحَابَ السَّحَابَا "[4]

فالزكاة التي شرعها الله كحق للفقير في مال الغني هي وســيلة لرفـــع الفاقـــة عـــن المحتاجين الذين تضطرهم الظروف المعيشة القاسية للاستدانة لسدِّ جوع أبنائهم ، ولقد كان

1- محمد العيد آل خليفة:المرجع السابق،ص:339
2- المرجع نفسه: ص: 274.
3- المرجع نفسه:ص: 281.
4- المرجع نفسه: ص : 275

كثير من الجزائريين ترميهم الحاجة في براثين المرابين الذين لا يرحمونهم، فيجردونهم من ممتلكاتهم، ويرمون بهم في غياهب الظلام"، ففي تقرير تقدم به قائد دائرة تبسة العسكرية يقول فيه : "والخلاصة أن شر الرِّبا يرجع تاريخ ظهوره في الدائرة العسكرية إلى بضع سنين فقط، ولكنَّه يكون بناءا على الدلائل التي ذكرتها لكم قد ارتفع بسرعة ، وسبق أن انتشر انتشار الجذام بين السكان الأهالي"[1]، الذين دفعوا من قوتهم وقوت عيالهم لتسديد فوائد ديونهم للمرابين، فزادوا من شقائهم واستغلوهم أسوأ استغلال، فتعالى رب العرش العظيم الذي قال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[2]

يقول "**مفدي زكرياء** ":

" تَعَالَيْتَ يَا رَبِّ ! كَمْ عَابِثٍ بآيك، لَمْ يَكُ يُصْغِي لَهَا

وَجَلَّ جَلاَلُكَ ! كَمْ أَنْفُسٍ تَحداك، قَطَّعْتَ أَوْصَالَهَا

وكَمْ أُمَمٍ، غَيَّرْتَ مَا بِهَا فَغَيَرْتَ يا رَبِّ أَحْوَالَهَا "[3]

فالشاعر تيقن من وجوب التغيير الذي يبدأ من علاقة العبد بربّه وعلاقته بإخوانه وبني حيه وعشيرته، وأن تجتمع القلوب على كلمة واحدة وأن يتفطن إلى ما يبثه المستعمر من سموم الحقد والشحناء بين الأهالي منتهجا سياسة " فرق تسد " فتكون لهم السّيادة على حساب فرقة الشعب الواحد. يقول "**مفدي زكرياء**" :

" وَرَمَى الشَّامِتُونَ فِيهَا، بَنِيهَا بِالتَّعَادِي، وَالحِقْدِ، لُؤْماً وَغَدْراَ

فَغَدَا مُسْلِمُ ، يُقَاطِعُ فِيهَا مُسلما، والدَّخِيلُ يَخْتَال فخرا "[1]

---

1 - عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، ص :115.
2- سورة الرعد ، الآية : 11.
3 مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص: 274.

فالمستعمر يعي أن تكاتف الجهود وتراص الصفوف يشكل خطرا على بقائه لـــذلك فهو يسعى لضرب الإخوة بعضهم ببعض وقد وقـــف الشـــاعر وقفـــة المتصـــدي لخطـــط المستعمر، ووقفة المنبِّه، الواعظ والمذكِّر، فهذه الأرض الطاهرة عجن دم الصحابة بتربتها ، ومن رحمها خرج طارق بن زياد ناشرا نور الحق على الدنيا ، وكم من أسد أنجبت وقف في وجه الظالمين عبر الدهور المتعاقبة لا تستحق أن يدوس لئيم ثراها.

" وَامْشِ الهُوَيْنَا ، فَفِي أَحشَائِهَا أَمَـــم

وَفِي جَوَانِحِهَا ، أُسْدٌ مَـــعَامِيـــد

دَمُ الصَّحَـــابَةِ مَعْجُونٌ بِتُرْبَتِـــهَـــــا

قَدْ خَلَّدَتْهَا عَلَى الدُّنْيَا الأَسَانِيـــد"[2]

ففي كل ركن من أركان هذا الوطن الغالي موطأ قدم لعارف بـــالله ، ومنـــزل لعُبـــاد انقطعوا لذكر الله ، وفضاء لمتأمل في جمال الله وجلاله فلا يجد السائح بفكره فـــي تـــاريخ هذه الأمة، إلا أن يقول :

" وَقِفْ بِي علَى رَوْضِ (الوَرِيطِ) ونَبعِهِ

وَمنحدر الشلال، أستلهم النهـــرا

وفي قرية (العباد) لا تسرع الخطى

فتربتها توحي القداسة والطهـــرا ...

وبلغ (شعيب بن الحسن) تحيتي

1- المرجع السابق ،ص: 282.
2- المرجع نفسه، ص: 263.

(تلمسان).. لا ننسى أمجادك الغــرا

وفي حرم الصحراء ، أهلي ، وجبرتي

وربعي ، وخلاني ، وأكبادي الحرى

ذكرتكم ، والسجن لف ظلامه

لواعج إلف ، فارق الأهل مضطرا .."[1]

فغربة السجن تجعل الأكباد تتفتت لفراق الأهل والخلاّن ، وما يرتاح البــال وتهــدأ جوانح النفس إلا بذكر الله وعباده الصالحين، فتعود الأحلام لتفتح أبواب المســتقبل الســعيد لبلد يتمسك بدينه الحنيف، يقوده علماؤه ومثقفوه نحو التخلص من الاغتراب ولا يهمهم في ذلك ما يلاقوه من عذاب في السجون. يتساءل "**محمد العيد آل خليفة**" حاملا تساؤل الشعب:

" تَسَاءَلَ الشَّعْبُ فِي ضَيْقٍ وَفِي حَرَجِ   هَلْ لِلْمَسَاجِين مِن عَفْوٍ وَمِن فَرَجِ؟

هَلْ لِلَّذِينَ بِسِجْنِ" الكُدْيَةِ" اعْتُقِــلُوا   رُوحُ مِــنَ العَفوِ صَفْوَ طيب الأرج

قُلْ للوُلاَّةِ دَعــُوا التَّضْيِّيقَ واقْتَصِدُوا   فَرُبَّمَا جَرَّنَا التَّــضْـيِّيق للمَرَجِ"[2]

ولكن لم ترتدع فرنسا ولم تسمع للوعيد فجاءها سيل نــوفمبر جارفــا عنجهيتهــا الكاذبة، وأحلامها الزائفة، منورا درب المؤمنين بنصر الله.

فشعراء ما قبل الاستقلال دفعهم الاغتراب الدّيني إلى تحدّي المستعمر بالقلم فســطروا قصائدهم بلغة القرآن، وحمّلوها ألآلامهم وأمالهم في عودة الحرية إلــى أرض الجزائــر، أرض الإسلام.

1- المرجع السابق، ص : 306.
2- محمد العيد آل خليفة ، الديوان ، ص : 382.

3- اغتراب شعراء ما بعد الاستقلال:

جاء الاستقلال واستنشق أدباء الجزائر عبير الحرية التي طالما بكوا على أطلالهـا ، وكبرت الآمال في أن يزول الاغتراب بشتى أنواعه وهاهو "**مفدي زكرياء**" يعلنها ثورة :

"إِذَا مَا انْتَصَرْنَا بِحَرْبِ الخَلاَ ص فَثَوْرَتنَا اليَوْمَ حَرْب أَصَالَــة

نَهَــضْنَا لمَعْركَةِ المُسْتَوَى نَرَبِّي النُّفُوسَ ، ونَغْزُو الجَهَالَــةَ

وَيَصْنَع إِيـــــمَـــــانُنا أُمَّــةً قَوَامًا فَتَرْجُفُ مِنْــــهَا الضلاَلَة

وَإِنْ يَنْصُر الشَّعْبُ حربَ الضّمِيرِ أَقَمْنَا بوَحْيِ الضَّمِيرِ احْتِفَالَـــــه "1

فبعد ما أذن فجر **نوفمبر** وتحققت الرؤى، وأصبح الحلّ والربط بأيدينا كان لزامـا علينا أن نبعد الاغتراب عنا فننعم بالطمأنينة، ولكن الملاحظ في شعر ما بعد الاستقلال أنه جاء محملا بالغربة والاغتراب، بل حتى العناوين في بعض القصـائد والـدواوين جـاءت موشحة بوشاح الغربة مثل المجموعة الشعرية "بين وطن الغربة وهوية الاغتراب " للشاعر " **محمد بلقاسم خمار**"

ففي هذا الديوان تواجهنا أول قصيدة له في المجموعة كتفسير للعنوان فينفث عبرها ألمه الذي يحترق به .

نَفَثَـــاتُ شَاعَـــرٍ يَحْتَرِقُ

مَجْنُونَــــــةُ.. يَا أَنْــــــت يَا بَلَـــدِي

يَا فِــــكْــــرَةَ حَبُــلَت.. وَلَــمْ تَلِــد

1- يحي الشيخ صالح ، شعر الثورة عند مفدي زكريا ، دراسة فنية تحليلية ، دار البعث ،قسنطينة ، ط:1 ، 1987، ص: 225.

عَرَبِــيَّـــــةٌ .. قَـــالُــــوا .. وَمُسْــلِمَـــــة

لَــــــكِــــــنْ بِلاَ لُــــغَـــة، وَلاَ سَنَــدِ

سَيْفُ الأَمِيرِ .. ضَــــــــــاعَ مُغتَــــرِبًا

عَبْدُ الحَمِيدِ .. وَمَــاتَ مِــن كَمَـــــدِ

وَالعَاشِقُونَ .. مَلاَيين مَوَا كِبُهُمْ

ذَهَـــــبَـــــتْ بِـــلاَ زَاد، وَلاَ مَـــدَد "[1]

إن اللغة مرتبطة بالدّين، واغترابها يعني اغتراب الدّين، وضياعها يعني ضياع سيف الأمير الذي حارب من أجلها، وعبد الحميد وملايين العشاق الذين تغنوا بالتعريب، ومضوا دون أن يروه مجسدا. فالغربة كانت قدر الأمير والاغتراب كان قدر لغته، فقرن وربع مـن الاستعمار ترك أثارا بالغة في اللغة العربية إذ أنها حوربت طيلة فترة الاستعمار وغيّبـت عن المدارس الرسمية والإدارات، فأصبح المبدع باللغة العربية في صراع من أجل إثبـات وجوده ، لأن التُربة تحت قدميه لم تكن صلبة بما يكفي لانطلاقه، و" الذي ساعد على بقـاء الجزائر قرنا وربع قرن تحت الاستعمار هو الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه، والذي جعـل كل شيء صامتا لا ينبس، وهادئ لا يتحرك، راضيا لا يتمرد "[2] ، وهذا ما جعل شاعر مـا بعد الاستقلال يشعر بالضياع والاغتراب، لأن انتصار الجزائري في ثورته المباركة " لحقه الحصار الاقتصادي وإعاقة التعريب من الداخل، وإذكاء رواد التغريب في الداخل لـروح الفساد و التطرف العلماني"[3] والدعوة إلى إبعاد الدين عن الدولة، وحصره في المساجد جعل

1 - محمد بلقاسم خمار : بين وطن الغربة وهوية الاغتراب ص :17.
2- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص:32.
3 - المرجع نفسه: ص:238.

الدين غريبا وأهله غرباء "إنَّ الإسلامَ بَدأ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بَدأ فطُوبَى للغربـــاءِ "1 وهنا يعلق "**فتح الله خليف** " بأنه إذا كانت الغربة قد أسرعت للإسلام في عصوره المبكرة فما بال حال الإسلام في زماننا ؟ يبدو أن الإسلام الحق الذي كان عليه الرسول وصـــحابته اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره ، وإن كانت أعلامـــه ورســـومه الظـــاهرة مشـــهورة معروفة ، فالإسلام الحقيقي غريب جدا، وأهله غربـــاء "[2]، يـــواجههم مـــن بنـــي جلـــدتهم المتنكرون لعقيدتهم، أخذتهم ضوضاء الأفكار الجديدة ورأوا فيها التقدّم والازدهار، ونســـوا أو تناسوا دينهم الذي كان مصدر قوتهم بالأمس،وما ينعمون به من حرية اليوم هو بفضل إيمان، وإخلاص الشّهداء الذين صدقوا النية مع الله ، فصدقهم الله وعده ، ولـــيس بفضـــل أفكار مستوردة :

"يَقُولُونَ : مَا الرَّحْمَنُ ؟ أَيْنَ ؟ وَمَا الهُدَى ..؟

كَلاَمٌ قَدِيمٌ ..لَيْسَ يُجْدِي مَهْزأ

وَمَـــا ذَاكَ.. وَالثَّوَرَاتُ فَتْحٌ مُقَـــدَّسٌ

جَدِيـــــدُ لأَبْوَابِ العُـــــقُـــولِ .. وَمَبْـــــدَأَ

شُيُوعِيَّةٌ حَمْرَاء .. تَشْفِي غَلِيلَهُمْ

وَلَكِنَّهَا تُدْمِي القُلُوبَ .. وَتُضْمِئُ

يَقُولُونَ .. دَعْـــــنَا مِنْ قَدِيمٍ يُكَرَّرُ

فَـــــمَا الدِّيـــــنُ إِلاَّ للشُّعُـــــوبِ مُخَـــــدِّرُ

---

1 - أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص .
*- الراوي عبدالله بن مسعود المحدث: أحمد شاكر - المصدر :مسند أحمد- الصفحة أو الرقم5/296 : خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح
2- فتح الله خليف: عالم الفكر، عدد خاص عن الاغتراب، ص:29.

وَمَنْ يَتَغَنَّى بِالدِّيَانَةِ.. وَبِالهُدَى

كَمَنْ يَتَغَنَّى بِالرَّبَابِ.. وَيَشْعُرُ !"[1]

فهم يجيزون لأنفسهم التغني بمذاهب لها من الفجوات ما إن سُدّ في بلد ما فلا يسدّ في الآخر،كما أنّها تخدم فئات معينة على حساب فئات أخرى، وهي تثبت يوما بعد يـــوم عـــدم جدواها، ولكن الملحدين يأبون الحق ويستمرون في الجدال بالباطل باسم الحداثة. فالعصر عصر تكنولوجيا وليس زمن قيس وليلاه،وكأن ماضيهم ما عرف سوى قصـــص العشـــق والهيام ، وأن الحضارة الإسلامية ما بنيت إلا على الأوهام .

يقول "**محمد بن صالح ناصر**" :

"قَالَ الحَدَاثَة مَذْهَبِي مَالِي وَلِلْ قُدَماءِ تِلْكَ مَقَابِـر وَ غُـبَـــــار

وَالعَصْرُ عَصر التِّكنُولُوجْيَا والمَو اهِب تُفَجِّـرُ فِي المياه النَّـــار

والفَـــنَّ تَجْرِيدٌ لأَعْرَافِ الوَرَى وَالعَيـــْشُ ركـد لاَهِـث وَنضار

وَالدِّينُ قَـيْـدٌ مُلْزِمٌ وَلُغَى القُيُـ ودِ تَعَافُهَا مِن طَبْعِهَــاالأَشْعَـــار

مَالِي وَلِلأَعْـرَابِ تَحْدُو بِالنِّيـــَا قِ تَشُوقُهَا الأَطْـلاَل وَالأَحْجَـــار

تَبْكِي عَلَى لَيْلَى ولَــيْلَــى قَــلْبهَا أَضْنَــاهُ عِشْـقــاً فَارِسٌ مِغْوَار"[2]

فالأعراب بنوا حضارة مازالت معالمها حاضرة إلى اليوم عندما اعتنقوا الإســلام وأخلصوا الإيمان، وتركوا اللغو واللهو وسبغوا ألوان حضارتهم بقيمهم الأصيلة، وعقيدتهم السليمة ولم يذوبوا في بوتقة الآخر الذي كان في ذاك الوقت أيضا يتقدمهم في العلوم والقوة

1 - مصطفى الغماري: أسرار الغربة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر،ط:2، 1982 ، ص: 33.
2- محمد بن صالح ناصر: ألحان وأشجان ، ص : 58.

والعناد،ولم تبهرهم تلك الحضارة بل ازدادوا اعتــزازا بــدينهم، وأجبــروا الآخــر علــى الاعتراف بهم، إن القوى الاستعمارية في هذا العصر جندت كل طاقاتها لمحاربة الإســلام، واستعملت شتى الوسائل من غزو فكري إلى قوة حربية ، فشعر القابض على دينــه كأنــه يقبض على الجمر، خدرونا بأفكارهم ، وسرقوا منا الدين والإيمان.

يقول"**حسن بومعيزة** ":

"خَدَّرُونَا وبَاعُوا نِعَالَ أَئِمَّتِنَا

سَرَقُوا الدِّينَ

وَالإِيمَانَ

سَرَقُوا جُبَّةَ الشَّيْخِ

وَالقُفْطَانَ

سَرَقُونَا وَاقْتَسَمُونَا كَالْحَلْوَى

زَرَعُوا فِينَا البَلْوَى

دَخَلُوا بَيْتَنَا لَيْلاً

مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانِ

أَلْصَقُوا تُهْمَةَ الزُّورِ وَالكَذِبِ"[1]

فقد غبنا عن وعيينا عندما استسلمنا لأفكارهم الهدامة التي تسللت إلى مثقفينا فأصــبحوا يقفون لكلّ ما هو أصيل موقف المعارض والمشكك، فوقّعوا بأيديهم اغتراب أمــتهم عــن

1- عبد العالي رزاقي : نماذج من الشعر الجزائري المعاصر،ص: 250.

دينها. وبعد أن كانت الجبة والقفطان رمزا للعلم والوقار، صارت رمزا لانتهــاز الفــرص وملأ البطون والجيوب، وألصقوا بالدين تهمة الزور والكذب وجعلــوه ســببا فــي تخلــف مجتمعاتهم عن ركب الحضارة والتقدم ، فآباؤنا هزموا الجيوش الجبارة بإسلامهم . يقــول "**محمد بلقاسم خمار**":

"أنَا الذِي كُنْتُ بِالإسْلاَمِ مُنْتَصِــراً وَاللهُ أَكبَرُ كَــانَتْ لِــلْــعُــلَــى مَدَدِي

قَامَ الطُّغَاةُ بِدعْمٍ مِنْ أَرَاذلَنَــــا فَارْهَبُونِي.. وَزَادُوا مِن أَسَى عُقَــدِي

فَلَمْ أَعُدْ حَذِراً كَيْــــدَ العِدَى وكَفَى بَلْ صِرْتُ أَخْشَى عَلَى الإِسْلاَمِ مِنْ وَلَدِي

عِنْدَي يَقِينٌ بِأَنَّ الوَحْيَ مُمْتَنَــعٌ مُنَزَّهُ الذِّكْرِ .. فِي حِــــفْــظٍ مِنَ الصَّــمَدِ

لَكِن . وَقَدْ دَنَّسَ الأَشْرَارُ سَاحَتَهُ أَخَــافُ يَرْفَعُــهُ الــدَيَّانُ مِــنْ بَــلَدِي "[1]

فالخشية على هذا الدّين لم تعد من العدو الخارجي بل من أبنائنا الذين شربوا من نبــع كدر، ملوث بسموم أفكار قاتلة لأصالتهم لا تمت لأمتهم بصلة ، دنسوا ساحتهم ، ولكن دين الله باق مادام هناك من يواجههم، ويواجه من وراءهم بالحُجّة والدليل، ويعــرفهم برســالته ونبلها، ويتمنى لو يقفوا للحظة و يقرؤا كتابه العظيم، و للشاعر "**مصطفي الغماري**" رســالة يبعث بها إلى " بابيلو نيرودا":

" لو قرأت كتابي"

فلو للتمني إذ أن الشاعر يتمنى لو أن من يحارب هذا الدين يقرأ كتابه، ويتعــرف على مبادئه السامية، التي تكرّم الإنسان وتحفظ حقوقه، وتعلي شأنه.

" إِيهِ ..نِيرُودَا . لَوْ قَرَأْتَ كِتَــــابِــــيَ

1- محمد بلقاسم خمار : بين وطن الغربة وهوية الاغتراب، ص: 90.

لرَأَيْتَ السَّمَاءَ فِي الحَرْفِ تتْــلَــى

عب مِنْهَا السَّخِيُّ ..مُذْ كَانَ فَجْرَا

وَالمَسَاءُ السَّخِـــــيُّ مِنْهَا تَمَلّى "[1]

فشتان بين القيّم التي تبني الإنسان، وتبعث الآمال فتشرق فجرا يعم ضــياءه الــدنيا، وتنشر السلام، وبين تلك الأحقاد التي تراكمت عبر السنين على هذا الدّين وأهله، فعمّ ليــل طغيانها الكون، وبعث الرعب في نفوس الأبرياء الضعفاء.

"غَضَبٌ أنْتَ ... يَمْلأُ اللَّيْل رُعْبَا

تَحْتَسِــيهِ الــدُّرُوبُ عَلاَ وَنَهلاَ

حِينَ دَوَّى فِي أُفُقِكِ الرَّطْب حِقْــدُ

هدر اللَّحْن .. فُكّ يَا شعْب غِلاَ

وَازْدَهِرْ يَا ضِيَاء .. فَالدَّرْبُ أَشْوَا

ق .. تَرُودُ الجِرَاح فَجْراَ مَطْلاَ "[2]

فبقدر ما يحمل الأعداء لهذا الدّين من حقد، بقدر ما يحمل هذا الشاعر من إيمان بقوة عقيدته، لذلك ورغم غربة هذا الدين في هذا الزمن إلا أن الشاعر يدعو الشعب لفــك قيــد الاستلاب ، والاعتزاز بدينه وأصالته لتُفرش الدروب بالأشواق، وتُحوّل الجروح إلى فجــر يضيء سماء المغتربين.

"أيُّهَا الجَاهِلُونَ .. مَا أَتْفَهَ العَقْلَ

1- مصطفى محمد الغماري: أسرار الغربة ، ص:69.
2- المرجع نفسه : ص:71.

إذَا صَـــــدَّ عَــــنِ كِتَابِي .. وَوَلَّـــى

أَيُّهَا الضَارِبُونَ فِي اللَّيْلِ .. وَاها

كَمْ سَقَاكُمْ أسَاهُ.. نَــــارا وَمُهْـــــــــلا

فِي كِتَابِي .. يَخْضَرُّ الأَلِفُ ضِيَاء ،

يَرُوقُ الطُّهْرُ فِـــي مُـــحَيَّـــاهُ حَقْــــــلاَ

وبَنَيْتُـــــمْ .. لَكِـــنْ هَدَمْتُـــــمْ نُفُــــوسَـــا

كَـــــمْ سَقَتْـــــهَا شَــــرِيعَـــــةُ اللهِ نُبْـــلاَ "[1]

وينادى الشاعر كل الجاهلين الحاقدين على دينه المتباهين بمعرفتهم العقليـــة أن لا خير في العقل إذا كان لا يوصل إلى الحقيقة، ولا ينير لصاحبه الطريق.

ففي كتابه يخضر الألف ضياء، وينتشر نوره فيعم النفس والكــون وينفــتح علـــى العالم، ويمتد ليمنح الناس النبل والسمو، أما الجاهلون فهدموا النفوس، وإن كانوا قــد بنـــوا حضارة المادة التي قتلت الروح وقيمها النبيلة .

" قَــــــتـــــــلُوهَا أَلْــــفَ مَــــرَّة

صَــــــلَبُـــــــوهَا أَلْــــفَ مَــــرَّة

أَحْــــــرَقُـــــوهَـــــا أَلْفَ مَـــــرّة

زَرَعُوا الشَّوْكَ عَلَى الأَعْتَابِ

1 المرجع السابق : الصفحة نفسها .

مَـــــدُّوا أَلْــفَ صَخْرَة

واسْتَوَتْ يَا كُبْرَهَا البَدْرِي مُهْرَة

خَطَرَتْ فِي هَامَةِ الشَّمْسِ

وَفِي عُمْــــقِ المَجَرَّة"[1]

فمهما حاول هؤلاء الأعداء طمس النور إلا أن الحقّ أكبر من أقاويلهم، ومن اســـتهزاءاتهم، فما ثوراتهم إلا خرافة وما مذاهبهم إلا تُرهات، لذلك يتحـــدى الشـــاعر كـــل المســـتهزئين بالشريعة السّمحاء، يخبرهم بأن نورها سيسطع من جديد وتنفى غربتها النكر، ستورق على الرغم من كيد الكائدين،وستزرع زرعا يشتد عوده و يتآزر بعضه ببعض وسيبحر مركـــب الحبّ ليجمع شتات الأمة المغتربة، وسيموت أعداء هذا الدين بغيضهم .

"سَيُورِقُ بِالضُّحَى دَرْبِي　　　وتَفْنَى الغُرْبَـــةُ النُكُـــرُ

وَأَزْرَعُ أَلْفَ أُغْنِيَّــــــةٍ　　　عَلَى اللُّقْيَا ...فَتُخْتَصَــرُ

وَفِي عَيْنَيْكِ يَا سَمْحَاءُ　　　يُبْحِرُ بِالهَوَى العُمْـــــرُ "[2]

وحينها ستقف الأمة كلها رافضة وجه غربتها و ستعود إلى دينها الذي يخلصها مـــن عقدة الخوف من غير الله :

" سَنَرْفُضُ وَجْهَ غُرْبَتِنَا　　　سَنَــــــــرْفُضُهُ وَلا نَدَمُ

ويُورِقُ رَفْضُـــنَـــــــا　　　وَتَسْقُطُ الأَشْبَاحُ وَالنُّظُمُ "[3]

1- مصطفى الغماري : قراءة في أية السيف ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د ط ، سنة :1983، ص : 72.
2-الغماري : أسرار الغربة ، ص: 133.
3- المرجع نفسه، ص: 123.

فعندما يغيب الاغتراب سيورق الغصن من جديد وتسري دمـــاء العــزة فـــي قلـــب الشاعر، سيغني أحلى القصائد، وسيعود إلى رحب الأمن والأمان .

" هَا عُدْتُ يَا نَبْعَ الهَوَى مَنْ غُرْبَتِي

شَوْقًا وَعَـــــادَ بِي الهَوَى لِرِحَابِي

لاَ الدَّرْب جَفَّ وَلَا ولَا عَنَاقِيد الضُّحَى

صُلِبَتْ عَلَى شَفَةِ الدُّجَى الصّخَاب"[1]

إن الشاعر الجزائري لامس التّصدع الذي أصاب الأمة، وعايش اغتـــراب دينـــه بكـــل أحاسيسه، وهذا ما جعله يكسر الجمود، ويحطم قيود الرّتابـــة، ويجـــرى وراء شخصـــيات صنعت المجد في الزمن البعيد و جاءت بالفتح وبالحضور التاريخي والديني .

" عَلِّمْنَا كيْفَ نُعِيدُ الأَنْدَلُسَ

عَلِّمْنَا يَا طَارِق

عَلِّمْنَا الإبْحَارَ عَكْسَ التَيَّار عَلِّمْنَا كَيْفَ نُصَارِعُ أَمْوَاجَ البَحْرِ

عَلِّمْنَاَ يَا طَارِق

كَيفَ نَجتَاز هَذَا البحر بلَا زَوْرَق "[2]

فهو حين ينادي"**طارق بن زياد**"إنما يُنادي الانتصار الذي فُقد في الأمة، فعشعش فيهـــا الاغتراب، وحينما يلجأ إلى الدّين إنما يبغى السّلام الروحي المفقود في عالمـــه، يُريـــد أن يتعلم كيف يقهر التغريب الذي أصبحت مستنقعاته تبلع الأجيال الجديدة.

1 - المرجع السابق، ص: 59.
2- عبد العالي رزاقي: مرجع سابق ، ص: 251.

فالشاعر لم يتقوقع في اغترابه بل بكى مع كل مسلم يمزقه خنجر كافر حاقد.وهاهو **محمد بلقاسم خمار** ينطق نيابة عن كل فردمن أفراد هذه الأمة وهو يتابع الأحداث اليومية لفلسطين الجريحة:

"القَلْبُ تَعْصُرُهُ المَوَاجِــعُ وَالعَيْنُ.. تُغْرِقُهَا المَدَامِــع

وَأَنَــا مَعَ التِّلْفَازِ مَشْـدُوداً أتَــابِعُ مَــا أُتَــابِـــع

أَبْكِي مَعَ البَاكِيــنَ..أبهــزُ للْحِجَارَةِ..فِــي المَقَــالِعِ

وَأُشَاهِدُ الأَطْفَــالَ تَسْقُـــطُ تَحْتَ نِــيــرَان المَــوانِــع

وَمَوَاكِبُ الشُّهَدَاءِ تَزْحَــفُ فَوْقَ أَكْتَــافِ المَوَاجِــع "[1]

فالشاعر يتألم لاغتراب دينه في كل بقعة من هذه الأرض. فحينما بكت"**صــراييفو**" اغترابها الديني نطق بأوجاعها " **ناصر بن صالح محمد**" فقال شاكيا :

" يُحَاصِرُنِي مَوْتٌ، وَجُــوعٌ، وَ غُرْبَــةٌ...

...بِأَرْضِي... فَمَا هِيَ منجَاتِي ؟ وَمَا هِيَ حِيلَتِي

يَقْتُلُنِي "الصِّرْبُ" الصَّلِيبِيُّ عُنْــوَةً

وَقَدْ ضَنَّ عَنِّي المُسْلِمُونَ بِنَجْــدَةٍ !

وَيَسْلُبُ مِنِّي العِرْضَ، المَالَ، وَالثَّرَى

وَلَيْسَ لَهُمْ غَيْر الدُّعَــاء بِخفْيــةِ"[2]

1- محمد بلقاسم خمار : مرجع سابق: ص:45.
2- محمد ناصر : ألحان وأشجان، ص: 39.

فمعاناة إخواننا "**بصرايبفوا**" وغيرها من المدن الإسلامية التي صبّ الصليب نكال حقده عليها شعر بها شاعرنا، وصور لنا الجحيم الذي يعيشه المسلم في بقاع الأرض بسبب القبض على دينه، فهو يحاصر ويجوّع و يُسلب منه عرضه وماله وأرضه،يريدون أن يمحوا أثار هذا الدين من الوجود، ولكن تأبى مشيئة الله إلاّ أن يبقى ويقوى مع كل عاصفة حاقدة ، ومع كل أذان يهز كيان المؤمنين بهذا الدين "أن لا نستكين لذلة".

"وَمِئْذَنَةٌ تَعْلُو هُنَاكَ يَهُزُّنِي

نِدَاهَا لِئَلاَّ أَسْتَكِينَ لِذِلَّةٍ

عَشِقْتُ بِهَا نُوراً يُضِيءُ جَوَانِحِي

وَلَوْلاهُ كُنْتُ اليَوْمَ أَجْتَرُّ ظُلْمَتِي

تُشَدُّ إِلَى أُفُقِ السَّمّاءِ نَوَاظِرِي

فَتُشْرِقُ نَفْسِي فِي اغْتِرَابِ وَوَحْشَتِي

أُلاَقِي بِهَا وَجْهَ النَبِيِّ وَصَحْبِهِ "[1]

فصوت الأذان يجعل المؤمن يتذكر أول أذان في الإسلام يرفعه بلال هناك في جزيرة العرب، فيتردد صداه اليوم في أرجاء المعمورة، فلا انهزام ولا ذلة مادام هناك إله واحد تتجه له القلوب شاكية وحشتها وغربتها :

" إِلَيْكَ يَا رَبِّي أَبُوحُ بِمِحْنَتِي

وَأَكْتُبُ مِنْ دَمْعِي هَوَانِي وَذِلَّتِي

1- المرجع السابق، ص:44.

إِلَيْكَ وَقَدْ جَفَّتْ دُمُوعِـــي حَسْـــرَةً

فَمَا دَمَعَتْ عَيْنٌ لِبُؤْسِي وَحَسْرَتِـــي

سَأَكْتُمُ فِي الأَحْشَاءِ آهَةَ مِحْنَتِـــي

فَأَنْتَ بِهَا أَدْرَى، وَ أَ دْرَى بِغُرْبَـــتِي "[1]

ففي زمن تكالب على هذه الأمة أعداءها وتخلى عنها أصحابها، وتخاذل أبناؤها، لم يبق سوى الشكوى لله العالم بغربة عباده الصادقين، والسامع لآهات المظلومين،الذين جفت دموعهم وما رقّ قلب لهم ، وتقطعت أحشاءهم فما رحمهم أحـــد،فلم يجـــدوا مـــا يقولـــون فخاطبوا عدوهم قائلين :

"اُغْرُزْ صَلِيبَكَ فَوْقَ ظَهْرِي حَاقِدًا فَلَكَمْ عَرَفْتُكَ غَادِراً بِي كَائِـــدَا

اُغْرُزْهُ فِي جُرْحِي، يُحَرِّكُ أُمَّـــةً نَسِيَتْ جِرَاحَات تُحَرِّك جَامِـــداً

حَرِّكْ بِخِنْجَرِكَ المَوَاجِعَ علَّهَـــا تُحْيِي خَنَاجِرَ مَا يَزَلْنَ غَوَامِـــدَ

فَالجُرْحُ إِنْ خَرُسَ اللِّسَانُ مكلم سِيَّانَ جُرْحِي نَازِفـــاً أَوْ هَامِـــدَا

حَتَّى لَوْ قَطَعُوا اللِّسَانَ لأُمَّـــتِي فَالجُرْحُ يَنْطِقُ عِنْدَ رَبِّي شَاهِدَا "[2]

فاغرزوا صليبكم، وأفرغوا حقدكم، واتركوا جرحي نازفا لعلّه يحرك هذه الأمة التـــي قطع لسانها فلم تعد تنبس بشفة، وشلت فلو تعد تحرك سبابة في وجه المعتدين.

ولكن إن أخرصت الألسنة فجرحه ناطق، وسيشـــهد عنـــد ربّـــه الـــذي لا يضـــيّع حـــق المظلومين، ولا يرد المنفردين بليل طارقين باب توبته .

1- المرجع السابق، ص: 38.
2- المرجع نفسه، ص:48.

يقول "**يوسف وغليسي**":

" مُنْفَرِدٌ بِاللَّيْلِ،، وَالكَرَوَانُ يَعْرِفُنِي !

اللَّيْلُ

مُتَدَيِّنٌ،، وَاللهُ يَشْهَدُ لِي !...

لَكِنَّنِي مُتَثَاقِلٌ

مُتَشَرِّدٌ..مُتَسَكِّعٌ.. مُتَسَائِلٌ"[1]

ففي الليل حين تسكن الحركة، ويعمُّ الصمت ترتفع أصوات المتهجدين، يقوم الشـــاعر تجتمع فيه خفة الدين ويسره بالتثاقل والحيرة والضياع، إنّه عصـــر اجتمعـــت فيـــه كـــل التناقضات. إنّها الهزيمة والانتصار، هزيمة في الواقع المُرِّ الذي تعيشه الأمة، وانتصار في روحانيات الشاعر الذي يحمل أهات أمته وأوجاعها في موسم إعصار القوى الظالمة:

" صَفْصَافَةُ العُمْرِ، لاَ زَهْرُ وَلاَ ثَمَــرُ

صَفْصَافَةُ العُمْرِ!لاَ دُنْيَايَ ولاَ دِينِي

صَفْصَافَةُ العُمْرِ.. وَالإِعْصَارُ يَجْلِدُهَـــا

صَفْصَافَةُ العُمْرِ.. وَالأَعْمَارُ تُضْنِينِي ..

سَفِينَتِي فِي عُبَابِ العُمْرِ يَغْمُــــــــرُهَا

طُوفَانُ "نُوح"، وَ لاَ " جَودِيّ" يَأْوِينِي

1- يوسف وغليسي: مرجع سابق، ص:33.

الرِّيحُ تَقْصِفُهَا.. وَالمَوْجُ يَصْفَعُـــهَــــــا

وَيْلاَهُ ! وَيْلاَهُ ! وَالإِبْحَارُ يُغْرِيـــنِـــــــي !..."[1]

كيف تثمر صفصافة عمره وتزهر وهي ضائعة؟ لا دنيا ولا دين، كيــف تمــدّ أغصـــانها وتورق وهي منفصلة عن جذورها!؟ تهزها أعاصير التغريب، وسفينته يغمرهــا طوفـــان الاستلاب. يصفعه موج التّحضر، فيغريه بالإبحار إلى حيث تغرق النّفس في الشهوات فـــي دنيا المحرمات:

" دُنْيَايَ.. دُنْيَايَ !!! قَدْ أَسْكَرَتْنِي "مُهْلاً "

مِن كَرَمِ غَاوِيَةٍ،..مَا خلَتْ تغْوِينِي !

حَمِيمُهَا فِي دَمِي يَغْلِي وَيَنْهَمِرُ..

دُنْيَايَ..دُنْيَايَ !..لاَ دُنْيَايَ،،لاَ دِينِي!!!

تناديه الدنيا، تجذبه براكين الغواية، يسري حميمها في دمه فينادي: "دنياي، دنيـــاي " يقف لحظة بعد نقطتين ليعيد حساباته، تأخذه دنياه بعيدا عن تعاليم دينه،ولكن سرعان مـــا يستيقظ من غفلته ويعود من اغترابه، فيتذكر ما ينتظر الذي يبتعد عن شـــرع الله ، يتـــذكر اليوم الآخر، يوم الحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب ســـليم ، فـــيُلمْلِمُ الشاعر ما بقي من عمره، ويتّجه إلى قبلته مناجيا ربّه.

يقول وغليسي:

" أَجِيئُكَ اليَوْمَ يَا رَبَّاهُ مُـــرْتَعِــدًا..

1- المرجع نفسه، ص: 82.

رَبّاَهُ ! إِنِّي قَــدْ اخْتَلَّتْ مَوَازِينِي!... "[1]

ليس هو الوحيد الذي اختلت موازينه، مثله من الغرباء في هذه الدنيا الكثير، حيث يجد المؤمن نفسه بين نيران شهوات الدُّنيا تغريه، وبين نيران الآخرة حيث لا ظل ولا ظليل إلاّ من أظله الله بظله:

" وَاه! غَداً ظُلَلُ النِّيرانِ تُلْهِبنــــــي ..

مَنْ ذَا يُـــظَلِّلُنِي؟ مَنْ ذَا يُدَارِينِــــــي ؟ !.

وَتَرْجُفُ الرَّاجِفَاتُ السُّودُ، تَتْبَعُــهَا

رَوَادِفٌ فِي قَرَارِ الحَشْرِ تَرْمِينــــــِي !..."[2]

وهو لا يريد الابتعاد عن دينه، يتمسك به لذلك يهاجر إلى الله في صلواته يشــكو لــه اغترابه في الدنيا، ويسأله النجاة يوم الوعيد، يرجوه أن يرِد حوض أحمد -عليــه الصــلاة والسلام- محجل بغرّة في جبهته، فيعرفه المصطفى ويسقيه من يده الشريفة شــربة مــاء يزول بها ظمأه ،وينتهي اغترابه .

" أنَا المُهَاجِرُ نَحْوَ اللهِ فِي صَلَوا

تِي..رُحْتُ أَسْأَلُــهُ كيْمَا يُنَجِّيــنِـــــــي..

مُحَجَّلٌ..غُرَّةٌ فِي جَبْهتِي..ظَمِـــــئٌ...

وا "حَوْض أحْمَــد" ! إن يَفْــنِينِـــــــي"[3]

1- المرجع السابق، ص: 82.
2- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.
3- المرجع نفسه ، ص:83.

فالفناء في حب الله هو مراد الشاعر من هذه الهجرة الإيمانية، هجرة هي مطلب كـــل مغترب في هذه الدنيا حتى يعود بروح نقية صافية، قادرة على تجاوز العقبات، وقهر نيران الشهوات.

وكخلاصة لهذه الجولة نستطيع القول بأنّ:

الشاعر الجزائري عايش الاغتراب الديني،فسجله في قصائده بإيجابية وفاعليـــة، فلـــم ينعزل أو يهرب من المواجهة، بل وقف فارسا في الميدان شاهرا قلمه في وجه أعداء الدّين سواء النصارى أو الملحدين.

الفصل الثالث

الاغتراب العرفاني

تمهيـــــد

1- المبحث الأول: منشأ التصوف .

2- المبحث الثاني: أنواع التصوف.

3- البحث الثالث : التصوف في الجزائر.

4- المبحث الرابع: قراءة تحليلية لقصيدة " أين ليلاي"

لمحمد العيد آل خليفة".

5- المبحث الخامس: التأويل الصوفي لقصيدة "أين ليلاي".

6- المبحث السادس: قراءة لقصيدتي "محمد علي السعيد".

"ابن السماء والأرض المرة"

" صلاة الغائب"

الفصل الثالث : الاغتراب العرفاني

إن ابتعاد الإنسان عن موطنه في الجنة ونزوله إلى الأرض قد أسكن في نفسه شعورا بالاغتراب، والمتصوفة أكثر النّاس إحساسا بهذا الاغتراب. فقد ذكر" **ابن عربــي**" الغربــة فقال:" إن أول غربة اغتربناها وجودا حسيا عن وطننا،غربتنا عــن وطــن القبضـــة عنــد الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون أمهاتنا فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنـــا عنهـــا بالولادة "[1].إنها سلسلة متصلة من الاغترابات، والدُّنيا للمتصوف أصعب غربة يمرّ بهـــا ، فهو فيها ما بين قلب عاشق متلهف إلى العودة لنقائه ليكون جديرا بالرجوع إلـــى الجنـــة ، وبين نفس أمارة بالسُّوء،لذلك فهو في صراع معها ليروضها حتى يصل بها إلى الاطمئنان قال تعالى﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28)فَـــادْخُلِي فِي عِبَادِي (29)وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2]

1) منشأ التصوف :

يرى"**ابن خلدون**"أن هذا العلم "من العلوم الشرعية الحادثة في الملة "[3] أما "**الطوسي**" * فيرى غير ذلك ويرد على كلّ من يقول أنه لم يسمع بذكر الصوفية في أصحاب **رسول الله** - صلى الله عليه وسلم- أنّ صحابة **رسول الله** لم ينسبوا لهذا الاســم لأن الصـــحبة مـــع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أشرف من أيّة صحبة أخرى " ألا ترى أئمـــة الزهـــاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين و المخبتين وغير ذلك "[4] هم أصـــحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهذا هو مطلب المتصوف أن يتصف بهـــذه الأحـــوال

1- محي الدين بن عربي: الفتوحات المكية ، ج 2، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط01، 2006ص: 527-528.

2- سورة الفجر ، الآية: 27-28-29-30.

3-ابن خلدون :المقدمة ، ص :462.

-*أ**بو نصر عبد الله السراج الطوسي** توفي (378 هـ / 988م) هو شيخ الصوفية على طريقة السنة. يلقب بطاووس الفقراء ، تنقل بين بلاد كثيرة منها :القاهرة، وبغداد،، ودمشق،والرملة،ودمياط، والبصرة، وتبريز، ونيسابور. آثاره: له كتاب :"اللمع في التصوف " وهو بمثابة موسوعة في تاريخ التصوف الإسلامي وطبقات الصوفية،وعلومهم ومصطلحاتهم ،وأقوالهم وأحوالهم.

4-الطوسي: اللمع، ص: 4.

ويرتقي في تلك المقامات. وقد كان هناك من صحابة رسول الله من آثر العزلة و خرج من الصراع الدائر بين "**علي بن أبي طالب**"-كرم الله وجهه- و"**معاوية بن أبي سفيان**" وكان من بينهم "**سعد بن أبي وقاص**"-رحمه الله- "ممن اعتزل أيام الفتنة فلم يكن واحد من الفريقين فأرادوه على الخروج فأبى"[1].وممن اعتزل أيضا"محمد الأنصاري، وعبد الله بن عمر بن الخطاب في عدة كثيرة من الصحابة"[2] فهم أحبوا البقاء بعيدا لأنهم رأوا أن الصراع يلهيهم ويبعدهم،وهذا ما جعلهم يغتربون عن دنيا الناس فمن" كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة "[3]. والتصوف في أول أمره كان نقيا صافيا ولكن سرعان ما تلون بالفلسفة بعد أن اختلطت الثقافة الإسلامية بغيرها من الثقافات.

2) <u>أنواع التصوف:</u>

التّصوف نوعان تصوف سني، وتصوف فلسفي:

أ) **التصوف السُّني** فمن كلمة السُّني يتبين لنا أن أصحاب هذا الاتجاه كان الالتزام بالسنة هو ضابطهم وواقيهم من الانقياد إلى الشطح وقد مر التصوف بثلاثة مراحل وهي :

أ- **المرحلة الأولى** : وكانت خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، وتميزت هذه المرحلة بمظهرين: مظهر بارز تمثل في ترك مظاهر الدنيا وزينتها، ومظهر باطن تمثل في مراقبة أفعال القلب الذي هو مصدر الأفعال ومبدؤها، وغرضه النجاة من عقاب الله تعالى.

1- أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي: العزلة ، المحقق: ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط:02، 1990، ص:08.
2- المرجع نفسه، ص:08.
3- المرجع نفسه، ص :11.

ب- **المرحلة الثانية** : في هذه المرحة تطور التصوف السني، فأصبح منتحلوه يهـدفون إلى الوصول لنفس لا يصدر عنها سوى أفعال الخير، مؤدبة بـآداب القـرآن والسـنة النبوية فعمدوا إلى تقويم النفس، وتهذيبها عن طريق الرياضة وذلك بالصيام المتواصل، وقيام الليل والتهجد حتى يكون الفعل والترك عند صاحبه أمرا طبيعيا، والهـدف مـن تقويم النفس بهذه الطريقة هو الوصول إلى مراتـب الأنبيـاء، والصـديقين والشـهداء والصالحين .

ت- **المرحلة الثالثة**: أصبح الصوفي خلال القرن الخامس الهجري ينزع إلى الكشف عن عالم الغيب، كمعرفة صفات الله، ورؤية العرش والكرسي، والوحي والملائكـة، ولابـد من الاقتداء بشيخ مارس أنواع المجاهدات، وانكشف له علم الغيب، بحيث يهتدي المريد المقبل على حالة الكشف بأفعاله وأقواله، ثم يلتزم الخلوة في مكان بعيد عن الخلق، ومع ممارسة أنواع من المجاهدات، كالصّمت بترك الكلام، والجـوع ومواصـلة الصّـيام، والسّهر والتّهجد حتى تخمد كل الأحاسيس والقوى،ثم يعيّن الشيخ للمريد ذكرا يشغل بـه لسانه،وقلبه فيواظب عليه المريد حتى تسقط حركة اللسان، وتبقى صـورة اللفـظ فـي القلب، ويبقى على ذلك حتى تمحى صورة اللفظ من القلب ويبقى معناه ملازما حاضرا. وفي هذه الحالة تصل المجاهدة بصاحبها إلى فراغ القلب عما سوى الله، فيقـع الحـذر الشّديد من خواطر الدّنيا ووساوس الشيطان، فيجتهد في مجاهدته لذلك فإن نجا من هذه المثبطات انكشف له سرُّ الملكوت، فيتعرض للمواهب الإلهية، والعلوم اللدُّنيّـة فيـدرك حقائق الوجود، ووقائعها قبل حدوثها ويصبح من أهل الكرامات .

والمتصوف السنِّي خلال المجاهدات التي يمرّ عليها تطرأ على نفسه صفات يتلون بها قلبـه كالسرور والحزن، والاهتياج والطرب، والشوق والانزعاج، والرجاء والخوف، وغيرهـا من الأحوال .

ب) <u>التصوف الفلسفي :</u>

ظهرت عدة نظريات صوفية فلسفية في القرن الثالث الهجري عندما أصبح بعض المتصوفة يهتمون بعلوم المكاشفة التماسا لمعرفة الله،واكتساب علومه،والوقوف على حكمته وأسراره، والإطلاع على حقائق الموجودات فكان"**ذو النون المصري**"¬أول من أدخل **الغنوصية**¬¬في التصوف الإسلامي ثم جاء "**أبو زيد البسطامي**"¬¬¬بنظرية **الفناء** وعن طريق نظرية الفناء توصل بعض المتصوفة إلى القول بنظرية الحلول والاتحاد، التي تزعمها "**الحلاج**"¬¬¬¬[1]وغيرها من النظريات التي طرأت على الفكر الصوفي. وانتشرت في الأقطار الإسلامية من بينها الجزائر.

3) <u>التصوف في الجزائر :</u>

التصوف في الجزائر لم يخرج إلى النّور نتيجة طفرة معرفية، بل كان مسيرة طويلة مرت عبر مراحل، وكانت نتيجة لظروف ذكرها " **الطاهر بونابي** " في كتابه "**التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس و السابع الهجريين** ". إذ أن هناك من أرجعها إلى النهضة

¬ - **ثوبان بن إبراهيم**، كنيته "أبو الفيض" ولقبه "ذو النون"،، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري ،ولد في أخميم في مصر سنة 179هـ الموافق 796م وتوفي سنة 245هـ الموافق 859م.

¬ ¬ - الغنوصية : Gnosticisme من الكلمة اليونانية "جنوصيص"" gnosis" ومعناها «علم» أو «معرفة» أو «حكمة» أو «عرفان» وتُستخدَم الكلمة الأخيرة في المعجم العربي للإشارة للغنوصية.

والغنوصية أوالعرفانية:هي اسم علم على مذاهب الباطنية غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل،وبالوجود لا بالاستدلال، وتشتق من الإغريقية بمعنى العرفان وهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سرا ، وهي الوحي المتجدد الذي لا يتوقف أبدا ، وتعددت فر قها ومدارسها ،لكنها في أغلبها مروق على الدين.

¬ ¬ ¬ - أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البِسطامِي من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري يلقب بـ "سلطان العارفين" اسمه الفارسي "بايزيد" كما عرف كذلك باسم كان جده شروسان مجوسيًا وأسلم. ولد سنة 188هـ في بسطام في بلاد خراسان في محلة يقال لها محلة موبدان توفي سنة 261هـ ، عن ثلاث وسبعين سنة. قال البسطامي بوحدة الوجود وله بعض الشطحات المشهورة، كقوله "لا إله إلا أنا فاعبدوني" وقوله "سبحاني ما أعظم شأني".

¬ ¬ ¬ ¬ - **أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج (** 858 م- 922م / 244هـ 309 هـ) من أعلام التصوف من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس نشأ بواسط والعراق،وصحب أباالقاسم الجنيد وغيره. وقد ذاعت شهرته وأخباره وراج أمره عند كثير من الناس، حتى وصلت لوزير المقتدر بالله الخليفة العباسي، وفي يوم الثلاثاء 24 من ذي القعدة سنة 309هـ - تم تنفيذ حكم الخليفة، وعند إخراجه لتنفيذ الحكم فيه ازدحم الناس لرؤيته. ويقال أن سبب مقتله يكمن في إجابته على سؤال أحد الأعراب الذي سأل لحلاج عن ما في جبته، فرد عليه الحلاج :(مافي جبتي إلا الله) فاتهم بالزندقة وأقيم عليه الحد.

1- ينظر: الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7 الهجريين -12و13 الميلاديين دار الهدى عين مليلة ، الجزائر، د ط ، د ت ، ص:40-41-42.

المالكية في القيروان منذ القرن الثالث الهجري – التاسع ميلادي- في مواجهة الشيعة كما قال "**الهادي روجي إدريس** " بخلاف ماراح إليه "**برنشفيك** "¬ الذي أرجع أسبابها إلى تأثير المشرق على المغرب في حين أرجعها "**اليفي بروفنسيال** "¬¬إلى حركة الجهاد ضد الغزو المسيحي كما اعتبرها نتاج انتشار أفكار" **أبي حامد الغزالي**"¬¬¬الصوفية. بينما عزا "**الفريد بل**"ظهور التصوف في المغرب الأوسط إلى حالة البذخ، والترف والتفسخ الأخلاقي الذي انتاب المجتمع المغربي في عهد المرابطين. أما "**أنجيل جنثالث بالنثيا** " فقد اعتبر ظاهرة التصوف امتدادا طبيعيا لحركة "**محمد بن عبد الله بن مسرة** "¬¬¬¬التي انتشرت أفكارها في الأندلس، ثم المغرب منذ **النصف الثاني** من **القرن الثالث الهجري – التاسع ميلادي-**. ويمكننا القول بعد هذه الجولة بين الآراء المتباينة إن ظاهرة التّصوف في المغرب الإسلامي عامة، وفي المغرب الأوسط خاصة لم تكن بعيدة عن نظيرتها في المشرق، وقد مرت هي أيضا بنفس المراحل، فالمرحلة الأولى كانت عبارة عن زهد وتقشف خاصة في القرنين الأولين للهجرة، اتضحت معالم هذه الظاهرة أكثر في القرن الثالث للهجرة، مثلها "**سيدي هيدور**"الذي اتخذ من جبل **وهران** مكانا يتعبد فيه نسب إليه بعد ذلك[1]، وسجلها "**بكر بن حماد التاهيرتي**"¬¬¬¬¬في أشعاره التي حاسب فيها نفسه وذكرها بالموت، فوقف على القبور و نادى أهلها:

¬ - **برنشفيك** –**robert brunshvig** "مستشرق فرنسي متخصص في تاريخ تونس وفي تاريخ الفقه الإسلامي . (1901 / 1990)

¬ ¬ - **اليفي بروفنسيال** "– **lèvi provença-**: هو مؤرخ، وكاتب، من المستشرقين، مختص في علوم إسلامية ,فرنسي ولد في عام 1894، وتوفي في 1956.

¬ ¬ ¬ - أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري (450هـ - 505هـ/ 1058م - 1111م). كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، وكان صوفيّ الطريقةِ، شافعيّ الفقهِ،كان سنّيّ المذهب على طريقة الأشاعرة في العقيدة،

من أشهر مؤلفاته في التصوف كتابه إحياء علوم الدين، والذي قد حاز شهرةً وانتشاراً ما لم يقاربه أي كتاب من كتبه الأخرى.

¬ ¬ ¬ ¬ - **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي** أو في بعض الأحيان **ابن مسرة**883—931 و زاهد وعالم مسلم أندلسي .يعتبر ابن مسرة من أوائل متصوفة وفلاسفة الأندلس.

1- ينظر:الطاهر بونابي : التصوف في الجزائر ، ص : 46 -47-48.

¬ ¬ ¬ ¬ ¬ - بكر بن حمّاد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي، أبو عبد الرحمن، من شعراء الطبقة الأولى في عصره، ولد بتيهرت (تيارت حاليا) سنة 200هـ /815 م ، وتوفي سنة 296هـ /908 م بتيهرت ، جمعت بعض أشعاره تحت عنوان (الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد).

" قِفْ بِالقُبُورِ فنَادِ الهَامِدِينَ بِهَــــا مِنْ أعْظُمٍ بَلِيَت فِيهَا وَ أجْسَــــاد

قَوْمٌ تَقَطَّعَتْ الأَسْبَابُ بَيْنَــهُـــــمُ مِنَ الوِصَالِ وصَارُوا تَحْتَ أَطْــوَادِ

رَاحُوا جَمِيعاً عَلَى الأَقْدامِ وابْتَكرُوا فَلَنْ يَرُوحُوا ولَنْ يَغدُو لهُم غَــادِ

وَاللهِ لَوْ رُدُّوا ولَــوْ نَطَقُـــــوا إِذاً لقالُوا: التُّقى مِن أفضلِ الــزَّادِ "[1]

فالتقى والزهد في الدنيا هو أفضل زاد، لذلك اختاره الشاعر بعد أن تقلب في الدنيا وعرف حالها ومآلها فالموت هو النهاية الحتمية لكل حي:

"أَيْنَ البَقَاءُ وَهَــذَا المَوْتُ يَطلُبُنَــا هيْهَاتَ هيْهاتَ يَا بَكر بنَ حَمَّــادِ

بَيْنَا نَرَى المَرْءَ فِي لَهَوٍ وَفِي لَعِبٍ حَتَّى نَرَاهُ عَلَى نَعْشٍ وَأعْـــوادِ

هَذَا يُبَــاكِــر دُنْيَــاه مُنَغَّصَــــة فِيها حَزَازَاتُ أحْشَاءٍ و أكْبَـــادِ

وكُلُّنَا وَاقِفٌ مِنْهَا عَــلَى سَــفَــرٍ وَكُلّنَا ظَاعِنٌ يَحْدُو بــه الحَــادِي "[2]

فالدنيا ما هي إلا رحلة قصيرة مهما طالت، وفي كل يوم يرحل منها من يرحل ويفارق الأهل والأحباب، ويترك وراءه القصور والضّياع، ثم يتساءل الشاعر جاعلا

من نفسه محاورا افتراضيا: لم الانتظار؟ ويحث نفسه إلى الإسراع في رمي شهوات الدنيا وراءها والاستعداد للسفر:

"فِي كُلِّ يَوْمٍ نَرَى نعْشاً نشيِّعهُ فَرَائِحٌ فَارَقَ الأحْبَابَ أوْ غَــادِ

المَوْتُ يَهْدِمُ ما نَبْنِيهِ مِن بَذَخٍ فمَا انْتِظارُك يا بَكْرَ بنَ حَمَّــادِ "[1]

1- محمد بن رمضان شاوش : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي (200ه -296ه) ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ، ط:2 ، دون تاريخ، ص: 83|.
2- المرجع نفسه :ص: 84.

ففي المرحلة الأولى والثانية كان الزهد في الدنيا دعوة كل مغترب عنهـا عـارف بتقلـب أحوالها، وزيف حالها.

أما المرحلة الثالثة "فقد كانت أوغل في التّصوف الخالص منها إلى الزهـد، وفـي المرحلة الرابعة ظهرت الطرق الصوفية، وتبلورت اتجاهاتها وطقوسها الخاصة منذ القرن الخامس الهجري[2]، وقد ساهمت الهجرة من الأندلس إلى بلاد المغرب في انتشار التصـوف الفلسفي "وكأنه لم يبق في القرنين السادس والسابع إمام من أئمـة التصـوف الأندلسـيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية"[3]، وكان نتيجة ذلـك أنلـبس الشـعراء رداء التّصوف بنوعيه السني والفلسفي، وألبسوا أشعارهم الكثير من أحـوالهم ومواجيـدهم مـن بينهم"**أبو مدين شعيب**"¬ الذي ذاق من كؤوس الحب حتى ثمل، وفرّ إلى الحق، وتـاه عـن الخلق حتى أنكره من يعرفه، فعبّر عن اغترابه بقوله :

" طَـالَ اشْتِيَاقِي وَلاَ خِلّ يُؤَانِسُنِي وَلاَ الزَّمَانُ بِمَا نَهْوَى يُوَافِقنِـي

هَذَا الحَبِيبُ الذِّي فِي القَلْبِ مَسْكَنُهُ عليهِ ذُقْتُ كُؤُوسَ الذُلِّ وَالمِحَـنِ

أ نْكَرَنِي مَنْ كَانَ يَـعْرِفُنِـي حَتَّى بَقِيتُ بلاَ أهْلٍ وَلاَ وَطَـنِ

قَالُوا: جُنِنْتَ بِمَن تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَـذَّةُ الَعَيْـشِ إلاّ لِلْمَجَانِيـنِ"[4]

1- محمد بن رمضان شاوش :مرجع سابق، ص:85.

2-عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري ،ص : 238.

3- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات- الجزائر ، المغرب الأقصى ، موريتانيا- دار المعارف، ط:1 ،د ت ص: 201.

¬ - هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولد بحوز إشبيلية ،وتعلم بفاس، ثم حج، وعند أوبته استوطن بجاية ، توفي قرب تلمسان سنة 594 هجرية، ودفن بقرية العباد في تلمسان، ، ولقب بشيخ الشيوخ ،ولقبه ابن عربي ب"معلم المعلمين "كان متصوفا وشاعرا أندلسي. وهو مؤسس واحدة من أهم مدارس التصوف في بلاد المغرب العربي والأندلس،كثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور.

4- مختار حبار: شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل) ، دراسة ، اتحاد الكتاب العرب، ص: 96 ، http://www.awu-dam.org .

و" **أبو عبد الله بن الحجام**" (ت 1218/614م) وهو من متصوفة **تلمسان** أيضا ومما يؤثر عنه :

" غَرِيبُ الوَصْفِ ذُو عِلْمٍ غَرِيبٍ عَلِيلُ القَلْبِ مِن حُبِّ الحَبِيـــــبِ

إِذَا مَا اللَّيْل أَظْلَمَ قَامَ يَبْكِــــي وَيَشْكُو مَا يُكِنُّ مِــنَ الوَجِيــبِ

يَقْطَعُ لَيْلَهُ فِكْرًا و ذِكْـــــــراً وَينْطِقُ فِيهِ بالعَجَــبِ العَجِيــبِ "[1]

هذا هو حال المتصوف غريب عن الدنيا وعلمه غريب، عليل القلب، مشغول بالذكر لعلـــه يفوز بالوصال. أما"**أبو محمد عبد الحق بن الربيع البجائى**" فعجز قوله على حمل مواجيده ورأى أن السرّ يبقى سر لا يكشف :

" إفْصاحُ قَوْلِي لاَ يَــفِ بِمَوَاجِيــدِي وَبَيانُهُ لا يستَقِل بِمَا جَــرَا

لَوْ كَانَ سِرُّ اللهِ يُكْشَفُ لَمْ يَكُــنْ سرًّا ولَكِن لَّمْ يَكُنْ لِيُذْكَــرَا"[2]

ولكن الهوى لا يخف وسرعان ما كان رمز "ليلى" عنوان اجتمع فيه العشق العذري مـــع الصوفي وعبر به "**أبو زكريا يحي بن محجوبة السطيفي**"عن تجربته الذوقيه التـــي يعجــز عن وصفها فقال:

" فَكَيْفَ تَرَى لَيْلَى إِذَا هِيَ أَسْفَــرَتْ ضُحَاءَ أَبْدَت وَارِفاً مِنْ دَلالِهــاَ

وكَيْفَ بِها أنْ لَمْ يَغِبْ عَنَّا شَخْصُهَا وَلَمْ تَخل وَقْتاً مِن مَنَالِ وصَالِها

وكَيْفَ يَكُونُ الأَمْرُ إِنْ أَنتَ كُنْتَهَــا وكَانَتكَ تَحْقِيقاً فَحُلت لِحَالِهــــاَ "[3]

1- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ص: 203.
2-الطاهر بونابي: مرجع سابق، ص:259.
3 - ينظر: المرجع نفسه، ص:259-260.

فظهور ليلى في أشعار المتصوفة كان رمزا للغزل الرفيع، وهوعشق الذات الإلهية. ونجد مثل هذه الألفاظ الغزلية قد تصدرت أشعار"**عفيف الدين التلمساني**"الذي وظفها في التعبيرعن تجربته العرفانية فقال:

" إِنْ كَانَ قَتلِي فِي الهَوى يَتَعَيـــــنُ   يَا قَاتلِي،فَـسَيْف لَحظِك أمــكَـــنُ

حَسْبِي، وحَسْبُكَ، أَنْ تَكُونَ مَدَامِعِي   غسلِي، وَفِي ثَوبِ السَّقَامِ أسْكُــنُ

عَجَباً لخدِّك وَردَة فِي بَانـــــــــةٍ   والوَرد فَوق البَانِ مَا لاَ يمكِنُ !

أَدنَتهُ لِي سنةُ الكَرَى فَلَثَمتُـــــــهُ   حَتَّى تَبَدَّل بِالشَّقِيقِ السَوسَــنُ

وَوَددتُ كَوْثَر ثَغْــرهِ فَحَسبتَــنِــي   في جَنَّـــةٍ مِن وَجنَتَيهِ أَسْكُــــنُ

مَا رَاعَنِي إلاَّ بلاَل الخَال مِـــــــن   خَدِّهِ، فِي صُبحِ الجَبينِ يــــؤَذِّنُ

فَنَشَرْتُ مِن خَوْفِ الصَّبَاحِ ذُؤَابَـــةً   هِيَ كَالدُّجَى،فَظَلَلتُ فِيهَا أَكْمُــنُ"[1]

فهو يعبر عن تجربته الذوقية بألفاظ غزلية، فيصور حاله مدثّر بثوب السقام ساكن فيه لا يبرحه، فحب الحبيب أجرى مدامعه لتغسل أردان قلبه فيدخل مقام التوبة ويظفر برؤية الحبيب الذي تجلى فيه الحسن كله فخده وردة ،وثغره كوثر، فينفطر القلب من طول البعد ويزداد اشتياقا للقيا الحبيب ويصبح الحنين إلى الوصال مطلب النفس الفانية بالوجد :

" نُفُوسٌ نفِيسَاتٌ إِلَى الوَصلِ حَنَّت   فلَمَّا سَقَاهَا الحُبّ بِالكَأسِ جُنَّت

وكَانَت تَمَنَّت أَن تَمُوتَ صَبَابَـــةً   فَسَاقَ إِليْهَا الوَجْدُ مَا قَد تَمَنَّتِ !"[2]

1- عفيف الدين أبي الربيع التلمساني: الديوان ، حققه وقدم له وعلق عليه : العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر د ط ، د ت، ص: 225.

2- المرجع نفسه ، ص: 66.

وعند نواله مبتغاه، وفي مصلى القرب وبين كتب العرفان، هزّه الطرب فأناخ مطاياه وأعلن خضوعه، وقال:

"هَذَا المُصَلَّى، وَهَذِهِ الكُتُـــــب لِمِثْلِ هَــذَا يَهُزُّنَا الطَّـــــرَبُ !

فَالحَيُّ قدْ شرِعــتْ مَضَارِبُـــــهُ وَحُسْنُهُ عَنْهُ زَالَتِ الحُجُـــبُ!

وكُــلُّ صَب صَــبَا لِسَاكِنِـــــهِ يَسْجُدُ شَوقاً لَــهُ وَ يَقْتَـــرِبُ

أنِخْ مَطَايَــاك دُونَ رَبْــعِهِـــم كَيْ لاَ تَطَالكَ الرِّحالُ وَ النُّجــبُ

وَارْجُ قرَاهُم إِذَا نَزَلْتَ بِــهِـــم فَأَنْتَ ضَيْفٌ لَهُم، وَهُمْ عَــربُ!

وَاسْعَ عَلَى الرَّأْسِ خَاضِعاً فعَسَى يَشْــفَعُ فِيكَ الخُضُــوعُ وَالأَدَبُ

وَاسْجُدْ لَهُم، وَاقتَرِبْ فَعَاشِقُهُــم يَسْجُدُ شَوْقًا لَهُــم،وَيَقْــتَــرِبُ !"[1]

وعصر من دمه خمرة شرب منها الرّاح تلو الرّاح، فما سكر بل صحا بها وكانت له النعيم المقيم :

"وَأشْرَبُ الرَّاحَ حِينَ أَشْرَبُهَـــــا صِرْفاً وَأَصْحُو بِهَا فَمَا السَّبَــبُ ؟ !

خَمْرَتُها مِن دَمِي، وَعَاصِرُهَــا ذَاتِي،وَمَن أَدْمُعِي لَهَــا الحَبِيــبُ !

إِنْ كُنْتُ أَصْحُو بِشُرْبِهَا فَلَقَــدْ عَرْبَدَ قَوْمٌ بِهَـــا، وَمَا شَرِبُـــوا

هِيِ النَّعِيمُ المُقِيمُ فِــي خلــدِي وإِنْ غَدَتْ فِي الكُؤُوسِ تَلْتَهِـــبُ !

فَغَنِّ لِي إِنْ سقِيتُ يَا أَمَلِــي باسْمِ التِي بي عَلَيَّ تَحْتَجِــــبُ "[2]

1- المرجع السابق: ص: 35.
2- المرجع نفسه : ص: 35-36.

وقد زاد"تألق شعرالتصوف على يد"**ابن خميس التلمساني**" ᵟ الذي طرق كل أغراض الشعر الصوفي تقريبا، يقول في الخمر الصوفية :

" لَوْ لَمْ يَكُنْ خَمراً سُلاَفاً رِيقُهَا　　　تزْرِي وَتَلعَبُ بالنهَى لَم تَحظر

وَكَذَاكَ سَاجِي جَفنهَا لَو لَم يَكن　　　فيه مهَنَّد لَحظهَا لَم يحْــذَر

لَوْ عجتَ طَرفكَ فِي حَديقَة خَدِّهَا　　　وَأَمنْت سَطْوَةَ صَدْغِهَاَ المُتَذَمِّر "[1]

والملاحظ في القضايا مثل الغزل الإلهي، والحقيقة المحمدية، ووحدة الوجود،وغيرهــا من الأفكار الطارئة على الفكر الإسلامي هي في حد ذاتها خلقت اغترابا فكريا وهــذا مــا جعل البعض يقف منتقدا الصوفية ولعل"**محمد بن محرز الوهراني** "ᵟ كان من بــين النُّقــاد الأوائل حيث ذكر في بعض مناماته ما يلي :" ويرى الرسول مقبلا في موكب عظــيم مــن المقام المحمود يؤم مورد الحوض الذي يسقى منه أمته يقول: لمــا انتهــى إلــى شــاطئ المشرعة تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفي أيديهم الأمشاط وأخلة الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال صلى الله عليه وسلم ، من هؤلاء ؟ فقيل له: قوم من أمتك غلــب العجــز والكسل على طباعهم، فتركوا المعايش وانقطعوا إلى المساجد،يأكلون وينامون فقال:فبمــاذا كانوا ينفعون الناس ويعينون بني آدم ؟ فقيل له:والله ولا بشيء البتة ، ولا كــانوا إلا مثــل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء ويضيق المكان"[2] ولكن المتتبع لحركة التّصوّف في

ᵟ- هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ن عمر الحميري الحجري المعروف بابن خميس التلمساني، ولد بتلمسان سنة 645هـ وقيل سنة 650هـ نشأ بتلمسان ودرس على علمائها، يعتبر ابن خميس التلمساني شاعراً كبيراً، ملماً بالأدب واللغة وأصول الفقه، والمذاهب والحكمة والمنطق والطب. اشتهر ابن خميس بشعره الذي يحتوي على نزعة دينية تصوفية. قتل ابن خميس مع ابن الحكيم عندما هوجم قصر هذا قصر هذا الأخير عام 708هـ.

1- الطاهر بونابي: المرجع السابق، ص: 261.

ᵟ- هو أبو عبد الله محمد بن محرز ولد ونشأ في مدينة وهران ، كان ابن محرز على حظ كبير من الظرف والفضل والأدب ويمتاز أدبه بالسخرية ، البارعة والتهكم اللاذع . ومن آثاره عدة رسائل في السخرية والتهكم هي آية في الإجادة والإبداع .هي تارة على شكل أحلام. وطورا على شكل حكم تناول فيها عدة طوائف من العلماء والكتّاب والشعراء وكذا القضاة والوزراء و المتصوفة ،وله " جليس كل ظريف" و "المنامات."

2- ركن الدين محمد ابن محرز الوهراني: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل،كولونيا، ألمانيا، ط01، 1998، ص:49.

العالم الإسلامي يلاحظ أن المتصوّفة لم يكونوا هؤلاء الدراويش الذين لا يعرفون من أمور الدنيا شيئا،ويعيشون عالة على غيرهم وإنما هم "ربانيون يبحثون عن الله ، ووصولهم إلـــى الله ، يعني أيضا تثبيتا لقيم العليا، وتمجيدها فوق الأرض، وانقطاعهم عـــن الـــدنيا لـــيس خروجا منها، إنّما كان يعنيهم أن يحافظوا على الطهر والحرية والنقاء"[1]، وثورة المـــردين في الأندلس أكبر دليل على تفاعل المتصوّفة مع الأحداث، وتبرز مدى غيرتهم على ديـــن الله تعالى. فهم في أغلب العصور كانوا فاعلين ومؤثرين في المجال الأدبـــي، والسياســـي سواء بالسّلب أو الإيجاب. ففي القرن التاسع الهجري نجد وفرة في الشعر يغلب عليها طابع التصوف، فما من عالم من علماء الجزائر في تلك الفترة إلا وله منظومة في موضوع ديني أو صوفي، أو في رثاء متصوف أو زاهد ، ولمعت في هذا العصر أسماء نذكر منها فـــي وهران **محمد الهواري**[2]، وفي الجزائر كان "**عبد الرحمن الثعالبي**"[î] الذي خلـــف مؤلفـــات عديدة في التصوف منها(**حقائق التصوف، رياض الصـــالحين ، التقـــاط الـــدرر، العلـــوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة**) وغيرها " ومنهج **عبد الرحمن الثعالبي**" في التصوف، منهج متعدد الجوانب وإن كان يؤدي إلى غاية كبرى، وهي ســـلوك طريـــق المتصـــوفين المشهورين بإتباعهم الكتاب والسنة"[3]. وممّا قاله في محاسبة النفس:

"قَطَعتُ لعَمرِي بسَاعَاتِ عُمْــرِي   بزَيْدٍ، وعَمْرو، وقِيلَ،وقَـــــالَ

فَيَا صَاحِ مَهْلاً، أ أَسْأَلُكَ جَهْــلاً   وَأَتَّبِعُ غَيّاً سَبِيلَ الضَّــــــلَالِ

أَفِي المَوْتِ رَيْبٌ؟ أَيَجْمُلُ عَيْــبٌ   لِمَن لاَحَ شَيَبٌ لَهُ فِي القُــذَالِ*

1- محمد بن عمارة: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، شركة النشر والتوزيع ، المدارس ، الدار البيضاء ، د ط ، د ت ، ص : 195.

2- ينظر ، أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، 1500-1830، دار البصائر ، الجزائر، ط : 6 ، 2009، ص : 88 -89 – 91 .

î - الشيخ عبد الرحمان الثعالبي من أشهر علماء الجزائر ، عاش في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. أسس زاوية في مدينة الجزائر و أعتنى بالتدريس و التأليف في التفسير و الحديث و الفقه و التصوف و الأدعية ، ولد سنة - 1384م بوادي يسر شرق مدينة الجزائر، توفي سنة 875هـ/ 1470م و دفن بزاويته و 1470م و دفن بزاويته و قبره يزار إلى يومنا هذا.

3- عبد الرزاق قسوم:عبد الرحمن الثعالبي والتّصوف،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،د ط، د ت، ص:67.

شَبَابِي يَفِــرُّ، وَ شَيْبِي يَكِــــرُّ   ومَا أَنْ تَمُــرَّ المنُونُ بِبَالِـــي

طرِيقِي طَوِيلٌ ،وَزَادِي قَلِيـــــلٌ   وَحملِي ثَقِيلٌ، فَكَيْفَ احْتِمَالِـــي

أَرَى عِظَمَ ذَنْبِي، فَيَشْتَدُّ كَرْبِـــي   وَ لَكِنَّ رَبِّي عَظِيمُ النَّـــوَالِ "[1]

كما برز في تلك الفترة"**أحمد الجزائري**"الذي اشتهر بهذا الاسم لنضمه قصيدته فـــي التوحيد، المعروفة بـ**المنظومة الجزائريـــة**، كما اشتهر بإقامة زاوية باسمه في مدينة الجزائر التي لم يسره حالها في ذاك الزمان، فقال:

"**دَعِ الجَزَائرَ لاَ تَحْلُلْ بِسَاحَتِهَـــا   فِي ذَا الزَّمَان وَلاَ تَنْزِلْ بِوَادِيهَـــا**

كِدْنَا لأَجْلِ حُلُولِ الحَادِثَاتِ بِـــهَا   نَخْتَارُ، وَاللهِ، السُّكْنَى بِوَادِيهَـــــا"

أما في تلمسان فكان هناك "**محمد السنوسي**" و"**يوسف الندرومي**"،وكان في قسنطينة "**محمد الزاوي**" وفي بسكرة **عيسى بن سلامة البسكري** وغيرهم مما يعطينا انطباعا عامـــا علـــى انتشار التصوف في ذلك الوقت[2] انتشارا واسعا وهي الفترة التي سبقت العصـــر العثمـــاني والذي برز فيه مجموعة ممن ألف في التصوف من بينهم "**محمد الصباغ القلعي**" فهو مؤلف وشارح لأخبار الأولياء و الصالحين، وهو بذلك مصدر هام عن حياة التصوف في القـــرن العاشر ، و**ابن المغوفل**[ة] ومن أهم أعماله " **أرجوزته في أولياء وصلحاء الشـــلف** "، وقـــد تحدث فيها عن نسب هؤلاء الرجال وعلى مواطنهم، واعتبر ذلك خدمـــة لأهـــل **الطريقـــة القادرية** ومما قاله :

" **وَبَعْدُ فَالقَصْدُ بِهَذَا الرَّجْـــــز   تَقْرِيبُ مَنْأَى بِلَفْظٍ مُوجَــــز**

1- المرجع السابق ،ص:64.

*القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

2- ينظر: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ،ص: 89 – 91 .

ة - محمد أبو عبد الله المغوفل (-828هـ - 923هـ)، الشاذلي المشيشي الحسني ،دفين وادي شلف .

سَمَيْتُهُ(بِالفَلَكِ الكَوَاكِبِــــي) **وَسُلَّمُ الرَّاقِي إِلَى المَرَاتِــبِ**

أَعْنِي مَرَاتِبَ السُّلُوك لِلْمُرِيدِ **فِي الابْتِدَا وَالانْتِهَاءِ لِلْمَزِيــدِ** "[1]

و"**ابن مريم**"[ȝ] صاحب (**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**) الذي أحصـــى فيــه علماء وأولياء تلمسان، ورتب أسماءهم حسب الحروف من الألف إلى الياء ، ولقد ذكر في مقدمته إن الشيخ "**السنوسي**" قال له : " وليكن اعتناءك يا أخي بمن تأخر مـــن الصـــالحين وخصوصا من أهل بلدك حلولا بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقـــدم مـــنهم... لأن منافسة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة "[2]، من هنا تظهر الغاية من هذا التأليف، وهو إيجاد حلقة ربط مابين العلماء في عصره وبين من سبقهم، حتى يتأسوا بهم ولا يبتعدوا عن طريقهم .

ومما يميز العصر العثماني وجود كثير من شعراء التصوف، منهم "**المنداسي** " الذي وصفه "**مختار حبار**" ب " **سلطان العاشقين** " في حدود رقعته، فهو العاشق الذي يرى الموت في العشق أحلى من العسل :

"**مَعْشَرَالعُشَّاقِ مُوتُوا فِي الهَوَى** **إنَّ مَوْتَ العِشْقِ أَحْلَى مِن العَسَلِ** "[3]

فالموت في العشق هو غياب عن غير المحبوب " وأما الحياة فعلى العكس مـــن ذلـــك،هي اغتراب الذات الصوفية في عالم السِّوى، وغيابها عن الحضرة. وشعر "**المنداسي**"

في أغلبه شعر غياب "[1] فهو دائما في طلب وصال المحبوب :

1- المرجع السابق، ص : 123.

ȝ - هو أبو عبد الله محمد بن ابن أحمد الملقب ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني كان في مدينة الحنايا بالقرب من تلمسان وقد أخذ التصوف عن محمد بن يوسف السنوسي وله نحو ثلاثة عشر تأليفا.

2- ابن مريم ابن أحمد محمد الشريف الملتي المديوني التلمسلني : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، راجعه : محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، دط ، سنة 1908. ص : 6.

3- مختار حبار : الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني ، دراسة موضوعية وفنية ،بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه في الأدب ، المشرف : محمد عبد المطلب و مصطفى عبدا لشافي ، جامعة عين شمس ،كلية الآداب ، قسم اللغة العربية وآدابها ، السنة الجامعية :1990 /1991، ص :53.

" مَتَى أَصْحُو لِلزَّمَانِ ولِي شُــؤُونٌ   مُعَطَّــلَة، وَقَدْ عرضَ المنُـــون

أرُومُ مِنَ الحَبِيبِ وِصَالَ يَــــــوْمٍ   وَلَمْ يَسْمَحْ بِهِ الزَّمَنُ الخَــؤُونُ

تَضَعْضَعَ للنَّوَى جُنْدُ اصْطِبَــــارِي   وَحَلَّ بِمُهْجَتِي الدَّاءُ الدَّفِيـــــــــنُ

يَبِيتُ القَلْبُ فِي سِجْنِ التَأَسِّــــــــي   تُقَلّبُهُ عَلَى الجَمْرِ الشُّجُـــــــــونُ "[2]

وان كان "**المنداسي** "يجهر بهواه ويشكو صبابته، فإن "**سدي بن علي**" ستر تغزله وأوصى بكتمانه، فقال مخاطبا تلميذه الشيخ " **ابن عمار**":

" وَاكتُمْ أَبَا العَبَّاسِ سِرَّ تَغَــزُّلِي   فَالسِرُّ عِنْدِي أَنْتَ مِــن خُزَّانِــهِ

أَجْلاَفُ هَذَا العَصْرِ حَقا لَوْ رَأَوا   حَسَّان مَا جَنَحُوا إِلَى إِحْسَانِــهِ"[3]

فهو يخشى على شعره أن يفهم على غير حقيقته ، ولعلّ البيت الثاني قد نقل لنا الصـــورة واضحة على اغتراب المتصوفة في هذا العصر، الذين لم يرضوا بالأوضاع فكانت لهـــم ثورات، مثل **ثورة درقاوة*** التي كان لها " غرب البلاد وشرقها وانضمام مقـــدم **الطريقـــة الرحمانيـــة** في نواحي قسنطينة إلى الثورة عواقب سيئة على العثمانيين في الجزائر ، وذلك أن سمعتهم قد سقطت في أعين النّاس " [4]. ونتيجة لذلك فقد شدد العثمانيون الخنـــاق علـــى المتصوفة وأصبحوا يوجسون منهم خيفة ، لأنّ أثرهم على العامة بـــات واضـــحا. وعلـــى العموم فإنّ التصوف في الجزائر في هذه الفترة لم يكن مغاليا، ولقد بقيت الزوايا إلى عهـــد قريب تلقن طلبتها ألفية ابن العاشر التي تآلفت فيها العلوم الثلاثة، العقائد،والفقه،والتصوف .

1-المرجع السابق: الصفحة نفسها.
2- المرجع نفسه :ص: 556.
3- المرجع نفسه ، ص: 179.
4 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ، الجزء الأول ، ص: 223.
* - ثورة درقاوة أو ثورة أتباع الشيخ محمد العربي الدرقاوي سنة 1219، وقد كان الشيخ الدرقاوي من متصوفة المغرب الأقصى، ولكن أتباعه كانوا منتشرين بالجزائر وخصوصا غربها ، وكان مقدم طريقته في وهران ونواحيها هو الشيخ عبد القادر بن الشريف الذي يعود إلى قرية أولاد بليل قرب فرندة .

فيرتقي المتعلم من مرتبة الإسلام إلى الإيمان، لتصل في النهاية إلـــى خلاصـــة المعـــارف ومطلب العارف وهو الإحسان :

"يَقُولُ عَبْدُ الوَاحِدِ بن عَاشِـــــر   مُبْتَدِئاً بِاسْمِ الإِلَهِ القَـــــــادِرِ

الحَمْدُ للهِ الــذِي عَلَّمَنَــــــا   مِنَ العُلُومِ مَا بِـــهِ كَلَّفَنَـــــــا

صَلِّ وَسَلِّم عَلَـــى مُحَمَّـــــدِ   وَآلِهِ وَ صَحْبِهِ وَالمُقْتَـــدِى

وَبَعْدُ فَالعَوْنُ مِن اللهِ المَجِيــد   فِي نَظْمِ أبْــيَاتٍ لِلْأُمِيِّ تُفِيـــــد

فِي عقْدِ الأشْعَرِي ة وَفِقْهِ مَالِــكٍ   وَفِي طَرِيقَةِ الجُنَيْد ة ة السَّالِــك"[1]

فعبد الواحد بن عاشر جمع بين علم العقائد والفقه والتصوف في أبيات وجهت للعامة حتى تعرف دينها، فتطبّق ظاهره وتسمو بباطنه. وقد جاء في الشرح " أخبر إن نظمه هـــذا جمع أمهات العلوم الثلاثة وهي : العقائد ، والفقه ، والتصوف المتعلقة بأقسام الدين الثلاثـــة وهي الإيمان ،والإسلام والإحسان"[2]، وهذا ما كان يلقن لطلبة العلم في الزوايا، والكتاتيـــب التي وقفت في وجه الصليب، وحاربت فرنسا بالسيف والقلم. وعندما نذكر التصـــوف فـــي الشعر الجزائري في العصر الحديث فإنّ "**الأمير عبد القادر**"يتصدر القائمة، فهو" أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثرا وشعرا ، وترك تراثا ضخما بالقياس إلى غيره مـــن

ة - أضاف العقد إلى الأشعري لأنه واضع علم العقائد ، وهو الأمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن بشر بن إسحاق بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن آبي درة بن موسى الأشعري ،صاحب **رسول الله صلى الله عليه وسلم** ،وهو مالكي المذهب واليه تنسب جماعة أهل السنة ويلقبون بالاشاعرة و الأشعرية وكانوا يلقبون قبل ظهوره بالمثبتة إذ اثبتوا ما نفت المعتزلة.

ة ة- هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد الصوفية علما وعملا ،وإمامهم وأصله من نهاوند من كلامه رضي الله عنه " الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلا على المقتفين أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يحفظ القران وكتب الحديث لم يقتد به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة ".

1-ا عبد الواحد بن عاشر: متن ابن عاشر في مذهب مالك رضي الله عنه ، المطبعة الثعالبية، ردوسي قدور بن مراد ، الجزائر ، د ط سنة 1343ه

2-محمد بن محمد بن مبارك الفتحي المراكشي : شرح ابن عاشر المسمى بالحبل المتين على نظم، دار الهدى ، عين مليلة الجزائر، دون طبعة ، دون تاريخ، ص:4-5.

العلماء أو الشعراء في عصره "[1]، و لا غرابة في ذلك فهو من أسرة تنتمي إلـــى الطريقـــة القادرية ، شرب من ينابيعها فأثمر تجربة روحية أنتجت كتابـــه " **المواقـــف**" ". وإذا عُـــدَّ الأمير في بداية حياته شاعر العروبة والإسلام، فإنه في آخرهـــا يمكـــن اعتبـــاره شـــاعر التصوف بلا منازع "[2]، وقصائد "**الأمير عبد القادر**" في هذا المعنى تجول في دائرة شعراء التصوف الأقدمين، فروح التقليد بادية في أشعاره وشطحاته الصوفية التـــي هـــي أشـــبه بشطحات معلمه "**ابن عربي**" في شكه وريبته "والمتصوف شاعرا أو مفكرا ، يبدأ من نقطة الشك لأنه الطريق إلى المعرفة، وهو ما يلتقي في هذا مع المتفلسف "[3]، وإن كانا يختلفـــان في السبل المؤدية إلى النتائج، فالفيلسوف يقوم برهانه على استخدام العقل والمنطق، بينمـــا المتصوف فطريقه الذوق، وسبيله المحبة التي تنتهي بالعشق، والـــذوبان فـــي المحبـــوب، فيتلاشى كيانه المادي أمام تسامي كيانه الروحي. و "الشك لدى الأمير ليس طريقا للإلحـــاد وإنما هو طريق يهدف من ورائه إلى البحث عن الحقيقة الإلهية ، وهو لا يقصد أيضـــا أن يبني على شكه هذا مذهبا فلسفيا " [4]وإنّما هو شك موصل إلى الحقيقة ، وحيرة موصله إلى الطمأنينة وطريق للوصول إلى الله تعالى. ومهما يكـــن فـــإنّ الشـــك الـــذي أرّق شـــعراء المتصوفة هو الذي يبحث فيه صاحبه عن الإيمان.

يقول **الأمير عبدالقادر**:

" لَقَدْ حِرْتُ فِي أَمْرِي، وَحِرْتُ فِي حَيْرَتِي

فَأَيّ الأُمُورِ ثَابِتٌ،هُوَ لِـــي أَيٌّ"[5]

1-- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري، ص: 241.
2- المرجع نفسه ،ص: 242
3- المرجع نفسه، ص: 247.
4 - المرجع نفسه، ص: 248.
5الأمير عبدالقادر، الديوان،ص:323 .

فغرق المتصوف في بحر الشك يجعله يهاجم العقل الذي بسببه كان الشك، فلولا منطق العقل الذي لا يؤمن إلا بالأدلة والبراهين لما حار فكر ولا تشتت ذهن، والأمير في قصيدته"**يا من غدا عابدا لفكره** "يساوي مابين المعتمد على الفكر والواقف على شفا جرف، فهو يرى أن العقل يضل،وأنّ حكمه جائر، وعلى العارف أن لا يعتمد عليه في معرفته :

" يَا مَنْ غَدَا عَابِداً لِفِكْرِه فَقِــفْ   فَأَنْتَ يَا غَافِلاً عَلَى شَفَا جُــــرْفٍ

جَعَلْتَ عَقْلَكَ هَادِياً وَ نُورَ هُــدَى   أَضَلَّكَ العَقْلُ، أَيْقِنْ أَنْتَ فِي تَلَفِ

نحتَ رُبَّمَا كَمَا تَهْوَى وَقُلْتَ بِــهِ   تَظَلُّ تَعْبُدُ مَا خَلَقْــتَ فِي شَغَــفٍ

صَوَرْتَهُ صُورَةً بِالوَهْمِ بَــاطِلَــة   حَكَمْتَ جُوراً عَليْهِ، جُور مُعْتَسِفِ

حَكَّمْتَ عَقْلَكَ فِي الربِّ العَظِيمِ فَمَا   تَنْفَكُّ تَحْكُمُ فِيهِ حُكْمَ ذِي سَــــرَفِ

تَقُولُ لَيْسَ كَذاَ و لَيْسَ هُوَ كَــــذَا   الحَقُّ فِي طَرَفٍ وَ أَنْتَ فِي طَــرَف" [1]

فإلغاء العقل، والاعتماد على ما يرد على القلب، تجعلهم ينطقون بما لا يقبل منطقيا، فهم يجمعون بين الأضداد. **يقول الأمير عبد القادر**:

" فَطَوْراً تَرَانِي مُسْلِماً أَيّ مُسْلِــم   زَهُوداً نسوكاً خَاضعاً طَالِبــاً مَـــدَّا

وَطَوْراً تَرَانِي لِلْكَنَائِسِ مُسْرِعـــاً   وَفِي وَسطي الزنَار أَحْكَمْتُــهُ شَـــدَّا

أَقُولُ بِاسْمِ الابْنِ وَالأَبِ قَبْلَـــــه   وبِالرُّوحِ رُوحُ القُدس قَصداً ولَا كَيــدَا

وطَوْراً بِمدَارِسِ اليَهُودِ مُدَرِّســـاً   أُقَرِّرُ تَوْرَاةً وَأُبْــدِي لَهُــم رُشْـــدَا

1- عبد القادر الحسيني الجزائري:المواقف، حققه عبد الباقي مفتاح، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1، سنة :2005، ص: 20.

فَمَا عَبْدُ العَزِيزِ غَيْرِي، عَابِـــــد وَلاَ أَظْهَرَ التَّثْلِيثَ غَيْرِي، وَلاَ أَبْـــدَى

وَلاَ أَوْرَى نَارَ الفُرْسِ غَيْرِي مُورِى وَمَا قَالَ بِالاثْنَيْنِ إِلاَّ أَنَـــا، لَحــــداَ

أَنَا عَيْنُ كُلّ شَيْءٍ فِي الحِسِّ وَالمَعْنَى وَلاَشَيْءَ،عَيْنِي فَاحْذَرْ العَكْسَ وَالطَّرْدَا "1

فهذه الأبيات تدل على أن الشاعر يجول بين الأديان، ويلبس كل مـــرة لبـــاس قـــوم وينادي بفكرهم، وفكرة وحدة الأديان وإن كان صاحبها ينظر إليها " باعتبارها طُرُقاً تـــؤدي إلى التوحيد أو إلى الإيمان أو إلى المعرفة، وإن تعددت ســبلها واختلفــت مناهجهــا فـــي الوصول إلى الله "[2] إلاّ أنها تدل على اغتراب فكري، فالله حدّد طريقا واحدا للوصول إلـــى دين واحد ارتضاه لعباده، به تكون الطمأنينة، ويصل العبد إلى السّلام الرُّوحي ﴿وَمَن يَبتَـــغِ غَيرَ الإسلاَمِ دِينًا فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[3] "

وشعراؤنا إن كانوا سبحوا مع موجة التّصوف الفلسفي، واستخدموا مصطلحا ته إنّما فعل ذلك أكثرهم تقليدا كما وضّح ذلك "**صالح خرفي**" في كتابه "**الشعر الجزائري الحـــديث**" فالسكر، والغياب والفناء، مصطلحات تداولها شعراءنا، وعبروا بها عن تجربتهم الروحية .

يقول **أحمد بن مصطفى العلاوي** :

" تَيَّهَتنِـــــي ذَاتـــكَ وَغِبْتُ فِيكَ يَـــا الله

ظَهَرَتْ صِــفَــاتُــكَ مِـــنْـــكَ وَفِــيكَ يَا الله

لِـــمَنْ أَحْــكِي سِرِّي؟ لِمَنْ نُـــرِيـــكَ يَـــا الله

1- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف، ص:99.
2- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص : 304.
3 - سورة آل عمران: الآية 85.

رَجَــعْــتُ لِسُكْـــــرِي وَحِرْتُ فِيكَ يــــا الله "[1]

فما يحملونه من أسرار تجعل مداركهم للأشياء تفوق إدراك غيرهم من النـــاس، فهـــم يسقون من كأس المحبّة بعد أن يروّضوا النّفس، فبقدر ما يضيّقوا على أنفسهم بقدر ما ينالوا من الوصال، يقول **عدة بن تونس**:

" وَاللهِ مَا سَقَوْنِي حَتَّى عَطِشْتُ وَمَا نِــلْتُ هُــدَايَ حَتَّى هُدِيــت

وَمَا كُــنْتُ حَــيّاً بِالله حَــتَّى فِيهِ مِــتُّ وَعَنْ كَــوْنِي فَنَيْـــــتُ

وَمَا أَصْبَحْــتُ مُرِيداً قَــدِيــراً حَتَّى عَجِزْتُ عَــمَّا قَــدْ هَوَيْــتُ

وَمَا كُــنْتُ بِهِ سَمِيعــاً بَصِيراً حَتَّــى صَمَمْتُ وَحَتَّــى عَمَــيْــتُ

وَمَا صِرْتُ فِيهِ بِالعِلمِ حَــتَّى تَرَكْتُ العِلْــمَ بِالجَهْــلِ رَضَيْـــــتُ

وَمَا كُــنْــتُ كَــلِــيماً مُنَاجِياً حَتَّى بَكَمْــتُ بِالعَــيِّ ارْتَدَيْـــــــتُ

إِنَّ مَـــهْرَ الحَبِــيبِ عِزٌّ فِي ذُلٍّ غِنَاءٌ فِي فَـــــاقَـــــةٍ قَدْ دَرَيْــتُ

وَمَنْ يَرْوِي الوِصَالَ دُونَ مَهْــرٍ فَهَيْهَاتَ العَــقِيقُ وَمَا رَوَيْـــــتُ"[2]

فلكي تصل إلى محبوبك لا بدّ من تقديم مهر يليق به، فما ينال الوصال إلا الذي أخذ نفســه بالمجاهدات حتى تتطهر روحه من أردان الدنيا، وتصبح جديرة بالقرب فترتقي

في المقامات، وتتلون بالأحوال :

" فَنَيْتُ فِــيكَ حَتَّى كُنْتَ مِنِّــي بَصَــرِي وكُنْتَ مِنِّي سَمْعِي وَرُوحِي فِي جَسَدِي

1- أحمد بن مصطفى العلاوي ، الديوان ، المطبعة العلاوية بمستغانم ، الجزائر ، الطبعة الخامسة ، دون تاريخ ،ص:55.
2 - عدة بن تونس ، الديوان ، المطبعة العلاوية بمستغانم ، الجزائر، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص:4 .

نطَــقْــتُ بِكَ مَعْنًى وَالنَّـــاسُ فِــي أَزَلٍ لَــبَّــيْتُ مُــعْــتَرِفاً بِالْــوَاحِدِ الأَحَــدِ

طَوَيْتُ شَكْلِي كمَا تُطْوَى الظّـــلاَلُ ضُحًى إِذَا الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ فِي مُسْتَوَى الكَبِــدِ

أَنَـــــا الظـــلاَلُ وَ لاَ وُجُودُ أَمْــــلِكُـــــه إِلاَّ إِذَا جُدْتُمُ بِـــــالنُّورِ وَ المَــــــــدَدِ

وأَنْتُمُ الشَّــمْسُ فِــي الأَكْوَانِ مَا فَتِئَـــتْ ترَى عَلَى مِشْكَاتي بِـــالوَجْدِ وَالثَّمَــــدِ

وَالله مَنْ رآنِي مِن غَيْـــــرِ مَا شَبَـــــــهٍ رَأَى الذِي مَالَـــهُ فِي الكَــوْنِ مِن عَدَدِ"[1]

ويكون ذكر الله مطية للسفر، فيحضر البُراق ليحمله حيث المُنى، ومن هناك يعرج في مقامات القرب.

"**أَلِفُ اللهِ سَــيْفِــي وَالهَاءُ مَطِيَّتِي وَاللاَّمُ بِلاَمَــيْن زِمَامِي بِقَبْضَـــــتِي**

بُرَاقِي إِذَا شِئْتُ إِسْرَاء إِلَى المُنَى وَمِعْرَاجِي إِنْ رُمْتُ الصُّعُودَ لِسِدْرَةِ "[2]

وإذا ما فاز بالقرب غاب عن كل من حوله، وحضر عند محبوبه ، فاغترابه عن الخلـــق هو حضور عند الحق .

يقول **محمد البوزيدي** :

"**وَغِبْ عَنْكَ وَالغَيْبَةُ فِي الغَيْبِ إِنْ غِبْــتَ وَكُنْ حَاضِراً فِي الغَيْبِ وَالسِّرِّ والجَهْرِ**

وَرَاقِبْ جَمَالَ المَعْنَى فِي الحُسْنِ إِنْ جِئْتَ إِلَـــى بِلاَدِ العَيَانِ بِالصَّحْوِ من سُكْــــرِ

سَلَكْت طَــرِيقَ القُــرْبِ هَكَذاَ إِنْ كُنْـــــتَ وَإِلاَّ فَــسِرْ مَا دَامَ يَومُكَ فِي العُــمْــرِ

أَمَامَـــــــــكَ أَقْــوامٌ تَرَاهُــم إذَا تِهْــتَ عَنِ الكَون و إلاَّ فَـــإِنَّكَ فِــي السِتْـــــرِ

1- المرجع السابق، ص: 4.

2 - المرجع نفسه ، ص : 33.

حجَابُــكَ هُوَ القُــرْبُ بِالقُرْبِ قَدْ غِبْـــتَ   وَلَوْلاَ وُجُودُ القُرْبِ لَمْ تَكُنْ فِي الهَجْـــرِ"[1]

أما محمد العيد آل خليفة فاغترابه كان ظاهرا في ألفاظه التي انتقاها لتحمل شوقه، فهو ذاك المحبّ الواقف بباب الحبيب، يتّخذ من اللّيل مطيّة للقــرب والوصــال، فيتهجّــد ويسبّح، ولا يخاف على سرّه، فهو محفوظ ضربت حوله الليالي سترا جسيما.

يَـــا ابْــنَ اللَّــيْـــلِ !

قِــيَامُ اللّيلِ حِيلَةُ كُلّ بَـــرٍّ   بِــبَــابِ اللهِ قَـــامَ لَهُ خَدِيمَـــــا

إِذَا جَــنَّ الظَّــلاَمُ عَلَيهِ أَغْفَى   وَقَـــامَ يُسَابِـــقُ اللَّيْـــلَ البَهِيمَــا

بِنَافِــلَةٍ يُطِيــلُ بهَا قِيامــــاً   وقُـــرآنٍ يـــــرَتِّــلُــهُ قَــوِيمَــا

مَضَى متَهَجِّداً كَالنَّجمِ يَسْــرِي   وَجَدَّ يُسَـــبِّـــحُ اللهَ العَظِيمَـــا

تَــضِــنُّ بِسِرِّهِ سُــودُ اللّيَالِي   وَتَضْرِبَ حَوْلَهُ سِتْراً جَسِيمَــــــا

تُنَاجِيهِ المَلاَئِــكُ فِــي دُجَــاهَا   وَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَهَا نَدِيمَـــــا

فيَابْنَ اللّيْلِ بَــارِ النَّجْمَ وَاقْطفْ   جَــنَى الأَسْحَار وَاغْنَمْهَا نَسِيمَـــــا"[2]

ومن الليالي الساترة لسره إلى الطبيعة الحاملة لشوقه، فيتجلى الجلال والجمال في ما حوله فيدعو إلى التمتع والتأمل :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ رُبَاك طيباً   فَإِنَّ عَرَارَهَا أَزكَى شَمِيما

وَمَا قَدّمْت مِن خَيرِ خفِيٍّ   فَإِنَّ الله كَانَ به عَلِيما [3]

1- محمد البوزيدي ، الديوان ، المطبعة العلاوية بمستغانم ،ط:4، دون تاريخ،دون طبعة ، ص :142.
2- محمد العيد آل خليفة : الديوان ،ص:282.
3- المرجع نفسه ، ص : 282.

ويسير إلى الله باحثا عن مأوى للنزيل المغترب في دنيا لا يستقر فيها لــه قــرار، فهــو المسافر الذي يجهل موعد الوصول ، فتخرج آهاته مع قصيدته : "خسف القمر" فيقول :

" دَمْــعَــةٌ عَلَــى القَــمَرِ الخَاسِفِ

ذَاتَ البُــــــــرُوج　　آنَ العُــــــــــرُوج

هَــــــلْ مِنْ مَقِيــــلْ　　يُؤْوِي النّــزِيــــــــل

طَـــــالَ السَّـــفَـَــــر　　فَــمَتَـــى المَقَــــــــر؟"[1]

فالشاعر يذرف الدمع على القمر الخاسف، وينادي ذات البروج ليخبرهــا أنــه آن وقــت العودة، فقد طالت الغربة بهذا النزيل، فمتى يستقر ويرتاح من هذا السفر المضني ؟ وهــذا الجري وراء الحقيقة الضائعة ، فهو دائم السؤال عنها ،ففي قصيدته "أين ليلاي؟*"

تتعانق اللهفة مع الحيرة فيتوحد السؤال : أين ليلاي ؟ معبرا عن اغتراب عرفاني واشتياق أبدي لحب ملك الروح وأنهك الجسد فأفناه عشق تعالى في أجواء روحانية.

1- المرجع السابق : ص : 36.

*- نشرت قصيدة"أين ليلاي" في (الشهاب)ج(7)وفي 14في سبتمبر 1938م بتعليق الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس ، وهذا نصه:

جاء في الأغاني ج:3ص:291 مايلي:

" أخبرني عمي ،قال : حدثنا الحزنبل عن عمرو بن أبي عمرو قال : بلغني أن الحسين بن زيد دعا بابن المولى فأغلظ له وقال : أتشبب بحرم المسلمين ، وتنشد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الأسواق والمحافل ظاهرا ؟

فحلف له بالطلاق أنه ما تعرض لمحرم قط ولا شبب بامرأة مسلم ولا معاهد قط . قال فمن ليلى هذه التى تذكر في شعرك ؟ فقال له : امرأتي طالق إن كانت إلا قوسي هذه سميتها ليلى لأذكرها في شعري . فإن الشعر لا يحسن الا بالتشبيب ، فضحك الحسن ثم قال : اذا كانت القصة هذه فقل ما شئت.

فمن هي ليلى شاعرنا يا ترى؟ ليست له قوس ولكن له مروحة ، فهل يعني هو الآخر مروحته؟ أن محمد العيد الذي يشعر شعور الشعب ويتخيل خيال الشعب لا تشغله قوس ولا مروحة ولا تفتنه-وهو البلبل الغرد في قفص...- إلا الحرية .

النص:

أَيْــــــنَ "لَـــــيْـــــــلاي"

أَيْـــــــنَ (لَـــيْـــلاَي) أَيْنَهَـــا

حِـيــلَ بَـيْـنِــي وَبَيْنَــهَــــــا

هَـــــلْ قَــضَــتْ دَيْــنَ مَــنْ قَــضَــى

فِــي المُــــحِـــبِّـيــــنَ دَيْــنَهَــا

أَصْــلَـــتِ الـــــقَـلْــبَ نَــــــارَهَــا

وَأَذَاقَتْــــــــهُ حَيْـــــــنَهَــــــــــا

مُــــذْ تَعَرَّفْــــت سِرَّهَـــــــــــا

وَتعَشَّقْـــتُ زَيْنَهــــــــــــا

رَوَّعَتْنِي بِبَيْــنِـــــهَـــــــــــا

لاَ رَعَى الله بَيْنَهــــــــــــــا

فَــتَــعَــلَّقْـــتُ بِــالطُّــيــــــو

فِ الــلَّــوَاتي حَــكَيْنَهــــــــــا

وَتَعَلَّـــــلْـــتُ بِالمُنَـــــــــى

فَتَبَيَّنْتُ مَيْنَهـــــــــــــــا

مَالِ(لَيْــلاَي) لــمْ تَــصِــــــــــل

مُهْجَــاتٍ فَدَيْنَهَــــــــــــــــــا

وَقُلُوبـــــاً عَلِقْـــنَـــــــهَـــــا

وَعُيُونـــاً بَـــــكَــــيْـــــنَـــــهَـــا

ايهٍ يَا عَـــــيْـــــنِــي اذْرِفِــــــــي

لَـــنْ تَرَيْ بَعْـــــدُ عَــــيْـــنَهَـــا

كَـــــمْ تَــسَاءَلْــتُ سَــالِكـــــــاً

أَنْــــهُــــــجــــاً مَـــا حَــــوَيْنَهَـــا

لَـــمْ يُـــجِبْنِـــي سِـــوَى الصَّـــــدى

أَيْــــــنَ(لَـــــيْـــــلاَي) أَيْـــنَهَـــــــا؟!"[1]

4-قراءة تحليلية لقصيدة "أين ليلاي؟ " لــ "محمد العيد آل خليفة":

تتكون القصيدة من ثلاثة عشر بيتا (وحدة) وقد تناولها الأستاذ"**عبد الملك مرتـــاض**" بدراسة سميائية تفكيكية ، ولقد كانت لشخصية ليلى أبعادها الممتدة في جذور التاريخ ، فمن ليلى الحب الخالد العفيف ، ليلي قيس ، ليلى الأسطورة ، إلى ليلى الحلم الضائع والهــدف المنشود ليلى الحرية و الانعتاق ، ثم يعرج في لفتة قصيرة إلى ليلى الحقيقة ، ليلى الجمـــال المطلق ، ليلى العارف بالله ، الفاني في حبه، ولكن يبقى تأويل الأستاذ **عبد الملك مرتـــاض** متأرجحا بين ليلى المرأة ، وليلى الحرية .

1- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص:41.

الدال---------- ليلى

المدلول الأول --------- امرأة تملك من الجمال الأخاذ ما جعل الشاعر يهيم على وجهه باحثا عنها .

فاسم ليلى في مدلوله الأول اسم لفتاة، "فقد كان سبق للشاعر أن عرف ليلى وعرفته ، وخامرها وخامرته، وإلا فكيف يزعم لنا أنه عرفها، وعرف أسرارها، حتى عشقها"[1] ولكن شاءت الأقدار أن يفرق بينهما فخرج متسائلا "أين ليلاي" بعد أن أخذ منه الشوق كل مأخذ، فقد راعه بعدها" على نحو أمضه وأذواه، وأهزله و أضناه ، فما ألذ العشق، ولكن ما أمـــر البين"[2]، فقد تعلق بالطيوف اللواتي حكينها عندما استحال عليه رؤيتها حقيقة، وعلل النفس بالمنى لعلها تصدق يوما فيكون للوصال بينهما محلا ، ولكـــن هيهـــات فليلـــى "لا تعشـــق الشاعر، يعترف بمرارة أنّها لا تحبه . أو أنّها تحبه ولكن منعتها موانع الدهر من وصاله "[3] ويبقى هو وفيا لحبها، ويستمر في السؤال عنها وإن كان لا يجيبه إلا الصدى " أين (ليلاي) أينها؟! ".

المدلول الثاني------ ليلى الأسطورة استحضرها الشاعر ليحملها تجربتـــه الشخصـــية التي استحال فيها لقاءه بمحبوبه لموانع متعددة (الأعـــراف والتقاليـــد وغيرهـــا ...) كمـــا استحال لقاء قيس بليلى" الحديث عن ليلى في أي نص شعري عربي، في هذا السياق، يعني أسطرته... وكون ما ورد في النّص قد لا يرقى إلى مستوى توظيف الأسطورة فـــي رداء سردي جذاب أو مثير،لا يبعد عنه صفة الأسطورية المجسدة في ليلى"[4] التي تناولتها الذاكرة الجماعية فأضافت لها ما شاءت من الإضافات .

1- مرتاض عبد الملك : ا – ي دراسة سميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي " لمحمد العيد آل خليفة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دون طبعة، دون تاريخ ، ص: 87.
2- المرجع نفسه : الصفحة نفسها .
3- المرجع نفسه، ص: 91.
4- المرجع نفسه، ص: 96.

المدلول الثالــث --------- ليلى جمال الشمس، وضوء الصبّاح، ليلى الانطـــلاق دون قيود والانفتاح على الآمال دون حدود ، ليلى الحرية المنشودة في كل زمان ومكان.

ففي الليلة الليلاء ترتفع الأعين إلى السّماء وتهاجر إلى الأفق باحثة عن نور تستدل به على الطريق فالشاعر"**محمد العيد**" يشكل من العنوان حيزا يجمع فيه شعوره وشعور شـــعبه بالاغتراب فيأتي السؤال: **أين ليلاي؟** مدللا على غياب الاطمئنان والراحة والأمان بســـبب غياب ليلى " وكأن ليلى هي الحرية في كل زمان ومكان وكأن هذه القـــوة الباغيـــة هـــي الوسيط المؤذي الغاصب الذي يسخر النار ابتغاء أن يضل الحرمان من هذه الحرية قائما."[1] وهذا ما يشعل نار حبها في قلوب الشعوب المحرومة منها فتقدم المهج مهرا لهـــا وتجـــرى الدموع شوقا إليها ويخاطبها كل عاشق" هل يهون عليك هـــؤلاء الـــذين لا يبرحـــون بـــك يتعلقون: أما السجن فما أكثر ما منوا بغياباته من أجلك، وأما الاضـــطهاد فمـــا أكثـــر مـــا احتملوه في سبيلك،وأما الذل فما أكثر ما تعفروا به حتى تلوثت به أنوفهم "[2] كل هذا بسبب هذا العدو الغاشم الحاقد الذي جاء من وراء البحار ليسجنك يا ليلى ويبعدك عن محبيك، و يغيبك وراء الشمس فلا يعود لعاشقك أمل في لقاءك ومهما بحث عنك وتساءل عن مكـــان تواجدك فلن يجد له مجيب سوى الصدى لأن العالم لا أذن له ليســـمع صـــرخة الضـــعفاء المقهورين." فلنذرف الدموع تذرافا ولنذرفها حتى نسقي بها الأرض ، ونملأ بها كل حيـــز في الوجود ، فليست هذه الدموع إلا ترجمانا لليأس الذي سود دربنا إليك"[3].

ويطرح السؤال نفسه: هل بالدموع جاءت الحرية ؟ إنّ الدموع ليست مهرا للحرية وما كانت يوما تأتي بمفقود ولا تحقق مرغوبا ، وما الدموع هنا إلا دموع عاشـــق ولهـــان يخاف البعد ويخشى الانقطاع ، فالبكاء "من الله لطول تعذيبه بالحنين عنه إذا ذكـــر طـــول

1- المرجع السابق، ص: 97.
2- المرجع نفسه، ص: 90.
3- المرجع نفسه ، ص: 109.

المدة إلى لقائه،والبكاء من خوف الانقطاع"[1] عنه كما أنّ الدموع مفتاح مقام التوبـــة الـــذي يطرقه المريد.

أما الحرية فمهرها الدماء الزكية التي تجرف الظالمين، وتزحزحهم عـــن أمـــاكنهم فتتربع ليلى على عرشها، ويعم نورها البلاد، فيأنس بقربها كل متشوق لها ، وهـــذا مـــا لا نجده في القصيدة إذ أن على الرغم من " هذه التضحيات الجسام التي تجسدها المهج ومـــا فدت ، والقلوب وما هوت،والعيون وما بكت، لم تزد ليلى إلا تمنعا في الكشف عن نفســـها، و الإصرار على تعمية حيزها، فكأن ليلى كائن بدون إحساس"[2] بل هي الجمـــال المطلـــق الذي مهما ذابت فيه المهج تبقى دون الفوز به، ولقد لفت الأستاذ"**عبد الملك مرتاض**" الانتباه إلى أن **محمد العيد آل خليفة** يقيم موضوع قصيدته "على قضية حب تصـــطلي الشخصـــية الشعرية بنار هواه ، وفي هذا الاصطلاء تتجلى المعانـــاة الروحيـــة التـــي تشـــبه معانـــاة المتصوف"[3]، بل هي معاناة المتصوف الذي " لا هم له في حب الله إلا أن يذوب ويتعذب، ولا شيء ألذ لديه ، ولا أحلى ولا أغلى من أن ينصهر بنار هذا الحب الإلهي، ويتغنى بـــه، حتى يفنى فيه"[4]، و"**محمد العيد آل خليفة**" قد بدأ حياته متصوفا وهو لا ينكر ذلك ففي لقـــاء له مع الأستاذ "**عبد الله الركيبي** " ذكر بأنه بدأ متصوفا ،ثم اتجه إلى الحركة الإصـــلاحية بتأثير الهيئة الثقافية الجديدة عليه، وبسبب دعوتها التي اعتنقها في شبابه، بينما كان – كمـــا ذكر – يوصف بأنه شاعر " وطني صوفي " [5]، فلم يعترض على وصفه بالصوفي، لـــذلك ليس بعيدا أن تكون ليلى التي يعنيها الشاعر في هذه القصيدة هي ليلى الحقيقـــة ، وأن فـــي هذه القصيدة برزت مكنونات الشاعر الصوفي فباح بمواجيـــده، ولـــم يكـــن فقـــط شـــبيها بالمتصوف كما قال الأستاذ "**عبد الملك مرتـــاض**": " فالشخصية الشعرية هنا تكون حالهـــا

1 - الطوسي: اللمع، ص: 263.
2-عبد المالك مرتاض: أين ليلاي، ص: 109.
3- المرجع نفسه ، ص : 96.
4- المرجع نفسه، ص : 97.
5- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 312، (في الهامش).

شبيهة بهذا المتصوف الذي يمضه ذلك الضرب من الحب، فهو يحب مــن أجــل الحـــب، ويبحث عن الحقيقة التذاذا بالبحث المجرد عنها، ولا تكون هذه الحقيقة إلا ليلى ولا تكـــون ليلى هذه إلا قيمة روحية تتغذى منها النفس ، وتمنح الحياة ما هي له أهــل مـــن التـــوازن الروحي الذي لا تكتمل لذة الحياة إلا به "[1] فــ"**محمد العيد آل خليفة**" يبحث عن التوازن في اغترابه الروحي .

المدلول الرابع --------- ليلى الحقيقة

إن لاسم ليلى مدلولات كثيرة في التأويل الصوفي نجملها فيما يلي:

1- ليلى التى طلبها المتصوفة وعاشوا حياتهم باحثين عنها يقول **الحراق***:

" أَتَطْلُبُ لَيْلَى وَهِيَ فِيكَ تَجَلَّتْ وَتَحْسِبُهَا غَيْرا، وَغَيْرُكَ لَيْسَت"[2]

فليلى باعتبارها فضاء جماليا يشهد فيه الصوفي تجليات وأثار الجمال الإلهي المطلق ، وإذا "كان فعل الحب عند الحلاج وغيره هو استغراق في الحب عبروا عنه بالفناء ، فإنه عنـــد "**ابن عربي**"* وغيره من المتأخرين استغراق في مشاهد الجمال الإلهي المطلق في العالم"[3]

2- ليلى الجمال المطلق الذي ذاب في حبه الصوفية والتي رأى ابن عربي أنها لزامـــا عليها أن تحتجب لأن في رؤية جمالها عذابا لايزول

"لَــوْ أَنَّهُ يُسْفِـــرُ عنْ برقعِــهِ كَانَ عَــذَاباً، فلِهَــذَا احْتَجَبَـــــــا

شمْسُ ضُحى فِي فلكٍ طَالِعــَة، غُصْنُ نَقَا فِي رَوْضَةٍ قَدْ نُصِبَـــــــا

1- عبد الملك مرتاض: أين ليلاي ، ص: 97.
2-عبد الله الركيبي : المرجع السابق ، ص : 347.
*- هو محمد بن محمد الحراق الحسني شاعر صوفي مغربي .
3- أمينة بلعلى : تحليل الخطاب الصوفي، في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، منشورات الاختلاف، ط:1 ، سنة : 2002، ص:70.

ظلت لَهَا مِن حَذرٍ مُرْتَعبــــــاَ   والغُصْنُ اسْقِــيهِ مَاء صَيِّبـــــــاَ

إِنْ طَلَعَتْ كَانَتْ لِعَينِي عَجَــبَــا   أوْ غَربَت كَانَتْ لِحينِي سَبَــبَـــــا"[1]

3- ليلى الحب الصافي النقي الخالي من طمع الثواب والعقــاب ، الحــب الــذي يمــلأ الوجدان فيمحو من القلب ما سوى المحبوب ، حب يلفه الشوق والخوف والرهبة ، وهذا ما يجتمع في قلب المتصوف.

" تَحَارَبَ خَوفٌ لِي وَخَوفٌ مِن أَجلهَا   وَمَا وَاحــد عَــن قَــرنه يَتَرَاخَى

إذَا خَطَفَتْ أَبْــــصَارَنَا سَــبَحَاتُهَــا   أَصَمّ لَهَا صَوْتُ الشَّهِيق صمَاخَــا"[2]

4-ليلى من تزاحم ببابها العشاق ، وتنافس في وصالها المتنافسون، وفنـــي فـــي حبهـــا الفانون فما نالوا منها إلا بقدر همتهم لذلك تجد المتصوفة يجتهدون في المجاهــدات حتـــى ينالوا وصالها .

قِــفْ بِالــدِّيَــارِ ونَاجِــهَا مُتَعَجِّباً   مِنْهَا بِحُــسْــنٍ تَلَطَف بِتَفَجُّـــعٍ

عَهْدِي بِمِثْلِي عِنْدَ بَانِكِ قَاطِفــــــاً*   ثَمَرَ الخُدُودِ وَوَرْدَ رَوْضٍ أَيْنَـــع

كُلُّ الذِي يَرْجُو نَوَالكِ أُمْطِــــــرُوا   مَا كَـــانَ بَرُقُــكِ خُلَّــباً إِلاَّ مَعِي"[3]

1- ابن عربي : ترجمان الأشواق، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، د ط ، سنة : 1981، ص : 106- 107.
***محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي**، أحد أشهر المتصوفين لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفية "بالشيخ الأكبر" ،ولد في مرسية في لأندلس في شهر مضان الكريم عام 558 هـ / 1164م قبل عامين من من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني وتوفي في دمشق عام638 هـ / 1240م. أهم مؤلفاته: الفتوحات المكية، المكوُن من 37 سفر و 560 باب..والذي وُصف بأنه من النصوص الصوفية الموغلة في التعمق، وإن لغته رمزية و بها اشارات إلهية ، وله أيضا فصوص الحكم، وديوان ترجمان الأشواق ..
2- المرجع نفسه، ص: 181.
3 المرجع السابق، ص: 101- 102.
*- يشرح ابن عربي في ترجمان الأشواق " عهدي بمثلي عند بابك قاطفا ..." يقول كم شهدت من محب مشتاق بروضك يقطف من ثمار معارف القيومية ، يعني التخلق بها ، فان أصحابنا اختلفوا بالتخلق بالقيومية ومذهبنا التخلق بها "

5-ليلى البين والفراق والبعد والأشواق ونار يصطلي بها القلب صباحا ومساء فيشد لها عشاقها الرحال من مكان إلى مكان ، ويتيهون في البلاد يحسبهم الجاهل بأمرهم مجانين :

"بَانَ الأَحِبَّــةُ شَــدُّوا عَــلَــى رَوَاحِلِهِم، ثُــمَّ رَاحُـــوا سَحَر

فَسِرْتُ، وَفِي القَلْبِ مِنْ أَجْلِهِم جَحِيمٌ لِبَيْنِــهِــم تَــسْتَــعِـــر

أُسَابِقُهُم فِــي ظَــلاَمِ الــدُّجَى، أُنَادِي بِهِم ثــمَّ أَقْــفُــو الأَثَــر"[1]

6- ليلى هي هذه المعرفة التي لا يفتأ العارف باحثا عنها طول عمره متسائلا إذا كان له نصيب في لقائها .

أَلاَ هَلْ إِلَى الزَّهْرِ الحِسَانِ *سَبِيلُ وَهَــلْ لِي عَلَى آثَــارِهِــن دَلِيــلُ

وَهَلْ لِي بِخَيْمَاتِ اللوَى مِن معْرسٍ وَهَلْ لِــي فِــي ظِلِّ الأَرَاكِ مَقِيــل[2]

7- ليلى البعيدة التي حيل بينها وبين معشوقها ، فحفر الحزن أخاديد في قلبــه وجــرت دموعه أنهارا وويدانا، كما جرت دموع "**محمد العيد**".

يقول ابن عربي :

" فَأَرْسَلْتُ دَمْعِي أَمَامَ الركَـــابِ فَقَالُوا مَتَى سَـــالَ هَــذَا النَّهْـــر ؟

ولَمْ يَــسْتَطِيعُوا عُبُوراً لَــــــهُ فَــقُلْــتُ: دُمُــوعِــي جَــرَيْنَ دُرَر"[3]

1- المرجع السابق، ص: 165.

2- المرجع نفسه، ص: 191.

* يشرح ابن عربي البيتين بقوله : آلا هل لي إلى هذه المعارف الحاصلة والتجليات الذوقية من اسمه الجميل طريق إلى نيلها وهل لي دليل على الطريق الموصل إليها وهل بمقامات العطف الإلهي من إقامة وتعريس وهل لي في نعيم المشاهدة في حضرة التقديس والتطهير نصيب.

3-المرجع نفسه ، ص: 157.

ومن هنا نلاحظ أن ما حمله اسم ليلى في القصيدة من معاني صوفية، وما تلونت به أبياتها من أحوال تنقل فيها الشاعر من التساؤل إلى البحث إلى الشوق واللهفة عليها ثم جريان الدمع من المقل لخشية عدم الوصول إليها يحيل إلى التأويل الصوفي.

5- التأويل الصوفي لقصيدة أين ليلاي:

نبدأ من العنوان المتمركز حول نقطة واحدة وهي غياب ليلى واشتعال نار الشوق بقلب الشاعر فهام بذكرها وطار عقله متسائلا " أين ليلاي " وعند تعريفهم للشوق قال بعضهم " هيمان القلب عند ذكر المحبوب، وقال آخر **الشوق**: نار الله تعالى أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات"[1] فالشاعر خرج يسأل عن ليلى إذ غلبه الشوق فلم يعد يطيق صبرا على بعدها فهو " تبرم ببقائه شوقا إلى لقاء محبوبه"[2] فحمله ثقيل تنوء عن حمله الجبال ، فقد فاق حبه حب كل العاشقين، وذاك دأب المتصوفة الفانين في حب الجمال المطلق، وهذا ما عبر عنه أبو **حامد الغزالي** فقال :

"وَمن عَجَبٍ حَمْلُ الجبَال هَوَى بِهِ طَلَعْت وَعَنْ حمْلِي قَدِيــمًا تَأَبتِ

فَمَنْ قَيْسُ لَيْلَى العَامِرِيَة فِي الهَوَى وَمَنْ قَيْسُ لُبْــنَى أَوْ كــثَيرُ عَــزَّةِ

إِذَا تُلِيَتْ آيَــاتُ ذِكْرِي فَقَــابَــلَ ال مَجْنُونُ ذِكْــرِي بِالسُّجُــودِ لِحُرْمَتِي

وَأَوْجَبَ كُلٌّ مِنْهُم الوَقْــفَ عِنْدَهَــا وَسَلَّم أَنْ لاَ قِــصَّـــة مِثْل قِــصّتِي"[3]

1- الطوسي : اللمع ، ص : 90 .

2- المرجع نفسه، ص: 90.

3- أبي حامد محمد بن محمد الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس،شركة الشهاب، الجزائر، د ط، دون تاريخ، ص:194.

فقصيدة "**محمد العيد آل خليفة**" قصيدة تدل على حبّ ملك شغاف قلبه فما استطاع كتمه وراح يسأل عن ليلاه . فظهر اغترابه، إذ أنّه يعيش الحيرة والتساؤل ، وعدم الاستقرار فهو الشاعر الإصلاحي ،وهو الشاعر المتصوف يجمع بين طريقين، يعلي صوت المصلح ويكتم أنفاس المتصوف ،ولكن سرعان ما تخرج آهاته باحثة عن حقيقته .

يطالعنا الشاعر في أول بيت من النص الشعري بسؤاله عن مكان ليلي . وهو استفهام حقيقي إذ أن محمد العيد يجهل فعلا مكانها ،وهذا يبدو من تكرار أداة الاستفهام (أين) المقرونة بضمير الغائب (الهاء) وجهله ناتج عن البين فهو قد حيل بينه وبينها .

"أَيْنَ (لَيْلاَيَ) أَيْنَهَا حِيلَ بَيْنِي وبِيْنِهَا"[1]

فليلى هجرت الشاعر وأشد ما يخوف به المحب الهجر "الذي هو كناية عن سدل الحجاب على عين القلب"[2] وهو لا يريد للحجاب أن يسدل بينه وبين محبوبه لذلك يقوم بالبحث في أعماق النفس عن العوائق والحواجز التي تحول بينه وبين الوصول إلى محبوبه، فيتخذ من السّفر مطية للبحث ، والسفر هنا هو " السير إلى الله من منازل النفس بإزالة التعشق من المظاهر و الأغيار إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين، وهو نهاية مقام القلب"[3].

حين ذاك ينتقل من الغياب إلى الحضور،فمن اغترابه الفردي إلى الاغتراب الجماعي ليتساءل عن قضاء دينها للآخرين .

1- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص:41.
2-عاطف جودة نصر : شعر عمر بن الفارض، ص: 258.
3- أمين يوسف عوده : تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية ، عالم الكتب الحديث ، جدارا للكتاب العالمي ، الأردن، ط: 2، سنة : 2008، ص: 253.

"هل قضت دين من قضى؟" وهنا تستبد الحيرة بالشاعر، والحيرة "هي بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكيرهم تحجبهم عن التأمل والفكـــر"[1]، فالشـــاعر لـــيس الوحيد من يعاني من حب ليلى، ولكنهم كثر وهذا ما يجعلنا نستبعد أن تكون ليلـــى امـــرأة عشقها الشاعر، وإنّما هي رمز لحب أكبر.

إن القرينة الصوفية المتمثلة في كثرة المحبين، وطلب الشاعر أن يكون الوصـــل لكـــلّ مهجة ذابت في عشقها، وكل قلب تحرق بهواها وكل عين بكت على بعدها، ولكل من قـــام بالسير والسلوك في نهجها والذي لا يكون إلاّ "بتهذيب الأخلاق والأعمال والمعـــارف،وفي ذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن، والعبد في جميع ذلك مشغولا عن ربّه، إلاّ أنّه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول "[2]. فالانشغال بغير الله هو بعد يستدعي البحث عـــن ســـبل الوصال والذي هو " الرؤية والمشاهدة بسرّ القلب في الدنيا وبعين الرأس في الآخـــرة "[3]، لذلك يدعو عينه لذرف الدموع لأن قلبه لا يزال مشغولا ولم يفز بعد بالرؤية والمشاهدة :

"رَوَّعَـــــتْنِـــي بِبَيْنِهَا لاَ رَعَى الله بَـــيْنَهَـــا

فَـــتَعَلَّقْتُ بِـــالطُّـــيُـــو فِ اللواتِي حَكَيْنَهَـــا

وَتَعَـــلَّلْـــتُ بِالمُنَـــــى فَتَبَيَّنْتُ مَيْـــنَهَـــــــا "[4]

فمحمد العيد عندما تعلق بالطيوف فقد عكس صورة المحبوب على مـــرآة خيالـــه، فالطيوف هنا "كالمرآة العاكسة لوجه غير مرئي مباشرة"[5]، والمرآة لها خصوصـــيتها عنـــد المتصوفة فهي تبرز كرمز "لافتتان الصوفي بالوجود وحنينه إلى وصوله في شكل حـــس

1- المرجع السابق، ص: 249.
2- أبو حامد محمد الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، دار النهضة بيروت لبنان ، دون طبعة ، دون تاريخ، ص: 23 .
3-المرجع نفسه، ص :37
4 - محمد العيد آل خليفة :الديوان ، ص 41
5- عبد الملك مرتاض: ا – ي دراسة سميائة تفكيمية لقصيدة " أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

اغترابي ، وهي نوع من الغيبوبة الحلمية التي يعاني فيها كل أشكال الغياب "[1] فهو يعيش مع ما هو غير مرئي بالنسبة للآخر، و يغيب عن هذا العالم ليعيش مع طيف المحبـــوب ، وهنا يستدعي "**محمد العيد ال خليفة**" الطيوف ويعلل النفس بالمنى في الوصال وذلك لنـــزع شيء من الاغتراب الروحي الذي يعانيه ، فليلى لم تصل المهجات التي فدينها ولم تشـــفق على العيون التي بكينها ، فالمحب يذوق حلاوة الاتصال بالمحبوب فيسر قلبه ويهدأ بالـــه ، كما يبتلى بالفراق والهجران فيجري دمعه ويزيد شوقه وتلك أثـــار المحبـــة التـــي تتنقـــل بصاحبها بين" الوجد، والذوق، والحلاوة ، والأنس، والاتصال بـــالمحبوب والقـــرب منـــه ،والانفصال عنه والبعد منه ، والصد والهجران ، والفرح والسرور،والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها و لوازمها " [2] والشاعر يأخذه الشوق ويتعبه الصد والهجران، وتستبد به الحيرة فيقول متسائلا :

" مَا لِ (لَيْلَايَ) لَمْ تَـــصِلْ مُــــهْـــجَــاتٍ فَــدَيْـــنَـــهَـــــا

وَ قُلُوبًا عَـــلِقْــــنَـــــــهَا وَعُـــيُـــونـــــاً بَكَـــيْنَـــهَـــــا"[3]

نلاحظ كيف ينسب الشاعر" **محمد العيد**" ليلى لنفسه (ليلاي) لأنها حبه الخاص بـــه لوحده ، وهي أيضا حب يسري في كل الكائنات ولكن لكل مفهومه الخاص لحبه لأن "كونية الجمال الإلهي انعكست على مفهوم الحب ذاته فهو ليس انفعالا عاطفيـــا أو شـــبقيا، وإنمـــا حركة وجودية تسري في كل الكائنات، وتربط جميع الموجودات"[4]، والشاعر يتـــوق إلـــى الوصال الذي يملأ القلب أمنا وأمانا، ويدعو عينه إلى ذرف الدموع لغسل الخطايا والذنوب

1- أمينة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 71.
2 - ابن القيم الجوزية : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، د ط ، 1999، ص: 218.
3- محمد العيد: الديوان، ص: 41.
4- أمينة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي، ص: 71.

لتعبّد له طريق السير والسلوك لأنّه لن يراها فهي لا تحويها أرض ولا سماء، فهـــي أكبـــر من كل هذا وذاك :

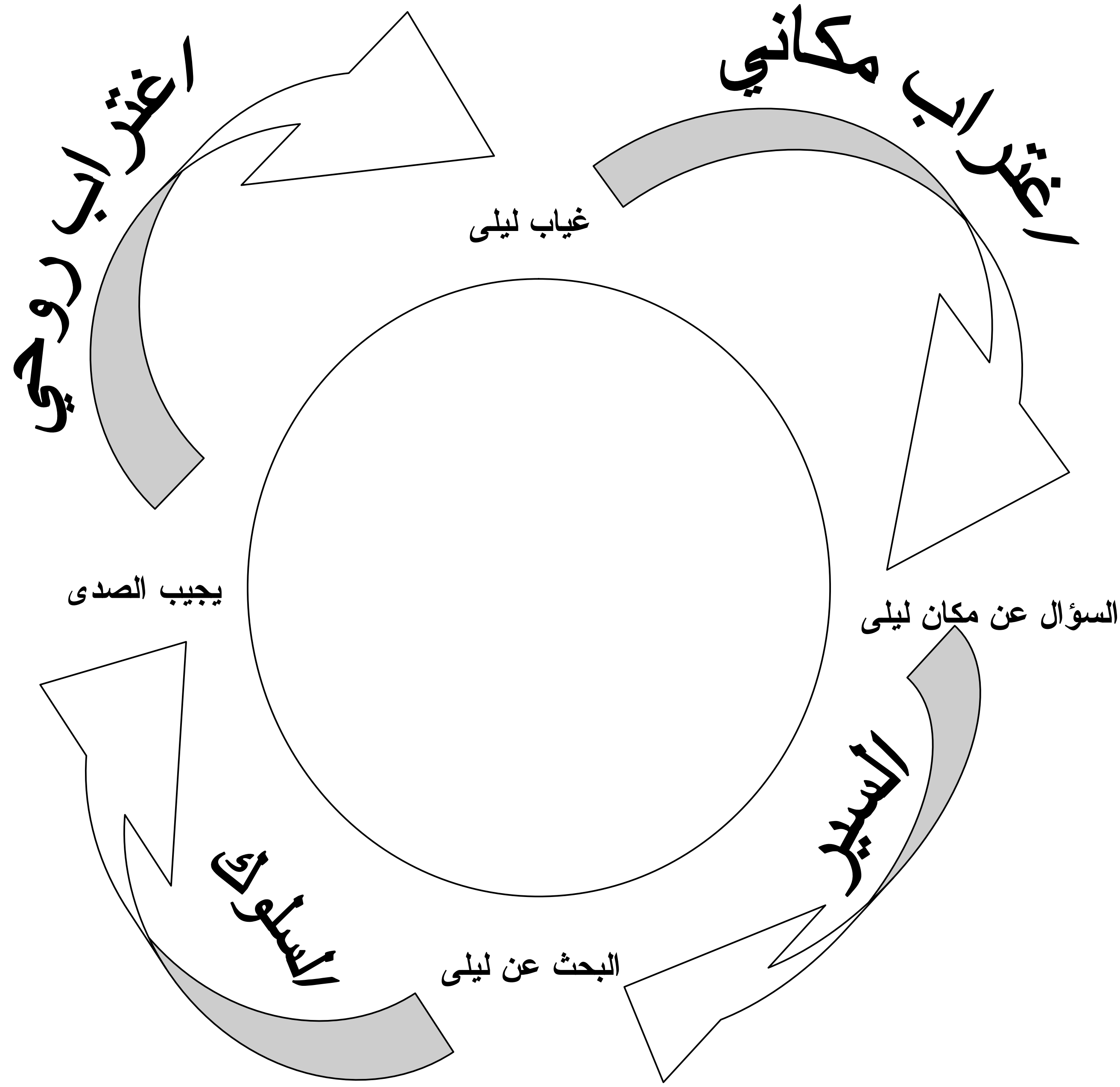
"ايهٍ يَــــــا عَــــيْــنِـــي اذْرِفِي		لَــنْ تَرَى بَــعْدُ عَــيْنَــهَـــــــــا
السَّـــــــمَـــــــــــاوَاتُ وَالأَرَا		ضِي جَــمِيعاً نَــفَــيْــنَهـــــــــا
كَمْ تَسَاءَلْـــــتُ سَـــــالِـــــكـــــاً		أَنْـــــــــهُـــــجـــــاً مَـــا حَوَيْنَهَـــــا
لَــــمْ يُجِبْنِي سِــوَى الصَّــــدَى		أَيْـــــنَ (لَيْـــــلاَي) أَيْنَهَــــــــــــــــا؟!"[1]

ويستمر الشاعر فى بحثه عن ليلى التي سأل عنها كثير من السالكين ولكن لم يجبه أحد لأن السر لا يكشف ، فيأخذه الهيمان فينادي بأعلى صوته " أين ليلاي؟ فلا يرد عليـــه سوى الصدى فاغتراب الشاعر عبر عنه باللاستقرار الذي يعيشه في الحياة الدنيا .

وينهي قصيدته بالسؤال الذي بدأها به " أين ليلاي أينها ؟ فهذا النص " يقـــوم بنـــاؤه على الدورانية يفضي بنا آخر بيت فيه إلى نقطة البداية ، أي إلى أول بيت في النص "[2]

القصيدة تنتهي عند نقطة البداية فهي على شكل دائرة نوضحها في الشكل التالي:

1- محمد العيد آل خليفة ، الديوان ، ص : 41-42.
2- عبد الملك مرتاض ، ا-ي دراسة سميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي ، ص : 55



الدائرة هنا تعبر عن الحضرة إذ أن الكل يدور حول المركز، ومحركهم في ذلك هو الحب "فلولا الحب ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات، ولا هبت الرياح المسخرات ،ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات"[1].

1- ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي، ص: 215.

والشاعر حركه الحب فانتقل من حال إلى حال، ودار باحثا عنه ليعود في النهاية إلى نقطة انطلاقه، " فالحركة الطبيعية أصلها السكون،وإنّما يتحرك الجسم إذا خـــرج عـــن مســـتقره ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك ليعود إليه "[1]. فالشاعر في هذه القصيدة يبدأ بالسؤال ليعـــود إليه، هذا لا يعني أنه لم يصل إلى مبتغاه، بل على العكس من ذلك لأن "السالك يسلك علـــى المقامات، وينكشف له في كل مقام عن نور من النور الذاتي، وذلك بحسب استعداده فيعرف بذلك النور ربه وخالقه " [2]، وهو قد سلك كل الدروب باحثا عن ليلاه التي تمثـــل الجمـــال المطلق ليصل في النهاية إلى حقيقة وهي أن عينه لن ترى عينها، فقد أدرك أنه لا يـــدرك المحبة، وهذا يعني أنّه وصل إلى مقام "يتحقق فيه أن الذات شيء مـــن خاصـــيته، إنّـــه لا يعرف، فيقول عند ذلك : "العجز عن درك الإدراك إدراك"، يعني أنه قد أدرك أنّ الذات لا تعرف، وهذا أعلى المقامات"[3] والشاعر ينتهي عند الحيرة التي بدأ منها لأنّ في هذا المقـــام الذي وصل إليه" يقول السالك: "رب زدني فيك تحيرا"، يعني الحيرة المقبولة ، التي تتكثـــر فيها التجليات الأسمائية و الصفاتية ، لا الحيرة المذمومـــة الحاصـــلة فـــي أول الســـلوك"[4] فالحيرة التي خرج منها بيقين ليست هي نفسها التي بدأ منها رحلة البحث، فيقينه بحبـــه زاد حتى وإن زادت حيرته عن ذي قبل ويبقى أمله في العودة بنقاء إلى منزله الأول هو مبتغاه.

6-قراءة لقصيدة "ابْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ المُرَّة" لـــ "محمد علي السعيد":

عنوان القصيدة اختصار لاغتراب الإنسان في هذه الأرض، فهو من هنـــاك مـــن السّماء، وما الأرض إلا دار امتحان ، وشقاء ومرارة .

يقول **محمد علي السعيد** في قصيدته " **ابن السماء والأرض المرة** ":

---

1 - المرجع السابق، ص : 213.

2 - -أبو القاسم بن صلاح الدين الخاني ،السير والسلوك إلى ملك الملوك ، دراسة وتحقيق سعيد عبد الفتاح ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط:1 ، سنة : 2002، ص: 55.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

" اذْهَب إِلَيْك

فَلاَ انْتِظَار تَمدُّه

شُطْآنُ بَحْرِك ، وَلاَ نَهَار

اذْهَبْ فَأَنْت حُدُود وَقْفِك وَالمَسَار

لاَ فَرْقَ بَيْنَ النَّجْمِ والزَّهْرةِ

حُدُودُ المَوْتِ شَرشَفَهَا الصَّبَاحُ ..."[1]

الذهاب هو قدر الإنسان، فلا أحد باق على وجه الأرض، فالحياة مرحلـــة محـــدودة يأتي بعدها الموت، الذي جعله الشاعر مشرشف بالصّباح لأنه يسرع بلقاء المحبوب وهناك ينجلي عن البشر كل الغشاوات فيصبح البصر حديدا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّــنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2]

"مَا أَقربَ الحَسِير مِنَ النُجُومِ ،

مَا أَقْرَبَ البَصَرَ الحَدِيد

مِن الفَرَاشَاتِ والتُّخُومِ

أن تَحْتَرِقَ

ذَاكَ انفصَال النَّار عَن أَسمَائِهَا

ذَاكَ انْزِيَاح الوَجْدِ

1- محمد علي السعيد، ديوان شعر، روح المقام، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات و الخدمات التعليمية، الجزائر، د ط، د ت، ص:191.

2- سورة ق، الآية: 22.

عَن حَرَم الصِّفَاتِ ،،"

تقترب الفراشات من النار حبا في النور فتحرق ، ولكن بين النار والنور (جنـــاس ناقص) فمن حيث الشكل فإن الكلمتين لا تختلفان إلا بحرف واحد، وكلا من النار والنـــور يضيئ، وإن النور الذي تشرق له الأكوان هو الذى يجعل الوجد ينزاح ، ويسمو في مقامات القرب فيكتب موت الشهوات وتنجلي عن الليالي الظلمات وتشع الأنوار وتتفـــتح ســـاحات العبور لتكون مرحلة البدء ، فيذوق حلاوة التجربة بعدا احترقه بنار المحبة.

اُكْتُبْ فَرِيحَ المَوتِ

تَجْلُو عَن لَيَالِيك الغَرَق،

اُكتُب رِسَالَتك الأخِيرَة

أحرُف البَدءِ المُغنى للأَلَق .

سَتَصِيُر أَكثَر مِن سيَاحَات العُبُورِ إليك

سَتَكون بَدْء المَرْحَلَة ...

وَتَكُون كُلّ الشَّهْد والشُّهدَاء

أَلوَان الحَيَاةِ ... " [1]

ويستمر الشاعر في ذكر الموت بألوان الحياة ، فالموت يجلي الليالي، ويكون البدء لمرحلة تالية، تبتعد عنها رياح الغربة، وتقترب من الراحة، والسكينة التي افتقدها في الدنيا، فهو كلما حاول السكينة في الدنيا ألهبته نار الشوق وهزه الوجد ـــ

1-روح المقام، ص:191.

لاَ مُرَّ بَعْدَ اليَوْمِ لاَ ذِكْرَى

أغَانِيكَ النَّدَى وَالذِّكْرَيَات

أَنْت البِلاَدُ تَنَقَلتْ فِي سِحْرِهَا

صَارَتْ هُنَاكَ، وَأَشْرَقَت"[1]

تشرق الأكوان بالأنوار فيتلاشى المكان والزمان، وتنتقل الروح في رحلتها النورانية متجاوزة اغترابها، فلا مرَّ بعد اليوم ولا ذكرى، ولا جهد ولا معاناة ولا كبد.

كُلُّ العَوَالِمِ مِن دمٍ

أفْضَى إليك بِحُبِّهَا ،،

لَمَّا تَعُدْ لَكِنَّهَا صَارَت إلَيْك ...

أنْتَ الذِي عَانَيْتَهَا ، عَانَتْكَ فِي أَقْدَاسَهَا ...

فَالدُّنْيَا جُهْدٌ، وَمُعَانَاةٌ ، وَكَبَدُ"

فالدنيا معاناة للعارف الذي يحترق فيها بنار الحب، والشوق، فهو مغترب فيها، لا تغيب عن عينيه أخراه، التي يبعث فيها حواريا وجيها.

ولَنْ تَغِيبْ

أُخْرَاك فِيهَا،

عِنْدَمَا تُطْوَى

1- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

فَــتُبْــعَثُ مِــن خَــوَابِــيهَــــا

حَــوَارِيًا وَجِـــــيهًا ...

اخْتَر مِنَّا فِيك : الجِهَاتُ جَمِيعهَا لَوْن الوَطَنِ ،،

وأَقِمْ بِلاَدَكَ فِيكَ تَــلْبسُك المَعَانِي"

عندما تلبسك المعاني وتصفو روحك وتشف وتشرق عليها أنوار التجلي ، فسينتفي الاغتراب، ويشرق فجر الربيع مع سحائب الرحمة وحينها فقط تنعم بالراحة والطمأنينة.

قُوَّةٌ مِنْهاَ وَإِنْجِيلُ العُرُوجِ ،،

سَيهبُ قُرآن السَّلاَمِ مَعَ الزَّمَنِ

وَتهبُ أَفجَارَ الرَّبِيعِ مَعَ السَّحَائِبِ وَالنَّدَى ..سَتَكُونُ كُلُّ الأَرْضِ دَيْرَكَ فَاسْتَرِحْ

قُرْبَ اليَنَابِيع أَنْت نَبْعُ المَسْأَلَة "[1].

فالقصيدة بين ظلمة الأرض ومرارتها وبين أنوار السماء وحلاوتها، ينتقل الشاعر في رحلة معراجية، جواز سفره فيها اشتعال قلبه بنار المحبة والشوق، ومطيتــه المجاهــدات، والرياضات فيكابد في دنيا الاغتراب ما يكابده من عناء وتعب، وتأتيه المنحة بإشراق أنوار التجلي عليه فينتفي اغترابه.

7-**قراءة لقصيدة " صلاة الغائب " لــ "محمد علي السعيد " :"**

"عَلَى شَفَةٍ مِنَ غَرَامِ اللَّيَالِي بِمَوْعِدِهَــا

حِــينَ أَغْــفُو ،

1- محمد علي السعيد: المرجع السابق، ص:191.

وأَرْسُمُ للشُّجَيْرَاتِ العَنِيدَةِ مَـــدَّ العُصُور

ونَـافِذَةٌ مِن صَبَاحِ السَّلَامِ

عَلَى بَابِ مَقْهَى

يُغَنِّي لِمَن سَيَمُرُّ بِهَذَا البُكُورِ إِلَى القَلْـــبِ

يُعْلِنُ أَنَّ مَحطَات رِحْلَتِنِاَ فِي الزَّمَانِ المُقَلَّصِ بَعْضُ الرُّكُوبِ"[1]

فالشاعر يتوق إلى العودة إلى الأصل.فهو يرسم الشجيرات العنيدة المصـــارعة للزمن، وللنوائب المكررة عبر العصور ، فهذه الأمة منذ وجدت وهي في مواجهة مع الظلم والظلمات ، وصباح السّلام هو حلم وأمنية كل عاشق باحث على حال الطمأنينة ، فالرحلـــة في هذه الدنيا قصيرة ، وما هي إلا بعض الركوب نحط الرحال بعدها.

"إِلَى وَقْــفَـــةٍ تَــكْــشِــفُ الحُجُبَ لِتُلْغِي

جَمِيعُ الوَسَائِط بَيْنَ الحَقِــيقَـــةِ

أَلُــوكُ لآلِــئَهَا

ثُمَّ أَسْـــــأَلُ عَــن صُوَرِ الكَائِــنَـــاتِ

عَــلَى وَجْدِهَــا فِي انْفِــرَاطِ الخَيَالِ

تُرَاهَــا تَكُونُ عَــلَى الدَّرْبِ

بَعْضُ المَعابِرِ فِي مُدْرَكَاتِ السَّكِينَةِ وَالفِطْــرَةِ الأَوَلِيَّةِ

1-المرجع السابق، ص:191.

هَذَا الفَضَاءُ القَــدِيمُ الذِي لاَ يُوَلِّي

وَلاَ يَسْتَرِيحُ إِلَى رَجْعَةٍ فِي حُدُودِ السَّذَاجَةِ تلْبَسُ أَلْــوَانهَا ...

حِينَ غَابَ الأَحِبَّةُ غَابَتْ يَدَايَ

وَطَارَتْ عَلَى الكَوْنِ أَجْنِحَتِي

فَاسْتَبَحْتُ المَغَالِقَ لَمَّا بَكَى القَــلْــب"[1].

فالشاعر ينتظر كشف الحجب لتلغى كل الوسائط فتتجلى الحقيقة، ويتساءل إن كان على الدرب السكينة و الفطرة الأولية ، والنقاء الباقي منذ الأزل لكل مــن طــار بأجنحــة الحب. فيبكي القلب بحرقة العشق ، فتتكشف له المغالق .

"واسْتَنْزَفَتْنِي المَآذِنُ

كَيْ لاَ أَكُون المُجَاهِــدُ فِي حَلَبَاتِ التَّــنَاقُضِ

كَيْ لاَ أَكُون الشَّهِيد بِأَعْرَافٍ مِنْ دَنَسٍ أُنَوِّرُ والظُّــلُمَات"[2]

ثم يعود ليستنزف حزنه على مآذن عبر العالم الإسلامي، هناك فــي القــدس تنتهــك الحرمات في زمن غربة الحق وأهله. في زمن يجلد فيه المظلوم، وتمنح المباركة للظالم .

"رَجَعْت إِلَيْهَا

وَكَانَتْ دُمُوعِي تَسِّخُ

عَلَى وَقفَةٍ للْوَدَاعِ الأَخيرِ

1 - المرجع السابق، ص: 191-192.
2 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

وَأَسبلَت كلّ ستَائِر ثَلج تَمرَّغ فيها

عَلَى فَرَحٍ سَوْفَ يا

يَغِيبُ عَنِ الشَّمْسِ مَوْعِدِهَا فَتَغِيبُ

وَتَتْرُكُ بَرْدَ اللَّيَالِي

وَلَا وَقْتَ لِي لانْتِظَارِ الصَّبَاحِ

تَقَمَّصَنِي شَغَفٌ بِالذِي لاَ أَرَاهُ

فَأَشْرَعْتُ قَلْبِي لِرِحْلَتِهِ

نَفذْتُ مِن خِلَالِ المَآذنِ المَوجُودَةِ

وَاسْترحْتُ مَعَ الفُقَرَاءِ عَلَى جَانِبِ الكَشْفِ، ضَاءَت

بِدَوْرَتِهَا الكَلِمَاتُ وَضَاقَت عَلَيَّ اللُّغَاتُ[1]

فالشاعر عاد إلى محبوبه ودموعه تسخ تغسل ماضيه، فارتقى إلـــى مقـــام التوبـــة وتقمصه الشغف للرحلة الذوقية للارتقاء أكثر في مدارج السالكين إلى الله " فالتوبـــة أول منازل السالكين. وأول مقام من مقامات الطالبين. وحقيقة التوبة في لغة العرب:الرجـــوع ، يقال تاب أي رجع. فالتوبة الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيـــه "2 استراح بعد عناء البحث مع الفقراء، هؤلاء الفقـــراء الـــذين عـــرفهم "**القشـــيري**"[ð] فـــي

1- المرجع السابق، ص : 192.
2- الرسالة القشيرية، ص: 126.
ð- عبد الكريم بن هوازن بن عبد عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري إمام الصوفية، وصاحب "الرسالة القشيرية "في علم التصوف،، ومن كبار العلماء في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر (376هـ / 465هـ) الملقب بـ "زين الإسلام"من مؤلفاته : صنف القشيري العديد من الكتب والرسائل، ، غير أن مصادر التاريخ تذكر أن أغلب مصنفاته فقدت، ومن أهمها:طائف الإشارات، تفسير للقرآن الكريم في ست مجلدات،كتاب القلوب الصغير والكبير،شرح أسماء الله الحسنى، أو التحبير في التذكير...

"**رسالته**":"الفقراء : صفوة الله عز وجل من عباده ، ومواضع أسراره بـين خلقـه ، بهـم يصون الحق الخلق ، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق . والفقراء الصبر جلساء الله تعـالى ، يوم القيامة ...قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة : حب المساكين ، والفقراء الصبر : هم جلساء الله تعالى يوم القيامة " 1.ولهـذا السـبب ارتـاح الشاعر مع الفقراء حيث انزاحت عن بصره الغشاوة، وكشفت الحجب، وأضاءت الكلمات ، واتسعت الرؤيا فضاقت العبارة .

"وَضَاقَتْ هَيَاكِلُ هَذِي الرُّمُوز عَـلَى مَا تَجَلَّى

فَتَحْتُ جَمِيعَ الكَمَائِنِ لِلْبَـثِّ،كُـنْتُ

أَسُوسُ طَرِيقَ العُـبُـورِ إِلَى سِـرِّهَـا وَأُعِـيـدُ الحُدُود

خَرَجت مِن القَـيْـدِ مِنِّي "[2]

فعند التجلي تعجز اللغة، وتضيق كل الرموز ف"العوام في غطاء الستر، والخواص في دوام التجلي... وعوام هذه الطائفة عيشهم في التجلي ، وبلاؤهـم فـي السـتر، وأمّـا الخواص، فهم بين طيش وعيش، لأنهم إذا تجلى لهم طاشوا، وإذا ستر علـيهم ردوا إلـى الحظ فعاشوا "[3].

فخروجه من المحدود إلى المطلق، ومن قيد شهوات الجسد إلى فضاء الروح مَكّنَهُ من أن لا يكون شتاتا .

"تَوَزَّعْتُ كَيْ لاَ يَـكُونَ الشَّـتَاتُ

1- المرجع السابق : ص:303.
2- سعيد محمد علي : المرجع السابق، ص: 192.
3- الرسالة القشيرية ، ص :110

وَمِـــــتٌّ عَــلَى مَوْتِي اتَّحَدَ العَابِرُونَ، تَفَرَّعَ فِي وَجْدِهِم

غُصْنٌ لاَ يَمُوتْ وَبرْعمَت الصَّدَفَاتُ

أَيَا زَمَـــــنـــــاً لاَ يقدِر

اسْأَلُهُ عَنِ نَــبِيٍّ وَعَمَّا ابْــتَــلاَهُ

وَأَسْـــــأَلُ، عَمَّنْ سَأَسْأَل كُلّ الثَّبَاتِ وَكُلّ التَّحَوُّل

وَأُمِّي تَلُــمٌّ ثِــــيَــابَ الجَــوَابِ وَتَـــــرْحَـــــل..

لِمَن تَــتْرُكِينَ الحَقَائِقَ عَارِيَة، وَهَــذِي الحَقِيقَـــــة لاَ تَتَعَرَّى

لِمَاذَا ؟ ..أُرَاودُ عَن نَــــارِهَـــا وقفتِي كَيْ يَـــذُوبَ

وَلاَ اكْتَــــوِي بِالفَرَاغِ إِذَا مَا انْتَــبَهــت

وَالْقِي المَدَار الوَسَائِط فِي قِمَّةِ الاسْتِوَاءِ

عَلَى مَطْــلَبِ التَّجَمُّلِ بِالعَاصِفَةِ

تُدَاهِمُنِي فِي السُّكُونِ الرِّيَـــــاحُ، عَــلَى قَدَمِي التَــقَــت

الخُطُــوَاتُ بِنَبْضِ العُــرُوج وَدَنْدَنَت الدَّرَكَــات

البَعِــيدَةَ فِي الرُّوحِ أَسْرَارهَا ، لاَ يُــفَسِّرُهَــا مَا يَكُون

وَيُوجِعُهَا أَنْ يَكُونَ الغُــمُوضُ رِسَــالَــة"[1]

---

1 - سعيد محمد علي: روح المقام ، ص: 193.

يتحد العابرون يتفرع غصن في وجدهم " والوجد : ما يصادف قلبك ، ويرد عليك بلا تعمد وتكلف، ولهذا قال المشايخ: الوجد مصادفة، والمواجيد ثمرات الأوراد، فكل مـــن ازدادت وظائفه ازدادت من الله لطائفه"[1].

فالشاعر تداهمه الرياح فتلتقي خطواته بنبض العروج فيرتقي،ويرتفع لأن العـــروج يرفع إلى أعلى، والمدركات تنزل إلى أسفل، إلى الأرض وفي الروح تجتمع الأسرار

" الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والأطلال، ويطلق لفظ السر علـــى مـــا يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه في الأحوال . وعليه يحمل قول مـــن قـــال : أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم "2، ويبق السرّ سرا بالنسبة للمتصوف.

يقول **ابن عربي** منبها على السّر:

" نَبِّه عَلَى السرِّ ولَا تُفشِـــــه فَالبَـــوْحُ بِالسرِّ لَهُ مَقْـــــت

عَلَى الذِي يبدِيهِ فَاصْبِرْ لَـــــهُ واكْتُمهُ حَتَّى يَصِلَ الوَقْـــْـــــتُ"[3]

" ويوجعها أن يكون الغموض رسالة"

فعندما تعجز اللغة عن ترجمة التجربة تصبح الكلمات محاطة بـــالغموض، وتصـــبح النّفس أسيرة الاغتراب .

1- الرسالة القشيرية، ص: 97.
2- المرجع نفسه: ص: 124.
3- ابن عربي: الديوان ، ص: 33.

الفصل الرابع

الاغتراب الجمالي

تمهيد

1- المبحث الأول : من القديم إلى الحديث والمعاصر

2- المبحث الثاني: بين الحديث والمعاصر

3- المبحث الثالث: اللغة

4- المبحث الثالث: الرمز

5- المبحث الرابع: الصورة الشعرية

الفصل الرابع : الاغتراب الجمالي

إن الجمال يتجلى في الإبداع ، وإبداعنا يعاني اغترابا لكونه لا يصل إلا لفئة قليلة من المتلقين، وهذا ليس من اليوم فالمشكلة قديمة قدم القول الشهير لـ"**لصّاحب بن عباد**" "بضاعتنا ردت إلينا " حين استلم موسوعة "**ابن عبد ربه**"[ð] (**العقد الفريد**) فالإبداع المغاربي عامة والجزائري خاصة يعاني اغترابا خارج حدوده الجغرافية ، هذا من جهة المتلقي المشرقي ونحن لا نلومه لأن دراستنا لتراثنا قليلة بل" لا يبدو الشعر الجزائري القديم (والمغاربي بشكل عام) ذا حضور بارز في ذاكرة الشاعر والمثقف بل وعلى خريطة الشعر كلها"1 وذلك لأن الأدب الجزائري بصفة عامة عاش"منذ وجد إشكالية وجودية تنبع أساسا من خصوصيات بيئته ومظاهرها البشرية والجغرافية"2 .

فالأديب عندما يبدع ينطلق من نقطة المركز، من مكانه المتواجد فيه ومن زمانه المعاصر له فإذا كان يشعر باغترابه الزماني والمكاني فان النّص المُبدَع سيحمل من شظايا نفسه المتصدعة الشيء الكثير.وهذا ما باح به "**محمد بلقاسم خمار**" في مقدمة مجموعته الشعرية " **بين وطن الغربة وهوية الاغتراب**"[3] : "إنني شخصيا لن أشعر بأي سعادة أو اعتزاز لو أصبح العالم كله يعرفني، وفي الوقت نفسه أكون مجهولا في وطني." فمعاناة

ð- هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم،ولد بقرطبة في العاشر من شهر رمضان عام (246هـ/860م) ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس،وأدبائها وأمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية وطول الباع في الشعرمنه ما سماه الممحصات، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة مؤلفاته: أشهر كتبه **العقد الفريد** وهو كتاب جامع للأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض والموسيقى.

وفاته: توفي ابن عبد ربه سنة 328 هـ بعد أن استوفى إحدى وثمانين سنة ، وقد أصيب بالفالج قبل وفاته. وآخر شعر قاله:

بليت وأبلتني الليالي بكرها   وصرفان للأيام معتوران
ومالي لا أبلى لسبعين حجة   وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أبالي من تباريح علتي   إذا كان عقلي باقيا ولساني

1- عباس بن يحي ، وعي الذات فرص ضائعة وافق مفتوح ، حول الهوية في الشعر الجزائري الحديث ، ص : 20.

2- عبد المالك ضيف ، خطاب الانتماء في النص الشعري الجزائري المعاصر ، دفاتر الشعرية الجزائرية ، جامعة المسيلة ، العدد الأول ، مارس ، 2009 ، ص: 5 .

3- محمد بلقاسم خمار: مرجع سابق، ص:6.

المبدع الجزائري نابعة من إحساسه بالتّهميش داخل وطنه ، فهو لا يشعر بأهمية إبداعـــه، ولا يجد له متذوقا .

فالاغتراب كان قدر إبداعات الأدب الجزائري القديم،ولا يزال مرافقا لـــه فـــي العصــــر الحديث والمعاصر.

1-<u>من القديم إلى الحديث والمعاصر</u>:

هزّ الانقسام أركان الأمة الإسلامية مشرقا و مغربا، فـــــأصبحت دُوَلاً وإمـــارات وصار لكل أمير أو سلطان شعراء يُزينون له حاله وأحواله، ولبس الشعر ألوان الزخرفـــة البديعية، فجُمِّل مظهره و غُيِّبت روحه، فاستشرى فيه الضعف والانحطاط. ولقـــد أســـهمت حركة إحياء التراث القديم في وقف هذه الموجة العاتية التي عانى منها الأدب العربي ردحا من الزمن، وأثبتت فاعليتها في خلق أدب يعود بجذوره إلى أعماق التاريخ فينسج على نمط الأقدمين، فيصور الفروسية الضائعة، والقيّم النبيلة التائهة في ظل التكالـــب الاســـتعماري البغيض، وقد برزت معالم الحركة الإحيائية مع فارسين أحدهما في المشرق وهو "**محمـــود سامي البارودي**" والآخر في المغرب العربي بالجزائر وهو"**الأمير عبد القـــادر**"، إذ حمـــلا لواء العودة بالشعر إلى عهده الزاهر، ثم جاء من بعدهما شعراء تابعوا مسيرتهما، وتمسّكوا أكثر بتقاليد القصيدة العربية، وتنافسوا على السّبق في هذا المضمار وكانت إمـــارة الشـــعر الحديث لـــ"**أحمد شوقي**" ولكن سرعان ما تعالت الأصوات منادية بالتجديد وتحطـــيم قيـــود الوزن والقافية، والتّحرر من الضغوطات التي تقف في وجه الدفقة الشعرية. ولقد شـــهدت أواخر الأربعينات بدايات الثورة على شكل القصيدة العمـــودي وكـــان "**الســـياب**" و"**تـــازك الملائكة**" قد ظهرا على الساحة الشعرية كرائدين لهذا التيار الجديد إلا أن "**رجاء عيد**" ترى أن هناك من سبقهما إلى التجديد فقد " نُشرت **للمازني** قصيدة في مجلة "**الحرية** " بـــالعراق سنة **1924م**، أي قبل المعركة الواهية بأكثر من نصف قرن ، وهـــي قصـــيدة **(محـــاورة**

قصيرة)"[1] وبهذا تكون بوادر التجديد في الشعر قد سبقت الأربعينات، ولقد أصبح هذا النمط الجديد يمثل "سلطة فنية أقل صرامة وضغطا من إرثها الشكلي مما أسهم إسهاما واضحا في توسيع مساحة الحرية، والتصرف والإنجاز وسهل فاعلية الانتقال شكليا من نظام الشطرين المقيد إلى نظام السطر الشعري "[2] ولا زالت القصيدة الحرة تخضع للتجريب، سواء في بنائها الشعري أو في عناصرها" ممّا أدّى إلى اتّساع الهوة بين القارئ وهذه القصيدة من ناحية، وأبعدها عن الشعرية المتوارثة من ناحية أخرى "[3].

لكن ومهما يكن فإنّ التجديد كان ضرورة حتمية، فقد كان أحد أهم أسباب هذه الثورات التي جرف تيارها أسس القصيدة العمودية، تلك الأحداث التي عاشها العالم العربي في العصر الحديث، والظروف الصّعبة التي مرّ بها شاعر هذه الحقبة جعلته يبحث على شكل مغاير للتعبير عن تجربته، وكان لحرب فلسطين 1948م أثر بالغ في نفسية الإنسان العربي عموما، والشعراء الشباب خصوصا، فقد أشعرتهم بالعجز والاغتراب وتعمق هذا الإحساس أكثر بعد حرب 1967م التي خيبت الآمال وحطمت الأحلام، ودفعت بالكثيرين إلى رفض الواقع، والدعوة إلى إعادة بناء واقع جديد يساير العصر وتطوراته. ورأى الشعراء الشباب أن على عاتقهم تقع مسؤولية تغيير الأوضاع ، لذلك فقد كان احتضانهم للقصيدة الجديدة، والنّسج على نمطها متنفسا لآمالهم، وتحقيقا لرغبتهم في التّحرر، ولقد اختلفت التسميات فمن الشعر الحر إلى الشعر المرسل إلى شعر التفعيلة، وكان لكل تسمية مسوغاتها وانتقاداتها، فتسمية الشعر الحر جاءت انطلاقا من تحرره من الوزن والقافية، إلاّ أن هناك من يرفض التسمية فلا يمكن الاستغناء عن الأوزان، لأنّ " الوزن وسيلة

1- رجاء عيد: التجديد الموسيقي في الشعر العربي ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، د ط ، د ت ، ص : 229

2 -محمد صابر عبيد: مرايا التخيل الشعري ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، د ط ، 2006 ، ص: 11.

3- مصطفى السعدني:التغريب في الشعر العربي المعاصر بين التجريب والمغامرة ، قراءة في النص، منشاة المعارف بالإسكندرية ،د ط ، د ت ، ص9.

الشاعر على استجلاء حسه الفني، والشاعر البارع يمكنه أن يستغل الدفقات الموسيقية ليُمَوْسِقَ كلماته كي تقوى على الإيحاء النفسي"[1].

ولقد أقرت الشاعرة "**نازك الملائكة**" بعدم استغناء هذا النمط الجديد من الشعر عن الوزن، وأن معرفتها بالعروض هي التي دفعتها إلى التجديد، حيث قالت: " إنما اندفعت إلى التجديد بتأثير معرفتي بالعروض العربي وقراءتي للشعر الانجليزي "[2] فاختيارهم لهذا النمط الجديد لم يكن اعتباطيا، ولكن كان مؤسسا بمعرفة واسعة للتراث، وبانفتاح على دراسات للمذاهب الغربية . هذا في المشرق العربي، أما في الجزائر فقد كانت التجربة الأولى للفكاك من صرامة القصيدة العمودية متجلية سنة **1928م** في "نص(**يا قلبي**) لـ"**رمضان حمود**"*، تجربة شعرية متعددة الأوزان، متغيرة القوافي، بل إنّها تشمل على مقاطع لا يمكن أن تخضع لبحر معين من البحور الخليلية المعروفة"[3]، ولكن لم يُقدر لهذه التجربة ريادة الشعر العربي، وبقيت سجينة الاغتراب. ومنه أصبح "معظم الباحثين يتفقون على إن "**أبا القاسم سعد الله**"*هو من كتب النموذج الأول من خلال قصيدته (**طريقي**) التي نشرت في جريدة **البصائر** 25/ مارس 1955 قبل قصيدة **الغوالمي أحمد** بحوالي شهر بقصيدته (**أنين ورجيع**) 22/أفريل 1955"[4]. وكانت قصيدة " طريقي" هي أول فتح للشعر الحر بالجزائر التي يقول فيها:

"يَارَفِيقِي

1- المرجع السابق، ص:9.

2- نازك الملائكة: قضايا الشعر العربي المعاصر، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط:4 ، 1962، ص 84.

3- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث،ص:150.

*يرى "**محمد ناصر**" أنه كان يمكن لدعوة رمضان حمود أن تترك بعض الأثر في الشعر الجزائري لو لم تختطفه المنية بعدها بسنة واحدة.

4- شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر دط،1985، ص66.

*- يقول **أبو القاسم سعد الله** في مقدمة ديوانه " **الزمن الأخضر** " أما أنا فقد نشرت منذ سنة **1956**هذه العبارات حول قضية التجديد في الشعر " كنت أتابع الشعر الجزائري منذ **1947** باحثا عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث، ولكني لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة ومع ذلك فقد بدأت أول مرة أنظم الشعر بالطريقة التقليدية، أي كنت أعبد ذات الصنم وأصلي في نفس المحراب ، ولكني كنت شغوفا بالموسيقى الداخلية في القصيدة، واستخدام الصورة في البناء .. غير أن اتصالي بالإنتاج العربي القادم من المشرق – لا سيما لبنان – واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر.

لاَ تَلُمني عَن مُرُوقِي

فَقَد اخترتُ طَرِيقِي !

وَطَرِيقِي كَالحَيَاةِ

شَائِك الأهدَافِ مجهُول السّمَاتِ

عَاصِفُ التيَّارِ وَحشي النِّضالِ "[1]

والملاحظ على هذه القصيدة أنّ" **أبو القاسم سعد الله**" لم يتخل عن القافية كليــة، وبقيــت مصاحبة له" كما أنه لم يكن جريئا في عدم التوازي بين أسطره الشعرية، بحيث يترك أمــر الطول، والقصر في عدد التفعيلات للموقف النفسي، والصورة الشعرية"[2]. كان هذا فقط في بدايات التجارب الشعرية الأولى، ولكن سرعان ما أصبح الشاعر الجزائري " يمتلك جــرأة كبيرة على عدم الخضوع للموسيقى الخارجية وزنا وقافية "[3]،وتخلى عن كل ما يقيد حركته الشعورية، ويقف حاجزا أمام لغته المعبرة عن خلجاته النفسية، وراح الشــاعر يفــك عــن شعره ما كان يقيد القصيدة العمودية القيد تلو القيد حتى وصل بالشعر إلى ما يشبه النثر،أو" النثر الشعري التي ظهرت على يد"**أبي العيد دودو**" في تجاربه، و"**عبد الحميد بن هدوقــة** "في ديوانه (**الأرواح الشاغرة**) في الستينات "[4]وغيرهم من الشعراء المعاصرين.

2- بين الحديث والمعاصر:

تبقى التفرقة بين مصطلح الحديث والمعاصر مشكلة يواجهها الباحــث إذ يتلبســها نوعا من الغموض فهناك من الأعمال التي تلبس رداء الحداثة ولكنّها بعيدة عن العصر كل

1- أبو القاسم سعد الله:الزمن الأخضر، ص:137 .
2- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص:220.
3- المرجع نفسه: ص:234.
4- المرجع نفسه، ص :235.

البعد، وذلك نظرا للغة المستعملة والدلالة الرامية إليها،أما إذا كان مصطلح المعاصر يعني الزمن فهنا أيضا يطرح إشكالا مستقبليا إذ كيف يراه من يأتي بعدنا معاصرا في حين هو بالنسبة لهم سيصير ماضيا ؟ فالشعر المعاصر " يشمل كل شعر هذا العصر أو الشعر منذ الحقبة الرومانسية فقط أو منذ بداية الحرب العالمية الثانية فهو إذن عائم معمم لا تتضح أبعاده ولا تتبين حدوده"[1]. بحر واسع لا يستطع السابح فيه أن يصل إلى شاطئ محدد، فالفترة الزمنية " قد تتسع لتشمل الشعر منذ مطلع هذا القرن وقد تضيق فتقتصر على شعراء الحقبة الأخيرة " [2]ما يستحيل معه ضبط المصطلح .

ولقد فرق الناقد "**ستيفن سبندر**"[ð] بين المصطلحين "بين ما يسميه (بالأنا الفولتيرية) و(الأنا الحديثة) فالأولى سمة الكاتب المعاصر الواثق من عقيدته، وهو ما يجعله يقف خارج عالم غاشم يعوزه العقل وتسيطر عليه المادة، في حين يرى أن الأنا الحديثة هي متجسدة في هذا الذي يرى الحياة بشموليتها في أحوال وظروف حديثة تمكنه من رفضها،ويمارس معاناة لا تلين أمام قيم العصر[3] وإن كان الشاعر في العصر الحديث قد اقتفى آثار السابقين ونسج على منوالهم فإنّ الشاعر المعاصر واثق من عقيدته، ولم يبق حبيس عصره وعاد لينبش في التراث ليبحث عن معادل موضوعي لألمه و معاناتة ولحالة الفوضى المادية، وعدم الاستقرار،والاغتراب الذي يعيشه، فكان أن وجد في الموروث الصوفي ضالته فقد انفتح أمامه باب الإبداع للتعبير عن اغترابه بلغة صوفية.

3- **اللغة**: إنّ أوّل ما يطرق سمع المرء وهو يستقبل الحياة مناغاة أمّه بلغة تستقي ألفاظها من معجم الأصالة ،فتسكن شغاف قلبه ،ويتبناها لسانه ،وتحتويه فتأخذ صفة الأمومة (اللغة الأم) فبحضورها تحضر الأمة، وبغيابها تغيب معالمها، ويعاني أبناؤها الاغتراب، فهي

1- إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1991، ص:29.

2- إحسان عباس :اتجاهات الشعر العربي المعاصر ،.ص :7.

ð ستيفن هارولد سبندر Stephen Harold Spender (**1909- 1995**) شاعر وناقد إنكليزي،اكتسب شهرته بأشعار ذات طابع سياسي.

3- ينظر : محمد أحمد المهنا : الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة ، ص:7.

الرّوح التي تسكن جسدها فتبعث فيه الحياة، وهي المكوّن الأساسي لقناة التّواصل الممدودة بين أفرادها ، لذلك ما كان من صاحب رسالة إلاَّ وجاء بلسان قومه قال تعـالى : ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَـن يَشَـاءُ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾1و يشرح **الإمام السيوطي** الآية بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَـانِ قَوْمِهِ﴾بلغة﴿قومه ليبين لهم﴾ ليفهمهم ما أتى به "2 فلا حجة لمن يدَّعي أنّه لم يفهم الرسالة لأنّ اللغة تحمل بين طياتها سرّ التواصل وتُيسّر سُبل التَّفاهم فهي كما قال "**ابن جني**" فـي كتابه **الخصـائص**" اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " فهي أصوات جمعت في كلمات للتعبير عن الواقع الذي يعيشه الفرد.

والشاعر الجزائري الصوفي وجد في لغة المتصوفة منبع يغرف منه ليعبر به عن تجربة ذوقية يخوض رحلتها بروحه،ويتذوق أحوالها بمفرده ، وتخونه اللغـة العاديـة ولا تستطيع الوفاء للتعبير عن مواجيده ، فيحاكي الغزليين ليعبر عن حب أسمى وأعلى، ويذكر الخمر والكأس ليصف سكره، وغيابه عن الناس، يقول **عفيف الدّين التلمساني** :

"كَمْ فِي جُفُونِك مِن حَانَاتِ خَمَّارِي وكَم بِخَدَّيْك مِن رَوْضَاتِ أزْهَارِي

وكمْ نَسِيم سرَى وَ أوْدَعْتهُ نَفساً مَالَت به عَذَبَاتُ البَانِ وَ الغَارِ؟!

هَـوَاك أفْضَحُ من أنّي أكْتُمُـهُ من بَعدِ مَا هتكَتْ بِالدَّمعِ أسْرارِي

لَولاك مَا رَقَصَتْ بِالدَّوْحِ قُضْبُ نَقا، ولاَ تَغَـنَّت حمَـامَاتٌ بِأشْجَارِي !

ولاَ لَثَمْتُ ثَـرَى أَرْضٍ حَلَلْتَ بِهَا ولاَ سَقَيْتُ بِدَمْـعِي سَاحَـةَ الدَّارِ"3

1- سورة إبراهيم، الآية: 4.
2- جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر: تفسير الجلالين، دار الإمام مالك، الجزائر، ص: 255.
3- عفيف الدين التلمساني:الديوان ، ص: 336.

فالشاعر صنع من لغة الحب الحسّي أجنحة حلّق بها في فضاء لاّ متناهي ليعبّر عن تجربة ذوقية لا يعرفها إلاّ من ذاقها، ينتقي ألفاظه من المعجم الغزلي والخمري ومن الطبيعة.

فمن المعجم الخمري كانت (الحانة، والخمّار)

ومن المعجم الغزلي (الجفون، والخد، والسرّ، والدّمع)

ومن معجم الطبيعة (البان، والغار، والحَمَامَات، والأشجار، والثرى، والأرض)

فالأبيات الشعرية قائمة على التّغني بجمال المحبوب الذي يُسكره ويُغيّبه عن غيـــره، فالحب هو أصل الوجود ، ولولا الحب ما رقصت بالدوح قضب النقا ، ولاغنت حمامـــات على الأشجار"ولقد اختلط لذلك موضوع (الحب الإنساني) بموضوع(الحب الإلهي) وتقاطعت مراميهما، فلم يعد في إمكان الدارس معهما أن يفرق بينهما في غياب قرينة وظيفية "[1] فألفاظ شعر الغزل بنوعيه هي ألفاظ الشعر الصوفي وهذا ما حدا ب "**ابـــن عربـــي**" إلـــى تـــأليف "**ترجمان الأشواق**"، ليترجم لغة الغزل إلى لغة صوفية، ويعرّف بمعاني الحب الإلهي مـــن خلال ألفاظ الغزل.

والأمير عبد القادر في شعره لم يخرج على هذا المعجم وبقـــي هـــو وغيـــره مـــن الشعراء الجزائريين المتصوفين متمسكين بألفاظ الرحلة والتغزل بالحبيب.

"لَيْتَهُم إِذْ مَلَكُونِي أَسْجَحُـــــوا لَيْتَهم إِذ مَا عَفَــوا أَنْ يَصْفَحُوا

رَحَلُوا العيس وَلَمْ أَشْعُرْ بِهم لَيتَ شِعْرِي أَيّ وَاد صَــبَّــحُــوا؟

أَخَذُوا قَلبِي وَ مَاذَا ضَرَّهُم أَن يَكُونُوا - بجميعى - جَــنحُــوا ؟

1- مختار حبار:شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل) دراسة ،اتحاد الكتاب العرب،بيروت، لبنان، د ط، دت، ص:69.

أَيّ عَيْشٍ يَهنَا لِي مِن بَعْدِهِمُ؟   طَارَ قَــلْبِي وَعِــظَامِي ملحُــوا

وَيحَ أَهل العِشْقِ هَذَا حَظهُـــــم   هَلكى، مَهْمَا كَتَمُوا أَوصَــرَّحُوا"[1]

وكثيرا ما يأخذ الوجدُ الشاعر الصوفي فيغيب عن الخلق في رحلة عرفا نية يستفيق بعدها لينطق بألفاظ غريبة تدخل ضمن الشطحات.

يقول **الأمير عبد القادر**:

" أَنَــا حَقٌّ أَنَـــــا خَلْــقٌ   أَنَا رَبٌّ أَنَــا عَــبْــــدُ

أَنَا عَرْشٌ أنَا فـــــــــرْشٌ   وَجَحيمٌ أَنَا خُــلْـــــــدُ

أَنَــــــا مَاءٌ أنَـــــا نَـــــارٌ   وَهَوَاءٌ أنــــا صَــلْــدُ

أَنَــــــــا كَمٌّ أَنَــا كَيْـــــفٌ   أَنَـــــا وَجْدٌ أَنَـــــا فَقْدُ"[2]

فالأمير عبد القادر الذي تبع خطى أستاذه "**ابن عربي**" كان يشطح باللغة فيخرجهـــا عن وضوحها، ويعرف الشطح على أنه" صفة البكارة اللغوية يلبسها النطق، إنه غيبوبة عن اللغة"[3] ويعرفه الطوسي فيقول: "معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهـــاج بشدة غليانه وغلبته"[4] فمن شدة الوَجْدِ الذي يعيشه المتصوف يخرج باللغـــة مـــن حـــدودها المتعارف عليها إلى شطآن بعيدة عن متناول العامة، أو بمعنى آخر هو اغتراب اللغة الذي أودى بحياة الحلاج وغيره.

1- الأمير عبدالقادر: المواقف، ج:2، ص: 600.
2- المرجع نفسه: ص:432.
3- ادونيس : الثابت والمتحول ،ص:104.
4- الطوسي : اللمع، ص:397.

والشطح ميزة المتصوف الفلسفي، أما المتصوف السني فكان لا يجنح بلغته إلى الغموض. والواقع أن لغة الشعر الجزائري خاصة بعد أن استقر بفرنسا المقام في الجزائر وصارت تحارب اللغة العربية بكل الوسائل، وقف الشاعر ليزيح الاغتراب عن لغته فاستقى ألفاظه من النبع الصافي، من القرآن الكريم فجاءت الألفاظ رصينة منتقاة بعناية تقرأ البيت الشعري فتتذكر الآية.

يقول **محمد العيد آل خليفة** :

" الحَقُّ ثَوْبٌ تَعَالَى اللهُ نَاسِجُهُ   تَبَّتْ يَدَا كُلّ عَاثٍ فِيهِ بِالجَّلَمِ "[1]

فالآية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2] تحضر في ذهنك مباشرة بعد قراءتك للبيت الشعري ،وليس لدارس الشعر الجزائري الحديث خاصة عند "محمد العيد آل خليفة"، و"**مفدي زكرياء**" إلا أن يقرّ كما أقرّ "**محمد ناصر بوحجام**" في كتابه " **أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث** " أن الشعراء "حاولوا الارتقاء بلغتهم والتوسع فيها في وقت ضعفت فيه الثقافة اللغوية ، فوجدوا في القرآن الغناء من هذا الفقر فعملوا على احتذائه والسير في نسقه في التعامل مع اللغة، واستعمالها"[3].

وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الشعراء المعاصرين فإنهم عادوا لمنابعهم الأصيلة وانتقوا ألفاظهم بلغة سليمة ليواجهوا بها الاغتراب الثقافي فالشاعر " **يوسف وغليسي**" يقول عن لغته الأستاذ "**عبد الملك مرتاض**": "إن اللغة الشعرية لدى"**يوسف وغليسي**" منتقاة إلى حدّ كبير، وهو لا يقبل منها كل ما انهال عليه أول مرة "[4] فالشاعر في نقل تجربته الشعرية عاد إلى التراث فانتقى ألفاظه بعناية ، وهو عندما اختارها من المعجم الصوفي إنما يريد

1- محمد العيد آل خليفة : الديوان ،ص: 375.

2- قران كريم، سورة المسد، الآية :1.

3- محمد ناصر بوحجام : أثر القران في الشعر الجزائري الحديث (1925 – 1976) الجزء الأول ، ط:1 ، المطبعة العربية، غرداية ، الجزائر، ص: 185.

4 - عبد الملك مرتاض : معجم الشعراء، ص: 595.

الانطلاق في فضاء اللغة الرحب ليوصل إلى المتلقي ما يحمل في نفسه من شحنات انفعالية، فاللغة "إنما هي ترجمان عما في الضمائر"[1]، وهي ترجمان في الحالة العادية ، أما في الحالة الإبداعية فان الشاعر يتعامل مع اللغة بإحساسه ويجعلها أداة طيعة بين يديه "يفجر طاقاتها الكامنة ويلبسها من فنه أثوابا جديدة تغنيها وتجدد في حياتها، يرتجل ألفاظا ويبتدع عبارات، ويبتكر تراكيب ويشحن ألفاظا قديمة منها بمعان وإيحاءات وظلال لم تكن موجودة"[2].

فإذ أخذنا الشاعر **يوسف وغليسي** وقصيدته " **في سراديب الاغتراب**" فستواجهنا لفظة (سراديب) وهي جمع سرداب والذي عادة ما يكون قليل الضوء، فهو حينما ربطها بالاغتراب أعطى صفة الضوء الباهت للاغتراب، فأول ما يلاحظه القارئ هو انتقاء الألفاظ بعناية، فيقول:

يَا قَلْعَةَ الأحْزَانِ فَوْقَ جَزِيرَتِي

مَاذَا أَقُولُ وَقَدْ دَنَتْ مَأسَاتِي ؟ !

يَا رِحْلَةَ الآلاَمِ فِي دَرْبِ النَّوَى

كَيفَ الرَّحِيلُ وَقَد جَرَتْ أَنَّاتِي ؟ !

كَيفَ الرَّحيل وَقَدْ غَدَوتُ مِن الضَّنَى

كَاللَّيْثِ أَوْ كَالرَّعْدِ في النَّبَرَاتِ ؟ !

صَفْصَافةً أَبَتِ الرِّيَاحُ فِرَاقَهَا

1- ابن خلدون :المقدمة ، دار الفكر، بيروت لبنان ، د ط ، 2004، ص: 563.
2- أحمد محمد المعتوق : اللغة العليا ، ص: 94.

بِضْعًا مِنَ الأَيّــامِ وَالسَّـــنَوَاتِ !

فِي غُرْبَتِي اجتَاحَنِي دَمْعُ الأَسَى

كَالحُبِّ يَدْهَمُنِي بِغَـــيْرِ أنَـــــاةِ

فنَظَرْتُ صَـــوْبَ صبَابَتِي مُتَصَبِّباً

مُتَأَجِّجَ النّيـــرَان و الزّفَـــــــــرَات

متَفَرِّدًا بالدَّمْــــعِ فِي بَيدِ الجَوَى

أَتْـــلُ عَلَى طَلَلِ الهَوَى آهَـــاتِـــــــــي

يَنْتَابُنِي طَيْفُ الصّبا ويَهزُنِي

فتتِيهُ فِي لُجَجِ الهُـــــمُومِ حيَاتِـــــــي

يجْتاحُنِي– كَجَحَافِلِ– سَيْل الشّقَا

لا فَأَبِيتُ كَالكَرَوَانِ فِي ظُـــلُمَـــاتِـــــي؟!

فَإِلَى متَى تَبقَى الدُّمُوعُ سَخِيَّةً

آه ! مَـــتَى ومَـــــتَى تحِينُ نَجَاتِي؟!

وَإِلَى متَى تَبقَى الضلُوعُ كَسِيرَةً

آهٍ ! متَى...؟ ! أَغَدًا تَحِينُ وَفَـــاتِي؟!

آهٍ وآهٍ ! يَا رِفَاقِي! مَا ...؟ ومَا ...

مَاذا جَرَى ؟ أَ تَوَقَفَت نَبَضَــــاتِي؟!

يَا رَوضَةَ " البنَّا " ! أيَا جُزر المُنَى

يَا مَنبَعاً لبَدَائِــــعِ الآيَاتِ !

"عِشْرُونَ أَصلاً " بَينَهَا أَخْتَالُ كَالـــــطَّ

اوُوسِ أوْ كَرَوَائِعِ الآيَــــاتِ!."[1]

ويجدر بنا في هذه القصيدة ملاحظة الألفاظ (الأحزان، المأســاة، الرحلــة، الآلام، الرحيل، فراقها، غربتي، الأسى، صبابتي، الدمع، الهموم، ظلماتي)، والتي جاءت من معجم "**سرداب الاغتراب**" فالرحلة في السرداب محملة بالآلام والمأساة و الفــراق... ، فالشــاعر ينتقي ألفاظه بدقة بالغة، ويحملها طاقة زائدة فتصل إلى المتلقي وهي مفعمة بالحيوية "بــل ربما وقع لنا نوع من الإحساس بأنه يتعهدها بالتهذيب، ويرعاها بالتشذيب قبــل أن يصــقل قصيدته في نسجها النهائي"[2].

فاللغة العادية البسيطة لا " توفر للشاعر الخصب القريحة كل ما يمكنه من تجســيد أحاسيسه ومعانيه الذهنية ورؤاه المكتنزة وأخيلته البعيدة وتنبؤاته اللامتناهية "[3].

فما بالك إذا كان هذا الشاعر ينحو بقصيدته إلى التصوف ويسعى لنقــل تجربتــه الذوقية فسيعمد حتما إلى تطويع اللغة وسيعمل بكل "ما يؤتى من ملكة إلى الكشف عن كــل الطاقات الكامنة في اللغة، ويعمل بكل ما يمتلك من مواهب وقــدرات علــى تفجيــر هــذه الطاقات"[4].

1- يوسف وغليسي: أوجاع صفصافة ، ص:20-21.
2عبد الملك مرتاض : معجم الشعراء ، ص : 595.
3- أحمد محمد المعتوق : اللغة العليا ، ص: 142.
4المرجع نفسه: ص : 142.

وهذا ليس حكرا على شاعر دون آخر، وبالأخص شعراء الصوفية إذ أن تجربتهم التي تتصف بالذاتية و التي لا يمكن لأحد أن يعرفها إلا إذا ذاقها لذلك نجد الألفاظ مثل (الحب، صبابتي، النيران ،الزفرات الجوى، الهوى ...) فهو مثل غيره استقى ألفاظه من معجم الغزل.

فجمال لغة الشعر مستمد من " عمق الفكرة ، وتلميح الصورة ، وصدق الإحساس، وذلك وحده ما يعين الشاعر على تقديم تجربة حية نابضة "[1] بألفاظ تكون قناة للتواصل مع المتلقي ،وهذا ما جعل لغة المتصوفة تعاني من الاغتراب فاجتهد أصحابها أمثال **ابن عربي** وغيره من أجل شرحها وترجمتها وتقريبها للسامع والقارئ.

وإن كان الإحساس بالاغتراب حدا بالشاعر الصوفي إلى تحميل الألفاظ معاناته النفسية، فإن هناك اغترابا من نوع آخر مسَّ اللغة من خلال تضمين النص ألفاظا من لغات أجنبية فإذا أخذنا المجموعة الشعرية (**اصطلاح الوهم**) للشاعر "**مصطفى دحية**" نجده قد ضمّن بعض قصائده ألفاظا من اللغة الأجنبية : ففي قصيدته" **مورو الأول**" التي يقول فيها :

" وَأنَا اليَتِيمُ كَاللُّغَةِ !!

أَلغَزْتُ آيَات اليَتَامَى فِي غَدٍ حَفَّتْهُ آيَات الجُحُود

" ورأيتُ Alberto عَلَى مَاءِ المَدِينَة يَصْطَلِي

بِعَرائِشِ الأَفْيُونِ فِي المِكْسِيكِ

أو ... فلرُبَّما عاينْتُ ثوْبَ البحْرِ

قالوا : رُبَّمَا... "[2].

1-محمد ناصر:الشعر الجزائري الحديث ، ص : 394.
2- مصطفى دحية : اصطلاح الوهم ، ص:55-56.

فاللغة تعاني اليتم ،والاغتراب، ويكبر اغترابها حين تتخللها ألفاظ أجنبيـــة بنطقهـــا ورسمها، فلفظة " Alberto" كان يمكن للاسم أن يكتب بحروف عربية كما يكتب " **كـــارل**" أو "**ماركس** "،أو"**المكسيك** " مثلا فلا تشعر بنفوره ولا باغترابه.

كما أن اللغة في هذه القصيدة يلفها الغموض إلى درجة الإبهـــام فيصـــعب علـــى المتلقي فهم ما يريده الشاعر."**وصالح فاضل** "عندما يرى أن على الشاعر: "مراجعـــة مـــا يكتب ومواجهته بالشك قبل أن يقبله"[1] فإنه يريد للغة الشعرية أن ترتقي إلى أعلى فتحلق في فضاء الإبداع والابتكار والإدهاش، فاللغة الشعرية لا بدأن تكون بعيدة عن لغة الشارع "هي وسيلة استبطان واستكشاف. ومن غايات هذه اللغة أن تثير وتحرك وتفاجئ وتدهش وتهـــز الأعماق "[2] لا أن تصدم المتلقي بألفاظ أجنبية عن لغته ،وتنقله إلى أوكـــار الأفيـــون فـــي المكسيك، لا ننكر أن اللغة في كثير من الأحيان تعجز عن حمل معاناة الشـــاعر،هذا مـــا " فرض على التجربة الصوفية طريقة جديدة في التعبير، ذلك أنه كشف عن مناطق لا تحيط بها اللغة، لأنها من غير طورها، ومن هنا لم يكن بد من خلق لغة ثانية داخل اللغة الأولـــى هي لغة الرمز والإشارة "[3].

فالمعروف عن الصوفية منذ القديم أن لغتهم تختلف عـــن غيـــرهم مـــن العمـــوم فتجربتهم الذوقية لا تتسع لها اللغة العادية"، وبالذوق تتميز الأشياء عند العـــارفين والكـــلام على الأحوال لا يحتمل البسط وتكفي الإشارة إلى المقصود، ومهما بســـطت القـــول فيـــه أفسدته"[4]، لذلك وجد الشاعر المعاصر مبتغاه إذ أن هذه اللغة ساعدته على نقل اغترابه، فهو لا يحتاج إلى الإفصاح عن هواجسه وهمومه بل يكفيه أن يدلل عليها بالرمز.

1- صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ،ص :212.
2 - المرجع نفسه، ص: 143.
3- ادونيس، الثابت والمتحول، ص: 103.
4- ابن عربي ، فصوص الحكم، ص: 144.

4-الرمز:

إن اللغة العادية هي وسيلة للتعبير ولكن في التجربة العرفانية تضيق العبارة عـــن حمل الوجد فالتعبير" بالرمز هو وحده الذي يمكن أن يقابل الحالة الصوفية التي لا تحـــدها الكلمة"[1] .لذلك فإنَّ اللغة الصوفية بإشاراتها ورموزها عالم خاص يصعب على من ليســت لديه دراية أن ينفذ إلى معانيها ،لأن هناك "للأشياء لغتها التـــي لا ينفـــذ إلـــى قراءتهـــا إلا الملهمون القادرون على فض ما تنطوي عليه من رموز وشفرات"[2] فتصبح للكلمـــة دلالات وأبعاد.فلغتهم المستقاة من المعجم الخمري، أو الغزلي تصبح وسيلة للتعبير عـــن محبـــتهم الإلهية، وسكرهم وغيابهم ومحوهم.

أ) رمز الخمر:

لقد اتخذ الشاعر الصوفي رمز الخمر للتعبير عن اغترابه عن دنيا الناس ورغبتـــه بالانغماس في تجربته الروحية ، ولقد وجد الشاعر المعاصر في هذه الرموز انفتاحا فحمَّلها معاناته ،يقول **يوسف وغليسي**:

"يَا نَادلَ الحَوْضِ !إنِّي هَا هُنَا ظَمِئٌ..

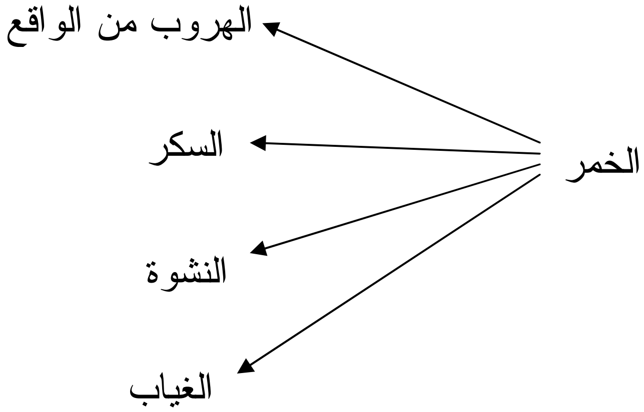
مِنْ كَوْثَرِ الرُّوحِ هَاتِ الخَمْرَ، تَسْقِينِي!

مِن كَوْثَرِ الرُّوحِ صُبَّ الخمْرَ أوْدِيةً

تَرْوِي صَحَارِيَّ..تَرْوِي الرُّوحَ.تَرْوِينِـــــي !... ."[3]

1- ادونيس:المرجع السابق، ص :103.
2 -عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت ،ط:3 ،1983، ص:63.
3- يوسف وغليسي : أوجاع صفصافة ،83

فالخمر التي تغزل بها أبو نواس فكانت فقاقيعها تأخذ بلبه ولونها يسحر عينه فيسكر ويغيب عن دنيا الناس،يستعيرها الشاعر الصوفي ليعبر بها عن سكره وغيابه وتتسع دلالاتها مـــع اتساع التأويل . فمثلا الشاعر" **يوسف وغليسي**" يذكرها في هــذه الأبيـــات فتأخـــذ دلالات مختلفة فهي :



<u>ب)رمز المرأة :</u>

أما رمز المرأة فقد كان تعبيراعن الجمال المطلق،فراح الشاعر الصوفي يتغزل بها ظاهريا ، ولكنها كانت تعبيرا لتفانيه في حبه الإلهي . فاتخذت تأويلا ظاهريا يراه العـــوام غزلا عفيفا أو صريحا، بينما تأويله الباطني لا يصل إليه إلا ذوي البصائر فقد " أبرز ابن عربي تصوره للمرأة في ديوانه ، باعتبارها فضاء جماليا يشهد فيه الصوفي تجليات وأثار الجمال الإلهي المطلق "[1]، وبقي الشاعر الصوفي الجزائري محا فظـــا علـــى هـــذا الإرث الرمزي يقول **وغليسي**:

" عَيْنَـــــاك مَقْــبَــرةٌ للْحُزْنِ والــوَجَــعِ

فِي عُــمْق عَيْنَيْك يَفْنَى الأُفُّ وَ الآه ..

1- بلعلى امنة : تحليل الخطاب الصوفي ، في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، منشورات الاختلاف، ط: 1 ، سنة : 2002، ص :70.

فِـــي عُــمْــق عَيْنَيْكِ يَرْمِي اللهُ رَوضَتَهُ

وثَـــمَّ يَدْفِـــنُ قَـــيْـــسٌ هَمَّ لَيلاَه!

تَلَوَّنَ البَحرُ فِي عَينَيك وَاضْطَرَباَ

فِي بَحرِ عَيْنَيكِ،أَنْسَى البحْر..أنسَاهُ!

أَهوَى الهَوَى فِيكِ،فِي عَيْنَيْكِ..أُعْلُنُهُ:

أَهْــوَاك..أهْوَاهُمَا..أَهْـــــوَاهُ..أهْــوَاهُ!

قَدْ أُسْرِيَ_الآنَ_ بي مِن مُقْلَتيْكِ إِلَى

مَعَارِجِ الرُّوحِ، كَيْ أَلْقَاكَ رَبَّـــــــــــاهُ !"[1]

ففي هذه الأبيات ينفتح الرمز على دلالات ممتدة الأبعـــاد، والقـــراءات المتعـــددة. فالشاعر يركز على العينين التي تحمل في بريقها الانتقال التلقائي من المادي إلى المعنوي، فهو من خلال العينين ينقل تجربته وانتقاله التصاعدي في رحلته الروحية،حيث يقبر الحزن والوجع، وتنتفي الأف وآه، فيغترب عن عالمه المادي ويعيش لحظة الصفاء الروحي، أيـــن لا يوجد إلا الحب المطلق .

ج) اللون:

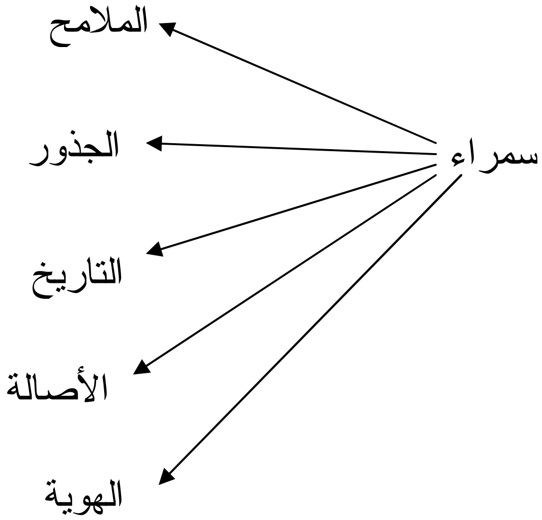
إن للون أبعادا لا متناهية في تفسير التجربة الذوقية. يقول وغليسي:

"إِنَّنِي أَتَيْتُكِ يَا سَمرَاءُ ظَمآناَ أَشرب الشِّعرَ مِن عَيْنَيْكِ وِدْيَانَا"[2]

1- يوسف وغليسي: أوجاع صفصافة ، ص: 58

2- المرجع السابق ،ص،31.

فيأتي رمز السمرة مشحونا بالدلالات المختلفة:



فالسمرة رمز العربي الأصيل الذي يأنف من الضيم،ويعشق الحرية يأتيه الشاعر ظمآن في زمن تباع فيه القيم بأبخس ثمن.

د) الأسطورة:

لم يهمل الشاعر الصوفي الجزائري خاصة المعاصر استغلال رمز الأسطورة لنقل تجربته الذوقية يقول **يوسف وغليسي**:

"أُصَارِعُ مَوتي كَمَا زَهْــرَةَ

فِي صِبَاهَا اعْتَرَاهَا الجَفَافْ..

أُنَادِيــــــك "هيلاَنَا"* .. إِنَّنِي أَنْــتَظِــرْ،

وَلَستُ أمَلّ الانْتِظَار!! "[1]

فهيلانا الأسطورة يتخذها الشاعر مطية ليجسد طاقة الانتظار لغد يحمل البشائر، ويؤكد ذلك أكثر قوله "ولست أمل الانتظار" فاغترابه لن يكون سلبيا بل الطاقة الإيجابية الكامنة في أعماقه ستحول اغترابه إلى حضور.

هــ) الشخصيات التراثية :

يتماهى الشاعر الصوفي المعاصر في تجربته الذوقية فتظهر له من خلالهــا شخصــيات دينية وصوفية ، يقول **وغليسي**:

" لَوْ كَانَ دَم " الحَلاَّجِ مِدَاداً" للشَّطّحَاتِ الصُّوفِيَّهْ ..

لَتَخَتَّــــرَ قَبلَ بِدَايَةِ شَطحَاتِي !

لَو كَانَتْ دُمُوعُ أَبِي /يَعْقُوبَ/مِدَاداً للكَلِمَاتِ ولِلحَسَرَاتِ..

لابيَضَّتْ عَينَاهُ ونَفَدَ الدَّمعُ،،وَمَا نَفدتْ كَلِمَاتِي !.

وَأنَا قَدَرِي بَينَ المَاء وبَيْنَ الحَــمــإِ..

قَدَرِي مِن مَنْفَى الحُبِّ وَغَدْر "الأسْبَاطِ"إلى سِجنِ زُلِيخَة.."[2]

فالرموز هنا اتخذت أشكالا مختلفة كما أنها جاءت مكدسة تحمل دلالات متنوعــة، فمن "**الحلاج**" المصلوب بسبب شطحاته ،إلى سيدنا"**يعقوب**"المظلوم من قبل أقرب النّاس إليه وهم أبناءه إلى سجن"**زليخة**" الذي سكنه سيدنا"**يوسف**"ظلما، فكل رمز مــن هــذه الرمــوز

1- المرجع السابق ،ص: 67.
*- هيلانا: أسطورة باكستانية تجسد الطاقة الكامنة في أعماق العقيدة الإسلامية كسلاح ميتافيزيقي لمواجهة كل التحديات.
2- المرجع نفسه، ص:97.

يوصل إلى معاناة مختلفة عند الشاعر، فهو لا يجد ما يعادل به اغترابه ومعاناته،فقد توالت النكبات على هذه الأمة ويضاف كل مرة إلى جرحها جرحا آخر ويختلف مكـــان وزمـــان الجرح ولكنه يقع في القلب، لتجتمع الجراح وتصبح جرح واحد. والشاعر لا يـــتكلم إلا إذا شعر، فإذا ما تألم بحث عن محابره وكتب قصائده.

" **أَيُّوبُ" سَـــــافَـــرَ فِـــي دَمِـــي، لَكِنَّنِي**

أَتَقَيّـــــــأُ الذِّكْـــــرَى، ولَسْــــــتُ بِصَابِـــر!"[1]

الشاعر يستحضر شخصية دينية ليصور اغترابه فلا يجد ما يقرب به صــــورة معاناته إلا النبي" **أيوب**"-عليه السلام- ذلك لأنه عانى من الاغتراب الديني فهو النبي الذي يهدي الناس، ومن الاغتراب الاجتماعي فقد انعزل وأصبح وحيدا لا يقربه أحد إلا امرأته، وعانى من الاغتراب النفسي، فشخصية النبي"**أيوب**" -**عليه السلام**- بكل مـــا تحمـــل مـــن أنواع الاغتراب قد سافرت في دم الشاعر، والدم يسافر في العروق والشرايين ويصل إلـــى كل أنحاء الجسم،إذا فهو كله اغتراب.

"**فَالغُرْبَةُ السَّـــــوْدَاءُ تَنْهَـــــشُ أَضْلُــــعِــــي**

وَتُصَادِرُ الوَرْدَ الجَمِيلَ بِنَاظِـــــرِي ...."[2]

ينتقل الشاعر من المحسوس إلى الملموس، فأصبح اللون واضحا، فهو السواد صـــفة للغربة التي لا تدع مجالا لتحسس الجمال.

و) العناوين : للعنوان مكانه المحفوظ في القصيدة قديمها وحديثها، ففي القديم كثيـــرا مـــا كانت القصائد تسمى بحرف رويها، كالسينية، والنونية وغيرها، أما فـــي الشـــعر الحـــديث

1- المرجع السابق ،ص:36
2- المرجع نفسه: الصفحة نفسها .

والمعاصر فقد أصبح للعنوان دلالته الخاصة وكثيرا ما يكون شفرة توضع أمـــام القـــارئ لحلها.

كما أن العناوين "تلعب دورا هاما في توجيه القارئ والتأثير عليه بتقنيات كتابتهـــا وتمييزها"[1]، فهي خلاصة ما ترمي إليه القصيدة، وربّما قالت ما لم تقله القصيدة نفسها لذلك استغلها الشاعر المعاصر" لتقول أشياء لا يقولها الـــنص ولا هـــي نفســـها لغويـــا، وذلـــك باستحداث تجليات تتأبى على التقعيد والنمطية، وتستغل الجانب الشكلي الطباعي"[2].

وفي مجموعة"**يوسف وغليسي**" (**أوجاع صفصافة في موسم الإعصـــار**) ترســـم الصفصافة على شكل امرأة يهب الإعصار ليقتلعها من تربتها فتمد ذارعيها إلـــى الســـماء وترسم غيمة بمحاذاة شعرها لتحتضن العنوان المكتوب بخط اليد، فيجتمع الرسم مع الخـــط مع كلمات العنوان ، كل واحد منهما يأخذ إلى الآخر في حلقة يقبض بعضها بتلابيب بعض، والمرأة فيها رمز يتخذه المتصوف لنقل تجربته الروحية، و"الرسم أيضا فن بصري تنتجـــه لحظة شبيهة بلحظات التصوف إن لم نقل مماثلة في جوهرها ومكوناتها للتجربة الصـــوفية "[3].والخط متصل هو أيضا بالتصوف " إذ أن المتصوفة أمدوا الخط باجتهاداتهم الذوقيـــة ، التي دارت حول وحدة الحرف التي مثلت قاسما مشتركا بين المتصـــوفة والخطـــاطين "4، فكل من المتصوف والفنان يعيشان لحظة الصفاء التي" مجالها الـــروح ومصـــدرها خـــالق الأرواح، وطبيعتها الارتقاء والسمو، وإدراك الحقائق الجوهرية العميقة الخفية "5. فالشاعر صور اتجاهه في الحياة وربطه بحالته النفسية الاغترابية في عنـــوان مجموعتـــه والتـــي تحوي قصائد بعناوين تصب في نهر الإعصار والوجع والغربة والاغتراب فيبدأها بعنـــوان

1- يحي الشيخ صالح: قراءة في الفضاء الطباعي للنص الشعري الحداثي "الأهمية والجدوى" مقال في مجلة الآداب ، مجلة تصدر عن قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة منتوري قسنطينة ، كلية الآداب واللغة العربية وآدابها ، العدد07 السنة 1425ه، 2004م ، ص: 54

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- محمد عمارة: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، ص: 55.

4- المرجع نفسه، ص: 48

5- المرجع نفسه، ص: 32.

(فاتحة الأوجاع) ، ثم **(بطاقة حزن)** ، ثم **(في سراديب الاغتراب)**،ثـــم **(عائـــد مـــن مـــدن الصقيع)**، ثم **(وقفة على دمنة الحب الموءود)** ، ثم **(نشيج الوداع)**،ثم **(تراتيل حزينة من وحي الغربة)**، ثم **(فجيعة اللقاء)** ، ثم **(موسم الهجرة إلى بغداد)** ، ثـــم **(خيبـــة انتظـــار)**، بعدها **(رحيل اليمام)...** فكل العناوين تتبع من عنوان المجموعة الشعرية، وكلها بخط اليد، وهي أيضا تحمل في ثناياها روح المتصوف المغترب.

كما أن كتابة القصيدة بخط اليد يعطيها بعدا جماليا، وهو أيضا وسيلة للتواصل إذ أن القارئ يحس برعشة يد الشاعر، أو الفنان ومن ثم يشعر بعمق التجربة فيلج إلى داخـــل الحـــروف ويتذوق طعم اللون فيندمج مع الشاعر، ويحس باغترابه حتى لو غابت لفظة اغتراب عـــن القصيدة،ولكن تحظر سيميائيا في لوحة القصيدة.

5- الصورة الشعرية:

إن الشاعر في كل عصوره يحفل بالصور الناقلة لشعوره والمقربة له من متلقيه ، سامعا كان أم قارئا، وإذا كان الإيقاع الموسيقي فارق أساسي بين النثر والشعر فإن هنـــاك ميزة أخرى لا تقل أهمية عن الإيقاع وهي الصورة، " لأن الصورة هي الأداة التـــي يتخـــذ الشعر بواسطتها سبيله إلى التأثير في المتلقي إيحاءا ورمزا " [1] وما كان يبهر النقـــاد فـــي القديم إلا جمال الصور البيانية من تشبيه، واستعارة، وكناية وغيرها لذلك سعى الشاعر إلى تحميل قصائده بهذه الصور فكان يجسد معانيه ويقربها بكل ملموس واضح .

يقول **عفيف الدين التلمساني:**

" كَأَنّ عَـــذَارَى مَن أحِبُّ نَجـــــدهِ   رضَاه وَفِيهِ مِن بَقِيـــةِ صيـــــدِهِ
رَشِيقُ التَثَنِّي رَاشِقُ الجَفْنِ قَاتِلاً   جُيُوشُ الهَوَى مِن تَحْتِ سعفِ قَدِّهِ
يَحْمِلُ عَطْفيـــهِ مُزَالاَت ثقْـــلهَـــا   يكلفُ مِن ثِقلِ الهَـــوَى قَلْب عَبدِهِ

1- محمد ناصر : الشعر الجزائري ، ص:421.

يَمُوجُ غَدِيراً تَحْتَ غُصْنِ قَوَامِــهِ وَثُعبَان ذَاكَ الشَّعْــرِ ظلم لِـــوُرْدِهِ "[1]

تتجسد صورة الحبيب أمام المتلقي دون عناء البحث، فالحبيب غزال رشـــيق التثنـــي وجماله فاتن يزحف جيشا غازيا، سالبا قلب ناظره، ويتراءى الشعر كالثعبان شـــديد السواد كالظلمة. فالتشبيه جعل الصورة واضحة لا ضباب عليها فبقـــدر وضـــوحها يكون جمالها. يقول **عفيف الدين التلمساني**:

"**عَجَباً لِخَدِّكَ وَرْدَة فِي بَانَـــةٍ، وَالوَرْدُ فوْق البَانِ مَا لاَ يُمْكــنُ !**

أَدَنَتْهُ لِي سنةُ الكَرَى فَلَثَمْتُهُ حَتَّى تَبَدَّلَ بِالشَّــفِيقِ السَّوسَــنُ

وَوَدِدْتُ كَوْثَرثَغْرِهِ فَحَسِبتنِـــي فِي جَنَّةٍ مِنْ وَجَــنَتَيْهِ أَسْكـــــنُ

مَا رَاعَنِي إِلاَّ بِلاَلَ الخال مِن خَدِّهِ،فِي صُبْحِ الجَبِينِ يُـــــؤَذنُ"[2]

يبدع "**عفيف الدين التلمساني** "في استعماله للصور البيانية خاصة التشبيه البليغ فيســـاوي ما بين أعضاء من الجسد والطبيعة،فترتسم الصورة واضحة :

اللحظ ------ سيف

والخد ------ وردة

والثغر ------ كوثر

ويفاجئ المتلقي عندما يشبه الخال في الخد ببلال وهو يؤذن في صبح الجبين، فيبث بذلك الحركة والحياة في الصورة أكثر.

1 - عفيف الدين التلمساني: الديوان ، ص :294.
2 - المرجع السابق: ص: 225.

وأغلب شعرائنا في كل عصورهم لم يخرجوا عن التقاليد القديمة للشعر العربي فالصورة "عندهم كانت تتميز ببعض الخصائص، التي لم تساعد على الرقي باللغة الشعرية جماليا وفنيا "[1]فقد بقي اعتمادهم على الأدوات البلاغية مثل التشبيه والاستعارة وغيرها وبقي الشاعر الجزائري الحديث يسير على نفس النهج ف"**محمد العيد آل خليفة**"عند قراءتنا لقصائده نجد أن التشبيه، والاستعارة، والكناية حاضرة بقوة ففي قصيدته "**الليل**" التي يرمز به للمستعمر، يبدأها باستعارة في قوله :

" اللَّيْلُ طُلْتَ جَنَاحَا مَتَى تُرِينِي الصَبَاحَا ؟"

شبه الليل بالطير حذف المشبه به وجاء بأحد لوازمه الجناح وهو وسيلته للطيران ، فكانت استعارة مكنية، وهكذا في البيت الثاني إذ يشبه النعاس بالإنسان ، فيحذف المشبه به ويأتي بأحد لوازمه وهي الإشاحة بالوجه :

"رِى الكَرَى صَدَّ عَنِّي بِوَجْهِهِ وَ أَشَاحَا "

ويستمر على نفس النهج في بقية الأبيات :

أَمْسَى عَلَيَّ حَرَامَا مَا كَانَ مِنْهُ مُبَاحَا

قَدْ ضِقْتُ بِالهَمِّ ذرْعًا وَمَا وَجَدْتُ انْشِرَاحَا

مَلَّتْ فِرَاشِي نَفْسِي وَاسْتَوْحَشَتْ مِنْهُ سَاحَا

كأنَّنِي رَهنُ سِجْنٍ لَمْ أَرْجُ مِنْهُ سَرَاحَا

كَأَنَّ تَحْتِي شَوْكًا يَشُوكُنِي أَوْ رِمَاحَا

1- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ، ص: 427.

أَبِيتُ وَسنَان مُضْــــــنًـــى   أَرْجُــو المُــنَى أَن تُتَــاحَـا

ظَمْآن أَنْشُــدُ مَــــــــــاءً   يَشْفِـــــي الغَلِيل قَـــرَاحَــا

أجِيلُ بِالرأيى فِــكْــــــــرِي   كَمَنْ يُـــجِيــــلُ القِدَاحَـــــــــا"[1]

وتبقى أدوات التشبيه مسيطرة على الصورة "كأني رهين سجن " ،" كـــأنّ تحتـــي شوكا" " كمن يجيل القداح " فأغلب الصور هي مجاز مبني على المشابهة ســـواء فـــي الاستعارة أو في التشبيه بأنواعه . والصورة التي تقوم على التشبيه" تخالف فـــي الغالـــب طبيعة التجربة الشعرية الفنية، لأن التقاط الشبه بين ظاهرتين مختلفتين، يقوم علـــى نهـــج منطقي ينفذ من المقدمات إلى النتائج بالتفكير، والإدراك من دون شعور أو معاناة "[2]وهذا ما يظهر جليا في هذه القصيدة. ونجمل الصور البيانية الواردة في هذه الأبيات فيما يلي:

فالكرى صدّ عني بوجهه ----- استعارة

كأنني رهين سجن --------- تشبيه مجمل

كأن تحتي شوكا ---------- تشبيه مجمل

ظمآن أنشد ماء----------- كناية

أجيل فكري كمن يجيل القداح --- تشبيه مجمل

فالقصيدة مليئة بالصور البيانية، ولكنها كما قال "**محمد ناصر**" في كتابـــه " **الشـــعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية** " أن "من أبرز ما يشد انتباه الـــدارس مـــن خصائص هذه الصور تنفسها في غير البيئة التي يعيش فيها الشاعر"[3]، فأبيات **محمد العيـــد**

1- محمد العيد آل خليفة: الديوان ، ص 45.
2- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص: 438.
3- المرجع نفسه، ص: 428.

آل خليفة لا تختلف في صورها عن أبيات "**عفيف الدين التلمساني**" فكلاهما استوحى صوره من البيئة الصحراوية (الغزال،والثعبان، والطير، الشوك...).

أما الشاعر المعاصر فقد انتقل بالصورة من مجالها البصري الواضح إلى عمقها النفسي الباطن، فأصبحت "الصورة وسيلة للتعبير عن حالة وجدانية نفسية"[1] فمثلا "**أبو القاسم سعد الله**" وهو يتناول نفس الموضوع الذي تناوله "**محمد العيد آل خليفة** " وهو الاستعمار إلا أنه يصوره بطريقة مختلفة، يأخذ صورا من الطبيعة ويحملها شحنات من نفسه فتتحول عنده كل جزئيات المشهد الطبيعي الذي يتناوله بالوصف إلى صورة حية تجسد أفكاره ومشاعره ، ينفخ فيها من روحه فتنبعث ممتلئة بالرؤى والأحاسيس المختلفة.

يقول **أبو القاسم سعد الله** في قصيدته "**حزن** ":

"وَحِيدَتِي

لَن يُسْقِط الخَرِيفُ كلّ زَهرَة ..

مِن دَرْبِنَا الطَّوِيل

لَنْ تَخْنُقَ الرِّيَاح كُلّ نَغْمَة ..

سَكْرانَة بِحُبِّنَا الأَصِيل ،

هُنَاكَ فِي بُسْتَان الحُبِّ نَاي

أَلْحَانُهُ خَضْرَاء مَا تَزَالُ "[2]

1- المرجع السابق، ص: 505.
2 -أبو القاسم سعد الله ، الزمن الأخضر ، ص : 335.

فالعنوان في حد ذاته يعطي القارئ صورة لنفسية الشاعر الذي يحيط به الحزن من كل الجهات، ولكن بمجرد قراءتنا لبداية القصيدة تتفتح أبواب الأمل فهناك :

خريف ----- أزهار

رياح ------ نغم

بستان ----- ألحانه خضراء

إن صورة الخريف وهو يتمسك بأزهاره انعكاس لنفسية الشاعر وهــو يتمســك بالآمـــال الخضراء التي ستملأ بستان حياته بالأفراح .

" الحُزنُ يـَــا وَحِيدَتــــــِي

يَــمْتَـــــصُّ الشَّوْقَ مِن العُيُونِ

يَغتَال رَعْشَةَ القُلُــــوبِ ،

الحُزْنُ يَــا وَحِيدَتِي ظـَـلاَم

نَــجْـــتَــــازُهُ بِلاَ شُمُــوع

عُيُوننَا لَم تَألَف الظَّلاَمَ

لَكِنَّنَا نَجْتَــــازُهُ بِلَا تَعَب

لِأَنَّ فِي الأَعْصَابِ نَار "

ثم ينتقل بعد ذلك في حوار إقناعي بعدم جدوى الحزن ،ويُقِرُّ بأن الحزن ظلام، فكلمة ظلام وما تحمله من صور كانت أخف بكثير مما حمّلته أسطره الشعرية، من صور مكثفــة فقــد

جعلت المتلقي يرى الحزن وحشا يمص الشوق من العيون فيأخذ بريقها، ويغتال الرعشة من القلوب فتنطفئ منها شعلة الحياة، فهو يخنقها رويدا رويدا ثم ينتقل بعد ذلك ليصور الحزن بشكل مختلف:

"الحُزنُ رِحلةٌ هوجاءُ

مُخوفةٌ .. لكِنَّها شهِيَّة السرى

لأَنَّ بَعدَهَا الرَّبِيع والصَّبَاح

وَالنَّاي والغنَاء والقدَاح

وَالفَرحَة نَشوَانَة اللِّقَاء! "[1]

إذا القارئ أمام صورتين:

صورة الوحش القاتل السالب للآمال------ صورة المستعمر

صورة الرحلة المخوفة المليئة بالنشوى ----- صورة طريق الكفاح التي تكلل بالحرية.

إذًا فالصورة هنا مكثفة يجمعها رمز ممتلئ بالخصوبة والنماء وهذا ما أدركه الشاعر المعاصر، فراح يتخذ من الرمز مطية يحمله أفكاره، ومشاعره،لأنه تيقن من أن الرمز لديه " طاقة في أن يفتح أمام الشاعر والقارئ معا فيضا من الإيحاءات لا ينتهي إذا أحسن الشاعر استعماله"[2]. فالصورة الشعرية تصبح مجالا منفتحا يجمع فيه الشاعر كل أحاسيسه الخاصة ليعكسها على مرآة يكون هو في الواجهة، بينما ما يرمي إليه يصبح في الخلفية ظاهر لمن يقرأ له، "بل إن أحاسيس الشاعر تصبح البؤرة الحقيقية التي يتركز

1- المرجع السابق، ص : 336.
2- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص:549.

حولها الوصف، والخلفية الأساسية لكل المشاهد التي يرغب الشاعر في رسمها"[1] والشـاعر "**أبو القاسم سعد الله**" نجح في رسم صورته النفسية الغامقة السواد، فحزنه ظلام يجتازه بلا شموع، في حين نرى فى خلفية الصورة المرسومة، وحش الاستعمار يتراءى عبر طريـق مظلم في نهايته نور وأفراح .

ولكن هذا لا يعني أن كل الشعراء قد نجحوا في توظيف الرمز واستجلاء الصـور، فهناك منهم من يجعلك ترى الصورة مبهمة غير واضحة المعالم، يتعـب نظـرك وأنـت تتخيلها، فهي لا تريد أن ترتسم على لوح الخيال، خاصة تلك التي تسيئ للذات الإلهية.

فحتى لو كانت هذه الألفاظ تحمل دلالات ذات بعد نفسي أو صوفي، فإن الصـورة المجسّدة للفظ الجلالة تجعلها ترفض الانعكاس على الخيال، "إن لجوء الشعراء الشباب إلى مثل هذه الصور لم يطبع بعض هذه الأعمال بالغرابة والإبهام فحسب، بل إنه جعلها أشـبه ما تكون باللامعقول"[2]، فالصورة عندما تكون حاملة لشحنات وتوترات نفس الشاعر تلامس شحنات القارئ المتلقي فتسهل عملية الاندماج والمشاركة ،أما عندما يلف الشاعر صـورته بالغموض فإن أول شيء يواجهه هو اغترابه الإبداعي إذ لا وجود للتواصل مع الآخر.

كما اتخذت الصورة في الشعر الصوفي الجزائري المعاصر دورها فـي تقريـب التجربة الصوفية يقول **وغليسي** :

" مُتَدَيِّنٌ ،، واللهُ يَشْهَدُ لِي !...

لكنَّنِي مُتَثَاقِـــــــلٌ

متشردٌ..متسكعٌ..متســـائلٌ

1- المرجع نفسه، ص: 511.
2- محمد ناصر: الشعر الجزائري ، ص : 547-548.

أنا مُبْحرٌ في يَمِّ أحْزانِي..

وهَذَا اللّغز أشرعتي..،،

مُتَسَائِلٌ - فِي حَيْرةٍ -،

وَالصَّمْـــــــتُ أَجْــــوبَتِي !...."[1]

فالصورة التي ترسم أمام المتلقي صورة توحي بالتردد والتذبذب بين الحضـــور والغيـــاب، بين السلب والإيجاب يريد العالم وفق رؤاه الخاصة فتبوء محاولته بالفشل

يرسم نفس الصورة في أبياته التالية :

"أَطُــوفُ بِــكَعبَة الذِّكْـــرَى	**عَسَــى التِّذكَار يَشفِـيــنِـــي**
يُشَرِّقُنِي.يُــغَرِّبُــــــنِــــي	**يُــبَــاعِــدُنِي.. وَ يُدْنِينِـــي**
غَرِيبٌ فِي دنَى وَطَـــنــِــي	**ولَا أَوْطَــانَ تُؤْوِيــــــنِــي!**
لِمَاذَا الهَــــــــــمّ يَا قَدَرِي؟	**لِمَــاذَا الخَطْب يُضْنِينِــــي؟!"**[2]

فبعد التردد يأتي الإقرار بالاغتراب صورة ترافق كـــل قصـــائد ديـــوان **يوســف وغليسي "أوجاع صفصافة في موسم الإعصار** " فالشاعر وهو يعبر عن اغترابه يصـــور معاناة الإنسان العربي الذي يعيش بين البينين ،فلا هو ثائر لكرامته ،ولا هو مستسلم لموته.

ومنه نجد أن الشاعر الجزائري المعاصر استفاد من التراث ،وأبدع فـــي إنتاجـــه الفني وظهرت شخصيته الخاصة من خلال ألفاظ،ورموز، وصور تجســد اغترابـــه الـــذي تجاوز حدود نفسه ليلامس جرح الوطن والأمة .

1-يوسف وغليسي: أوجاع صفصافة ، ص:32-33.
2- المرجع السابق، ص:18.

فديوان **يوسف وغليسي "أوجاع صفصافة** " هو رحلة ذوقية يعيشها الشاعر مع كل قصيدة من قصائد هذا الديوان وإن كانت ألفاظ الغربـــة، والاغتـــراب، والحـــزن، والألـــم لا تغيب عنه إلا أنه يبقى الأمل،والإيمان، والطموح إلى صفاء الروح.

- **قراءة في ديوان (أوجاع صفصافة في موسم الإعصار) لــ " يوسف وغليسي":**

أول ما يلفت انتباه القارئ في هذا الديوان هو هذه اللوحات الفنيـــة المتعانقـــة مـــع الكلمات الصوفية فقد اجتمع الفن مع التصوف فخلق إبداعا وسموا في الذوق " الفن صـــنو التصوف، والفنان شبيه المتصوف ، والحالة التي تجمع بينهما واحدة لأن مجالهـــا الـــروح ومصدرها خالق الأرواح، وطبيعتها الارتقاء والسمو وإدراك الحقائق الجوهريـــة العميقـــة الخفية "[1].

و دائما يعتمد **وغليســـي** على ريشة الفنان ربما لأنه يبحث عن مرافق ليعايش معـــه تجربة الاغتراب ويجعل لاغترابه سراديب بالجمع فهو يمضي من سرداب إلى ســـرداب، وكما لا يخفى علينا أن السرداب يفتقر إلى النور ، فالشاعر يبحث عن النور عن الحقيقـــة إلى الانتقال من مقام إلى مقام إلا أنه لا يزال مرتبط بالأرض لأن الوجع والألم أرضي.

ويبدأ قلم الناثر ينثر حلمه ويغيب الشاعر لبرهة وكأن الشعر ضاقت أســـطره فلـــم يعـــد يستطيع رسم الحلم وتُرك فقط ليحمل الآلام والأحزان، والشاعر يجعل لنفسه قلعة محصنة في جزيرته الخاصة فالأنا حاضرة بقوه وكأنه لا وجود للأخر فهو لا ينتمـــي إلـــى هـــذا العالم ، فهو غريب عنه .

فقصيدة **يوسف وغليسي " تَرَاتِيلٌ حَزِينَة مِن وَحْيِ الغُرْبَة".**

1- محمد بن عمارة: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص: 32.

عنوان يهيئ القارئ لما بعد العنوان، ثم يصدر القصيدة بالإهداء: هو مشـــاركة وجدانيـــة، واعتراف بالجميل

ثم عنوان جانبي: "**مَدْخَلٌ لِلْغُرْبَةِ** "

"إنِّي أَتَيتُكِ يَـــــا سَمْرَاءُ ظَمأنا

لأَشْرَبَ الشِّعْرَ مِن عَينَيْكِ ودِيَانَا

وَجِئتُكِ اليَومَ بالآلامِ مكتحِلاً

والقَلبُ يَتلُو بَيَان البَيْن حَيْرَانـــا

نَادَيْتُ..آهٍ وَدَمْع الصَّمت يَجْرِفُنِي

والشَّوْق يَطْلِي شِغَافَ القَلْبِ أَشْجَاناَ"[1]

جاء ليرتوي فهو يشكو العطش إلى المعرفة التي تتطلب الحيرة و الألم والسهاد والصـــمت ينادي.. آه، من الحرقة يبحث عن متنفس لألمه كل هذه مداخل للغربة وما يجعله يتخطاهـــا هو الشوق يحرك قلوب العاشقين.

" زَرَعْتُ بذْرةَ حُبِّــي فِي حَدِيقـــــتِهَـــــا

لأَحْصُد الحُبّ أَشْوَاكــــاً وأَكْنَافَـــــا

خطى السُّؤالاَت قَـــــدْ غَـــــصَّت بِهَا طُرُقِـــــي

حَتَّى نقِشت هُنــــاَ للتِّيهِ عُــنْوَانَـــا !

1- يوسف وغليسي: أوجاع صفصافة، ص:31.

"خَليصَتي" اليَومَ مَـــــا عَـــــادَتْ تُهَدْهِدُنِي

وَلاَ الهَوَى عَادَ لي وَكْراً كمَا كَانَـــــا...!"[1]

فهو يزرع المحبة في حديقة المعرفة ولكن لا يحصد إلا التساؤل لذلك يغترب ،ويتيه عن نفسه ،وتغيب عنه الطمأنينة، ويبتعد عن هوى الدنيا، لقد زرع بدلا عنه الحب وهذا مايجعله غريبا في الدنيا، يعانى تعب التدرج في المقامات.

" غُرْبَةٌ وَتَعَب "

يعطف التعب على الغربة، يبدأ من جديد بعدما مر على المدخل هناك، فقد أوغل في الاغتراب فزاد ألمه أكثر.

" أَلَـــمٌ يَشُـــبُّ بِـــمُهْـــجَتِـــي "

وكأن هذا الألم حريق يلتهب داخل نفسه فيصيرها رمادا تحته جمر لا يشعر بحرقته إلا هو لوحده " الألم وحده هو الذي يتيح لنا الفرصة لأن نعاني(تجربة الوحدة) على حقيقتها فالإنسان الذي يتألم يميل دائما إلى الانعزال عن الناس ، لأن من شأن الألم أن يشعره بحدوده ، وأن يحبسه داخل تلك الحدود"2 فلا يستطيع التواصل بحرية مع الآخر لأن الوجع الداخلى يقيده.

"دَمْعٌ يُعانِقُ مُقلَتِي"

كلمة عناق تدل على الاحتواء إذن الدمع يحتوي مقلته فهو يغمرها حتى أنه لا يترك لها مجالا للرؤية الواضحة .

1- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
2- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار الوفاء الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، د ط ، 1999، ص: 103.

" **وَأنَا غَرِيبٌ كَاغْتَرَابِ الدِّين فِي هَذِي المَدينَهْ**.."

ينعت نفسه بالغريب، ولكن أية غربة ؟ لم يحدد سوى أنه جاء بتشبيه، يشبه غربة هذا الدين في هذي المدينة.

أهي غربة المكان؟ إذ أنه يعاني في مكان ليس فيه من يدين بدينه، أم أنها غربة النفس بين أهلها كغربة الدين بين أهله؟

هناك مد على الهاء (هاذه) الهاء : للتنبيه، وكأنه ينبهنا قبل أن يشير للمدينة

ها ذه : يمتد تصاعديا إلى الأعلى ثم يعود مع مد أفقي ليصل بنا إلى المدينة.

فالقارئ أو المتلقي أينما كان فإنه يرى هذه المدينة مدينته هو، وهذا ما يجعل القارئ يشارك الشاعر اغترابه.

" **أَوْ كَاغترَابِ الحُبّ فِي مُدنِ الفَضِيلَهْ** "

أو للتخيير ولكنها تدل هنا على الحيرة التي تسكن أعماق الشاعر فيصعب عليه الاختيار.

" **كَاغْتِرَابِ الحُبّ فِي مُدُنِ الفَضِيلَه** "

كيف يغيب الحب في مدن الفضيلة وهي مبنية على الحب، ويعطف الجملة هنا على جملة أخرى" **و كَنَحْلَةٍ فِي رَوْضَةٍ** "

النحلة لا تجد راحتها إلا في الروضة، إلا إذا كانت هذه الروضة خاوية على عروشها وهنا لا تسمى روضة.

فالشاعر في قصيدته يجمع بين المتناقضات.

" رَحَلَ الفُؤَادُ مِنَ الفُؤَادِ إِلَى الفُؤَادِ "

الرحلة كانت مقدمة، والرحلة لم تتجاوز الذات فهي رحلت من وإلى نفس المكـــان تعـــود إلى نقطة البداية ، فهو في نقطة المركز، وكأنه يدور في مكانه.

الدائرة لها قدسيتها وهي تعني المشاركة، فالذكر لا يكون إلا في دائرة، وهو تمركز حـــول ذاته لذلك لم يجن إلا السهاد.

" وَ أَنَا غرِيبْ فِي وِحْدَتِـــي

أنـــا وحيدْ فِـــــي غُرْبَتِي "

وَحِيدْ ، غَرِيبْ نجد الشاعر يفضل الوقوف على السكون فهو يريد الوقوف على المركـــز حيث الحقيقة.

كما نلاحظ سكون الباء فيه إطباق للشفتين ، ولكن سكون ينتظر لحظة الانطلاق، فالغربـــة كانت في الوحدة وهو منعزل دليل على عدم وجود التصالح مع الذات، ولكن الأمـــر غيـــر دائم فهو في انتظار الفرج .

" أنـــــا وحـــــيدْ فِـــــي غُرْبَتِـــــــــــي "

سكون الدال فيه انفراج للشفتين ولكن لا تنفرج بقية الأعضاء فهو مطوق بالغربة، متعـــب من التسكع والنصب، تعبت حياته من حياة بلا وجهة محددة، تعب فؤاده من التعب.

" تَعِبَتْ خُطَايَ مِن التَسَّكُعِ وَ النُّصُبْ

تَعِبَ الفُؤَادُ مِن الوَصَبْ ..

تَعبَتْ حيَاتي من حَيَاتي يَا حيَاتي

تَعبَ الفُؤَادُ مِن التَّعَبْ!... ."

نلاحظ هنا استعمال لفظة الفؤاد بدل القلب.

" أَعَاشِقٌ..وَشَوَارِعُ العُشَّاق تُنْكِرُنِي "

هو عاشق من نوع آخر، وهو يعانى اللاّ انتماء، فربما لا يزال في صراع مع نفسه ، لم يتخلص من أناه بعد،لأن في العشق يذوب الأنا وتذوب الفواصل.

لا يقول منفردا، بل يقول متفرد بالليل ، وكأن لا أحد يشاركه في هذا الليل .

"مَوتٌ وحيَاةٌ "

عنوان آخر يجتمع فيه الرّسام والشّاعر فيبدعا، وتكون حياة المتصوف مع موت الشهوات.

الآنَ، شَيَّعَتِ الحُرُوف جَنَازَتِي !..

وَمَضَت تُعَانِق جثَّتِي،

كالسِّنِدبَاد ،

فأَنَا أَمُوتُ، نَعَمْ ،

وكَالْعَنْقَاءِ أُبْعَثُ مِن رَمَاد!... .

بعدما دخل الغربة وعانى منها وذاق طعمها آن له الأوان أن يتجاوز الجسد الفاني فقد شيع ما يحجبه عن الحب .

ثم يعود من جديد ليوظف الأسطورة فيشبه حاله بالسند باد حتى يقرب الصورة.فتمثل أمام عين القارئ رحلة السندباد وما تحمله من تعب ، وأمل ،ومغامرة .

فتوظيف الأسطورة يبعث الشخصية من جديد،فيتقبل المتلقي الحدث دون اعتراض. فالباب أصبح مفتوحا ليدخل منه فيعيش التجربة، وذوق المعرفة.

وبعد الغربة والتعب يتجاوز إلى الموت ليصل إلى الحياة وتنتهي به الرحلة إلى مقام آخر.

تَسَاؤُلٌ وَحَنِين

أَخَلِيـــــــصَتِـــــــــــي!

هُـــــزِّي بِجِذعِ الحبِّ ، تَسْقُطْ ثمرةٌ ..

فبعد غرس الحب يأتي جني الثمار وهذا الذي يطلبه العارف، علامة التعجب، دليل علـــى اغتراب الشاعر فهو تسكنه الدّهشة وبالتالي ينقصه الاستقرار الذي يجعل الاغتراب يغيــب ويبتعد عن دروبه.

الفاصلة تدل على الانتقال، أما النقطتين المتتابعتين دلالة على المرحلتين فلا يزال هناك التساؤل وما يزال هناك حنين.

أَخَلِيصَتِي ! أَخلِيصتِي ! أَخلِيصتِي !...

ينادي للخلاص ويستمر النداء إلى ما لانهاية، لأنه لانهاية للحب.

آهٍ ! ويـــــــــــَــــــرْسُمُنِــــــــــــــــــــي النِّدَاء سَحَابَةً

بِالدَّمْـــعِ طَافِحَـــــــةً ،،

بِالحُـــزْنِ مُتْرَعَـــــةً ،،

ارتفع وصار سحابة، عادة ما يأتي السحاب بالمطر، بالغيـــث، بـــالخير العمـــيم و بالثمر، وهو جاءه الارتقاء بدموع الندم والحزن على ما فات،فقد كان في غربة وصار فـــي اغتراب . فقد تجاوز المكان ، وانتقل إلى الروح .

أَغداً تُسافـــــرُ دَهشَتِي ؟!

أَغدًا تَعُـــــود بَرَاءَتِي ؟!

أَغَدًا تَعــــــُـودُ خَليصَتِي ؟!

أَغَدًا تَعــــــُــــــودْ ؟!

أَغَداً تَعُـــــــــــــودْ؟!

أَغَدًا تَعُـــــــــــــودْ ؟!

ويترك الشاعر اغترابه السلبي ويرتقي إلى اغتراب إيجابي، فهو يترك اليأس ويتعلق بالأمل ينتظر أن تعود له الطمأنينة ،بعد أن يُغسل من خطاياه ، فيعود إلى براءته .

- **الأفعال:**

يتعانق الماضي مع المضارع ، فلا تكاد تجد فعلا ماض حتى يتلوه آخر مضارع :

جئت / يتلو

ناديت / يطلى

زرعت/ أحصد

فهو بين الماضي والحاضر، يتجاوزهما إلى الأمر " هزي " والأمر: طلب من الأعلى إلـــى الأدنى / فالشاعر أصبحت له طاقة جعلته يريد الذوق

- **الجمل:**

تتعانق الجمل الفعلية مع الجمل الاسمية لتنتج في النهاية جمل استفهامية

أَغداً تُسَافِر دَهشَتِي؟!

أَغداً تَعودُ برَاءَتِي ؟!

أَغَداً تَعُودُ خَلِيصَتِي ؟!

فالشاعر يبحث عن الخلاص من الاغتراب الذي لف روحه، ولقد حوّل "**يوسف وغليســي**" الشعور بالإحباط، واليأس الذي يخيم على سمائه إلى إبداع تجلت فيــه التجربــة الشــعرية موشحة بالتصوف الخاص بالبيئة الجزائرية. فكان لظاهرة الاغتراب في الشعر الجزائــري انعكاس إيجابي ، إذ خلق روحا جديدة ومتطورة عبر الزمن، فهو لم ينغلق، بل كان الــنّص ملامسا لأوجاع الروح وتطلعاتها إلى السّلام .

خاتمـــــــة

بعد دراستنا المتواضعة لظاهرة (**الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري**) بدأنا بضبط المصطلح، ثم تطرقنا إلى صلب الموضوع حيث جمعنا نماذج مختلفة مـــن الشـــعر الصوفي الجزائري، وتتبعنا ظاهرة الاغتراب فيها.

ووجدنا أن الاغتراب في اللغة يعني الذهاب والتنحي، أما في الاصطلاح فالمعنى حســب كل مجال من المجالات.

ففي المجال الديني : كان يعني انفصال الإنسان عن موطنه الأصلي وهو الجنة .

ولقد تنوعت الغربة في الإسلام فكانت:

- غربة محمودة: وهي غربة المؤمن بين الكفار.
- وغربة مذمومة: وهي غربة الكافر بين المؤمنين
- وغربة لا ممدوحة ولا مذمومة: وهي غربة المكان.

ثم عرجنا على مفهوم الاغتراب عند الفلاسفة مثل "ماركس" ، "هيجل" ثم أنهينـــا الجولـــة بوقفة مع الاغتراب في الشعر العربي ، وخرجنا بنتيجة مفادها:

أن لا فرق بين الغربة والاغتراب في اللغة بينما في المصطلح: تحافظ الغربة على معناها فهي تمس المكان ، أما الاغتراب فإنه يتعلق بالنفس لذلك تتعدد مفاهيمه .

كما وجدنا من خلال دراستنا للشعر الجزائري أنواعا مختلفة من الاغتراب فحاولنا دراسة الاغتراب من الناحية النفسية والاجتماعية فكان اغتـــراب الشـــاعر الصـــوفي الجزائـــري اغترابا ايجابيا على العموم .

فلم يكن اكتئابا، ولم يكن استلابا، ولم يكن لا انتماء إنما هو شاعر اغتربت روحه مع اغتراب الدين في هذا الزمن ، فسكن الاغتراب شعره .

الاغتراب الديني: أما الاغتراب الديني فتجلى في الحملات التنصيرية التي استهدفت الفرد الجزائري أيام الاستعمار الفرنسي ، والتي واجهها الشاعر الجزائري بتمسكه بدينه والدفاع عن عقيدته، وكانت وسيلته في ذلك الحرف العربي،شحنه بطاقاته المتفجرة فألهبت الهمم الخامدة ،وأيقظت القلوب الغافلة، فتفجرت ثورة التحرير وجاءت بالنصر المبين. وحينها برزت آثار التغريب فأصبح المبدع الجزائري يشكو اغتراب دينه في بلده ويستشرف المستقبل، ويحذر من خطر الاستلاب.

أما **الاغتراب العرفاني**: فوجدنا أن الشاعر الجزائري قد شرب من ينابيع التراث الصوفي ونقل تجربته الذوقية مصبوغة بطابع جزائري خاص مميز يحمل في طياته هموم بلده وأمته ،فلم ينعزل ، ولم ينطوي على ذاته بل نطق ، وكتب ، وأبدع .

أما **الاغتراب الإبداعي**: فكان في هذا النمط الجديد في الكتابة إذ أصبح النص مشاركة بين أقطاب ثلاثة الشاعر، والرسام، والمتلقي، وكل يقرأ النص بطريقته ويسقط عليه تجربته.

كما وجد الشاعر الجزائري في التصوف بغيته في الانطلاق، فقد استثمر إمكانيات اللغة الصوفية الرمزية في التعبير عن اغترابا ته المتنوعة عندما عجزت اللغة العادية عن ذلك.

فاستخدم الرمز ونوّع فيه، ومن أبرز الرموز :رمز المرأة وكان لاسم ليلى حضوره اللافت للانتباه، كما وظف رمز الخمرة فاتخذها مطية للتعبير عن همومه وهموم أمته المشتتة، كما استحضر الشخصيات الصوفية من أمثال الحلاج وغيره وشحنها بالدلالات، ولا يمكن إغفال جانب الشطح الذي يتلفظ به الشاعر فيلف قصيدته بالغموض الذي يقف حاجزا بين المبدع والمتلقي.

وأخيرا نأمل أن نكون قد لامسنا ظاهرة الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائــري ، و لا يزال الموضوع في رأينا يحتاج إلى بحث أوسع وأعمق.

مكتبة البحث

1) **القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.**

2) **صحيح البخاري** : محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري ، الجزء الثالث ، ضبطه مصطفى ديب البغا، نشر مشترك: مورفم للنشر الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة ، د ط ، د ت.

I. المعاجم والموسوعات :

3) ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، الجزء الخامس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط:02 ،سنة: 1981.

4) أبو القاسم محمد بن عمر جار الله الزمخشري، أساس البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط: 1.

5) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، المجلد الثالث، ض- ق، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط: 1 ، سنة: 2003.

6) اندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد الأول ،A-G، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان، ط:02، 2001.

7) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الإرشاد، حمص سورية، ط: 1، 1989م.

8) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد الثالث، د ط، 1993.

9) J OXFORD STUDY ,ACADEMI DICTIONARY, ENGLISH-ARABIC .

II. المصادر:

10) أبوالقاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ديوان شعر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،دط ، سنة 1985.

11) أحمد بن مصطفى العلاوي، الديوان ، االمطبعة العلاوية بمستغانم ، الجزائر ، الطبعة الخامسة، دون تاريخ.

12) العهد الجديد ، أعمال الرسل ، رسالة بولس إلى غلاطية.

13) العهد القديم ،سفر المزامير ،المزمور المائة والتاسع عشر .

14) جمال زكري بدة، تجليات صوفيه، نشر الجاحظية ، الجزائر ، د ط، د ت.

15) سعيد علي محمد ، روح المقام ، ديوان شعر ، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات و الخدمات التعليمية، الجزائر ، د ط ، د ت.

16) عبد العالي رزاقي ، نماذج الشعر الجزائري المعاصر، شعر ما بعد الاستقلال، سلسلة أدبية تصدرها مجلة آمال)الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، سنة : 1982 .

17) عبد القادر الجزائري ،الديوان ، تحقيق زكريا صيام ، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للطباعة ، الجزائر ،د ط ، د ت

18) عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث الجزء الأول ،الشعر الديني الصوفي ، دار الكتاب العربي ،دون طبعة ، دون تاريخ.

19) عدة بن تونس، الديوان ، المطبعة العلاوية بمستغانم ، الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ.

20) عفيف الدين أبي الربيع التلمساني ، الديوان ، حققه وقدم له وعلق عليه : العربي دحو ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، د ط ، د ت.

21) محمد البوزيدي ، الديوان ، المطبعة العلاوية بمستغانم ،ط:4، دون تاريخ،دون طبعة ، ص :142.

22) محمد العيد آل خليفة، الديوان ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، ط:3 ، د ت.
23) محمد بلقاسم خمار، بين وطن الغربة وهوية الاغتراب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، د ط، سنة : 2004.
24) محمد بن صالح ناصر، ألحان وأشجان ، جمعية التراث – القرارة غرداية ، الجزائر ، د ط ، د ت .
25) مصطفى دحية ، اصطلاح الوهم ،منشورات الجمعية الوطنية للمبدعين ، د ط ، سنة : 1993
26) مصطفى دحية ، بلاغات الماء ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ط: 1 ،2002 .
27) . مصطفى الغماري، أسرار الغربة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر،ط:2، 1982
28) مصطفى الغماري ، قراءة في أية السيف ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د ط ، سنة :1983.
29) مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د ط ، سنة : 1983.
30) يوسف وغليسي، أوجاع صفصافة في موسم الإعصار ، المجموعة الشعرية الأولى (1989-1994) ،دار إبداع ، ط:1 ، دون تاريخ .

III. المراجع :

31) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، 1500-1830، دار البصائر، الجزائر، ط:6 ،2009

32) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف ،دار الكتاب العربي بيروت،د.ط ، د.ت.
33) أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق :عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويتية، دار العلم، بيروت، 1981.
34) أبو حامد محمد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين ، دار النهضة بيروت لبنان، دون طبعة ، دون تاريخ.
35) أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي: العزلة ، المحقق: ياسين محمد السواس، دار بن كثير، بيروت، لبنان، ط:02، 1990.
36) أحمد بن حنبل، مسند الإمام احمد، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص
37) أحمد بن عبد الله ابن زيدون ، ديوان ابن زيدون، تحقيق : الطيب عشاس ، جعفر ماجد، د ط ، الشركة التونسية للتوزيع
38) أحمد بن نعمان، هذه هي الثقافة ، شركة دار الأمة ،ط: 1 ، د ت
39) أدونيس ، الثابت والمتحول ، دار العودة، بيروت ، لبنان، ط:02، 1979.
40) أمين يوسف عوده، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي ، الأردن ، ط: 2، سنة : 2008
41) أمينة بلعلى ، تحليل الخطاب الصوفي ، في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، منشورات الاختلاف، ط: 1 ، سنة : 2002، ص :70
42) إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،د ط،1991
43) ابن القيم الجوزية ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، القاهرة ، د ط ، 1999.

44) ابن ماجه محمد بن زيد القزويني، سنن ابن ماجة، ج02،تحقيق :ياسر رمضان ، محمد عبدالله ، دار بن الهيثم ، القاهرة ،مصر ، ط: 01، سنة ،2005.
45) ابن مريم بن أحمد محمد الشريف الملتي المديوني التلمسلني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، راجعه : محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، د ط ، سنة 1908.
46) إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، 2 صفر ربيع الأول 1398هـ-فبراير شباط 1978.ص113.
47) اسكندر نبيل رمزي ،الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، د ط، سنة : 1988.
48) امرؤ القيس حندج بن جحر،ديوان امرؤ ألقيس ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ضبطه وصححه : مصطفى عبد الشافي ، د ط ، د ت.
49) الطاهر بونابي ، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7 الهجريين -12و13 الميلاديين ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، دون طبعة، دون تاريخ.
50) الطوسي أبو نصر عبد الله بن علي السراج ، اللمع في التصوف، شركة القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1، 2008.
51) برهان غليون، مجتمع النخبة ، دراسات الفكر العربي ، معهد الإنماء العربي، بيروت ، لبنان ، ط:1 ، سنة : 1986.
52) بنعمارة محمد ، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، شركة النشر والتوزيع ، المدارس ، الدار البيضاء ، د ط ، د ت .
53) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ، ديوان جرير، تحقيق رمزي مكاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط:1، سنة 1429هـ.

54) جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر ، تفسير الجلالين ، دار الإمام مالك ، الجزائر

55) حسن فتح الباب، شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والأفاق، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط ، 1987.

56) حسن محمد حسن حماد ة، الاغتراب عند اريك فروم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط: 1 ، سنة : 1995 .

57) رجا ءعيد، التجديد الموسيقي في الشعر العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د ط ، د ت.

58) ركن الدين محمد ابن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحيقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل،كولونيا، ألمانيا، ط01 ، 1998.

59) زهير بن أبي سلمى ، الديوان ،دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت

60) سناء خضر، النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الإسكندرية ،مصر ، د ط ،1999.

61) شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر دط،1985.

62) شمس الدين أبي عبد الله بن القيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين ، تحقيق : عبد الكريم الفضيلي ، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، د ط ، سنة 2003 .

63) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات – الجزائر ، المغرب الأقصى ، موريتانيا- دار المعارف ، ط:1 ،د ت.

64) صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، سنة1986 .

65) طه عبد القادر فرج، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط:01، 1994 .
66) عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، ط: 3 ، سنة:1983.
67) عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض، الكندي للنشر والتوزيع، دار الأندلس للشعر والتوزيع، ط:01 ، 1994 .
68) عباس بن يحي، وعي الذات فرص ضائعة وافق مفتوح، حول الهوية في الشعر الجزائري الحديث .
69) عباس محمد عوض، الموجز في الصحة النفسية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، د ط ،سنة 1989.
70) عبد الحكيم العفيفي ، الاكتئاب والانتحار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط:01، 1990.
71) عبد الحميد بن باديس، آثاره ،المجلد الثالث، الشركة الجزائرية للنشر،ط:03، 1997.
72) عبد الحميد خزار، فلسفة الزواج في الإسلام، دار الشهاب باتنة ، الجزائر ، د ط ، د ت ، ص: 84 .
73) عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900) المؤسسة الوطنية للكتاب ، د ط ، سنة 1984.
74) عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر، بيروت لبنان ، د ط ، 2004.
75) عبدالرحمن محمد عيسوي، نظريات الشخصية ، دار المعرفة ،مصر ، د ط ،سنة : 2002.
76) عبد الرحمن وافي، مدخل إلى علم النفس، دار هومة . الجزائر، د ط ، 2006.

77) عبد العالي الجسماني ،موسوعة علم النفس، الدار العربية للعلوم، لبنان، بيروت، ط: 1، سنة 1994.
78) عبد القادر الحسيني الجزائري، المواقف، حققه عبد الباقي مفتاح، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1، سنة:2005.
79) عبد الله الركيبي ، دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث ، تقديم : صالح جودت، دار الكتاب العربي ، د ط ، د ت.
80) عبد الله الركيبي ، الشعر الديني الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط:1، سنة:1981.
81) عبد الملك مرتاض، ا – ي دراسة سيميائة تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي " لمحمد العيد آل خليفة ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،د ط، د ت.
82) عبد المالك مرتاض ، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين ، دار هومة ،الجزائر، د:ط، د: ت .
83) عبد المنعم حنفي، الموسوعة الصوفية ، أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد ، ط : 1، سنة 1992 .
84) عبد الواحد بن عاشر، متن ابن عاشر في مذهب مالك رضي الله عنه ، المطبعة الثعالبية، ردوسي قدور بن مراد، الجزائر، د ط، سنة 1343هـ .
85) عزت حجازي ، الشباب العربي و مشكلاته ، علم المعرفة ، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، فبراير، 1985 .
86) علي حرب ، حديث النهايات فتوحات العولمة و مآزق الهوية ،ط: 02 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ، سنة : 2004.
87) علي فهمي السيد ، علم النفس الإبداعي، السمات النفسية للعالم و الأديب، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، مصر، د ط ، سنة: 2009.

88) عمر بوقرورة ،الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962) ،منشورات جامعة باتنة ،د ط ، د ت.
89) فاخر عاقل ، علم النفس ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط:8، سنة : 1982 .
90) فاطمة طحطح ، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ، ط: 1 ، سنة :1993 .
91) فاطمة محمد حميد السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، مكتبة مدبولي ، مصر ، ط : 1، سنة : 1997 .
92) قاسم بن صلاح الدين الخاني،السير والسلوك إلى ملك الملوك ، دراسة وتحقيق سعيد عبد الفتاح ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط : 1 ، سنة : 2002 .
93) مجدي أحمد عبد الله ، علم النفس المرضي، دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، د ط ، سنة 2000 .
94) محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس ، الإمام عبد الحميد بن باديس ، مطابع دار لبعث ، قسنطينة ، الجزائر ، د ط ، سنة : 1968.محمد العيد آل خليفة ، الديوان ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.
95) محمد الطيب العلوي، التربية بين الأصالة والتغريب، منشورات دحلب، الجزائر، دط، د ت.
96) محمد بن رمضان شاوش ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي (200هـ -296هـ) ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط:2 ، دون تاريخ.
97) محمد بن صالح ناصر ، ألحان وأشجان ، المطبعة العربة ، غرداية ،الجزائر، د ط، سنة :1995.
98) محمد بن محمد بن مبارك الفتحي المراكشي ، شرح ابن عاشر المسمى بالحبل المتين على نظم ، دار الهدى ، عين مليلة الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ.

99) محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي (مرحلة الرواد) دراسة، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، سنة :1999

100) محمد سيد محمد، الغزو الثقافي و المجتمع العربي المعاصر، ط: 1، سنة ، 1994،دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

101) محمد صابر عبيد ، مرايا التخيل الشعري ، عالم الكتاب الحديث ، عمان، الأردن، د ط ، 2006.

102) محمد علي الصّلاّبي: الدولة العثمانية عوامل النهوض والسّقوط ، دار المعرفة ،لبنان، ط:5، سنة :2008.

103) محمد ناصر بوحجام، أثر القران في الشعر الجزائري الحديث (1925 – 1976)الجزء الأول، ط:1 ، المطبعة العربية ، غرداية، الجزائر.

104) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، التاريخ المعاصر، بلاد المغرب، المكتب الإسلامي ، ط:2، سنة : 1996.

105) محمود قاسم ، عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ،دار المعارف، بيروت، لبنان.

106) محي الدين ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د ط ، سنة : 1981.

107) محي الدين بن عربي : الفتوحات المكية ، ج 2 ، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط01، 2006.

108) مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل) ، دراسة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، سوريا .

109) مختار علي أبو غالي ، المدينة في الشعر العربي المعاصر ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،سنة 1990،د ط .

110) مصطفى السعدني ، التغريب في الشعر العربي المعاصر بين التجريب والمغامرة ، قراءة في النص ، منشاة المعارف بالإسكندرية ،د ط، د ت .

111) نازك الملائكة، قضايا الشعر العربي المعاصر، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط:4 ، 1962 .

112) ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975) ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط:2 ، سنة : 2006.

113) نبيل رمزي اسكندر، الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د ط ، 1988.

114) يحي الشيخ صالح ، شعر الثورة عند مفدي زكرياء ، دراسة فنية تحليلية ، دار البعث، قسنطينة ، ط:1، 1987.

115) يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة ، د ط ،د ت.

116) يوسف مراد ، مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، مصر ، ط: 6، د ت .

IV. المراجع المترجمة:

117) إريك فروم ،الإنسان بين الجوهر والمظهر ،ترجمة : سعد زهران ، عالم المعرفة ، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون و الأدب ، الكويت ، أغسطس 1980.

118) إريك فروم ، ما وراء الأوهام ، ترجمة :صلاح حاتم ، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية سورية ، ط: 1 ، سنة 1994.

119) برونو إتيين ، الأمير عبد القادر الجزائري ، ترجمة : ميشيل خوري ، دار عطية للنشر بيروت ، لبنان ، ط:1 ، سنة : 1997

120) ريتشارد شاخت ، الاغتراب ، ترجمة : كامل يوسف حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط:1 ، سنة : 1980.

121) كولين ويلسون ، الشعر والصوفية ،دار الآداب بيروت ، نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة الطبعة الثانية سنة1979،ص193.

122) كولين ويلسون ، اللامنتمي ، ترجمة :أنيس زكي حسن ، دار الآداب بيروت ،ط: 3 ، سنة،1982.

123) هنري برجسون، الأعمال الفلسفية الكاملة، منبعا الدين والأخلاق، ترجمة: سامي المدروبي، عبد الله الدائم، الهيئة العامة للتأليف والنشر، 1971.

IV. المجلات والدوريات :

124) أزراج عمر، هكذا أهان بومدين مفدي زكرياء ، مقال في جريدة الشروق اليومي ،20من ذي القعدة 1432/ 18-10-11، العدد 3448.

125) رجاء النقاش، تأملات في محنة شاعر انتهى منتحرا ، مقال في مجلة الدوحة ، السنة السادسة العدد61، يناير 1981..

126) عبد المالك ضيف، خطاب الانتماء في النص الشعري الجزائري المعاصر، دفاتر الشعرية الجزائرية ، جامعة المسيلة ، العدد الأول ، مارس ، 2009 .

127) علي وطفة ، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية ، بحث في إشكالية القمع التربوي ، مجلة عالم الفكر ،الكويت، مج27، ع2 ، أكتوبر – ديسمبر 1991.

128) فتح الله خليف ، الاغتراب في الإسلام، مجلة عالم الفكر،الكويت،مج10 ، ع1979،1.

129) قيس النوري، الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا ،عالم الفكر،الكويت ،مج10،ع1، (أبريل ، مايو 1979) .

130) محمد أحمد المهنا ، الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة القصيدة العربية المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلد 19، العدد- 3، أكتوبر- ، 1988.

131) محمد مدان ،المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية قسم علم الاجتماع ، جامعة أبي بكر بلقا يد تلمسان ، مجلة أنتروبولوجيا الأديان ، أعمال مخبر أنتروبولوجيا الأديان ، العدد التاسع، يناير 2011.

132) محمد ناصر، الآيات الشيطانية بين رفت الغرب وعبث العرب ، قصيدة شعرية ، الشعب الثقافي ، العدد: 7950، 06 ابريل 1989.

133) يحي الشيخ صالح ، قراءة في الفضاء ألطباعي للنص الشعري الحداثي" الأهمية والجدوى "مقال في مجلة الآداب ، مجلة تصدر عن قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة منتوري قسنطينة ، كلية الآداب واللغة العربية وآدابها، العدد07 السنة 1425ه، 2004م .

V. الرسائل الجامعية :

134) عبد القادر بلعربي، الجزائر بين البطالة والقطاع الغير رسمي ، دراسة قياسية بمنطقة تلمسان الحضرية ، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية تخصص: اقتصاد التنمية ،المشرف : بونوة شعيب، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة أبي بكر بلقايد.

135) مختار حبار ، الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني ، دراسة موضوعية وفنية ،بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه في الأدب ، المشرف : محمد عبد المطلب ومصطفى عبد الشافي، جامعة عين شمس ،كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية :1991/1990.

136) عبد الحفيظ بورديم، تجربة اللامنتمي في شعر خليل الحاوي ، رسالة لنيل شهادة الماجستير ، تحت إشراف : محمد عباس ، جامعة تلمسان، معهد اللغة والأدب العربي ، السنة الجامعية 1993-1994 .

الفهرس

مقدمـــــة..أ

مدخل :

بين الغربة والاغتراب

توطئة 08
الاغتراب في المفهوم الديني 10
الاغتراب في الشعر العربي 14
مفهوم الاغتراب عند الفلاسفة... 24
اللامنتمي 26
الاستلاب أو الارتهان 31
الاكتئاب 33

الفصل الأول:

الاغتراب النفسي والاجتماعي

تمهيد 40
الاغتراب عن الذات 42
اغتراب الذات 48
الاغتراب الاجتماعي 56
الاغتراب المكاني 63
الاغتراب الثقافي 71
الاغتراب الاقتصادي 76

الفصل الثاني

الاغتراب الديني

تمهيد 83
اغتراب شعراء ما قبل الاستقلال 85
غربة واغتراب 92
اغتراب شعراء ما بعد الاستقلال 108

الفصل الثالث

الاغتراب العرفاني

تمهيد 126
منشأ التصوف 126
أنواع التصوف 127
التصوف في الجزائر 129
قراءة تحليلية لقصيدة " أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة.......................... 150
التأويل الصوفي لقصيدة "أين ليلاي" 157

الفصل الرابع

الاغتراب الجمالي

تمهيد 165
بين الحديث والمعاصر 179
اللغة 180
الرمز 190
الصورة الشعرية 197
خاتمـــة... 215
مكتبة البحث 218
الفهرس...232

ملخـص :

تتنـاول هـذه الرسـالة الاغتـراب فـي الشـعر الصـوفي الجزائـري ، حيـث شـكلت هـذه الظاهرة ميزة غلبت على معظم القصائد المنتجة مع تنوع في التجربة والتوظيف، كما كانـت دافعـا نفسيا فريـدا وسـم الإنتـاج الشـعري الصـوفي الجزائـري الـذي كـان زاخـرا بالتجـارب الذوقيـة والروحيـة السـامية ومتميـزا بالطـابع الجزائـري الخـاص فقـد كـان للوقـائع التاريخيـة والسياسية أثر بارز في تشكيل هذه الظاهرة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الاستلاب ، الشعر الجزائري الصوفي ، التجربة الذوقية.

Résumé :

Cette thèse traite l'aliénation dans la poésie Soufie Algérienne. Ce phénomène a formé une caractéristique sur plusieurs poèmes produits avec une diversité dans l'expérience et l'emploi. Elle a aussi été un motif psychique et unique qui a marqué la production poétique Soufie Algérienne qui était remplie d'expériences de gout et spirituelles ainsi caractérisée par la nature spécifique Algérienne. Les faits historiques et politiques ont connu un impact significatif dans la formation de ce phénomène.

Mots-clés : Aliénation – Poésie Soufie Algérienne– expérience de qualité.

Abstract :

This thesis deals alienation in Algerian Sufi Poetry. This phenomenon formed a characteristic on different poems produced with diversity in experience and use. It has also been a unique psychological pattern which marked the Algerian Sufi Poetry production that was full of high taste and spiritual experience and was characterized by a special Algerian nature. The historical and political facts knew a significant impact in the forming of this phenomenon.

Key Words : Alienation- Algerian Sufi Poetry – qualified experience.

الجمـــهوريـــة الجزائـــريـــة الديـــمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

ملخص

مذكرة جامعية لنيل شهادة الماجستير
تخصص بنية النص الصوفي في الشعر الجزائري
المعنونة ب :
الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري

إعداد الطالبة : إشــراف الدكتور :

سنوساوي عمارية — ابن هاشم خناثة

السنة الجامعية : 1433-1434ه/2012-2013م

الاغتراب تجربة ضاربة بجذورها في أعماق النفس البشرية، فمنذ أن وطأت قدم الإنسان وجه البسيطة ، وبدأ صراع قابيل مع هابيل ،الذي تلاه الندم والحيرة وتأنيب الضمير والإنسان يعيش رحلته مع الاغتراب فهذا الأخير لا يكاد يخلو منه مجتمع من المجتمعات فهو في البنية العميقة له

وتتفق الأديان الثلاثة (**الإسلام،والمسيحية، واليهودية**) على أن الإنسان غريب في هذه الدّنيا وأن شعوره بالاغتراب متأصل في ذاته منذ أن هبط من الفردوس وسكن الأرض وروحه تتوق إلى العودة من جديد إلى موطنها الأصلي"**غريب أنا في الأرض، لا تخف عني وصاياك** "[1]، فالغربة ألم وانتظار للعودة إلى حال الطمأنينة والسكينة فهذه الروح غريبة داخل هذا الجسد" **وأقول لكم: أسلكوا في الروح ولا تشبعوا شهوة الجسد فما يشتهيه الجسد يناقض الروح وما يشتهيه الروح يناقض الجسد، كل منهما يقاوم الأخر لئلا تعملوا ما تريدون** "[2].

فهذا التناقض بين الروح والجسد ينشأ صراعا يتولد عنه شعور بالاغتراب عند الإنسان والذي لم يبرحه منذ أن نزل آدم إلى الأرض بعد أن عصى أمر ربه قال تعالى: **(**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)**[3].

فإحساس نفس المؤمن الدائم بالرحيل في أية لحظة يجعلها تعيش القلق ، وخاصة إذا كان ما حولها مناقض لها ، وهذه الغربة التي مدحها الإسلام ، وأثنى على من يتمسك بدينه في زمن الغربة والاغتراب كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن عبد الله بن عمرو قال:كنتُ عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا ، فطلعتِ الشَّمسُ فقال : يأتي قومٌ يومَ القيامةِ نورُهم كنورِ الشَّمس . قال أبو بكرٍ : نحن هم يا رسولَ اللهِ ؟ قال: لا، ولكم خيرٌ كثيرٌ، ولكنَّهم الفقراءُ المهاجرون الَّذين يُحشَرون من أقطارِ الأرض. فذكر الحديثَ . وزاد ثمَّ قال : طوبَى للغُرَباءِ .قيل : من الغرباءُ ؟ قال : أُناسٌ صالحون قليلٌ في ناسِ سوءٍ كثيرٍ من يعصيهم أكثرُ ممَّن يُطيعُهم "[4]فهم أناس يعانون من غربتهم الاجتماعية ولكنهم يحققون أمنهم النفسي بأدائهم لحق ربّهم عليهم فهم في جهاد مع النفس ، وفي جهاد مع الكفر ، فإن عاشوا غرباء ماتوا مطمئنين تنتظرهم جنة الخلد موطنهم الذي اغتربوا عنه أول مرة،وحتى الذي

---

[1]- العهد القديم ،سفر المزامير ،المزمور المائة والتاسع عشر .

[2]- العهد الجديد ، أعمال الرسل ، رسالة بولس إلى غلاطية.

[3]- القرآن الكريم، رواية ورش، سورة البقرة، الآية:36.

[4]- الراوي: عبد الله بن عمرو المحدث: المنذري المصدر : الترغيب والترهيب ، الصفحة أو الرقم:138|4، خلاصة حكم المحدث: أحد إسنادي الطبراني ، رواته رواة الصحيح.

[4]- أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص ، رقم الحديث :6775.

أصابه سهم غرب بشره النبي بالجنة "عن قتادة حدثنا أنس بن مالك: أنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بنتَ البراءِ، وهي أُمُّ حارثَةَ بنِ سُراقَةَ، أتتِ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالتْ : يا نَبيَّ الله،ألا تُحدِّثُني عن حارثَةَ- وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ، أصابَهُ سهمٌ غَرْبٌ- فإن كان في الجنةِ صَبَرتُ، وإنْ كان غيرَ ذلك اجتَهَدتُ عليهِ في البُكاءِ ؟ قال: (يا أُمَّ حارثَة إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَكِ أصابَ الفِردَوسَ الأعْلَى "[1] فسهم غرب يعني لا يدرى من رمى به .

أما غربة المؤمن بين أهل الكفر فهي الغربة الممدوحة وإن كانت شاقة على النفس ، فغربته عنهم أفضل من اندماجه معهم (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ...)[2].

و لقد عرف الإنسان العربي الغربة المكانية حيث عاش حياته متنقلا من مكان إلى آخر باحثا عن مواطن الكلأ والماء فألفت قدماه التّنقل ولكن قلبه بقي معلّقا دائما بأول منزل ،فوقف على أطلاله وجعلها رمزا لاغترابه النفسي والعاطفي، وخلق لخطابه الشعري مشاركا افتراضيا حتى يشاركه غربته وليتسنى له الإفصاح عن ما في نفسه من مشاعر الأسى والحسرة ، وهاهو **"امرؤ القيس"** يخاطب قبرا أمامه جمعته به الغربة المكانية فهو في جبل عسيب بعد أن انفطر قلبه على موت أبيه وانكسر خاطره لانعدام المعين :

أجَارَتَنــــا إنَّ الخُطُوبَ تَـنُــــوبُ

وَإنِّي مُقِيمٌ مَا أقَــامَ عَسِـيـبُ

أجَارَتَنــا إنَّـــــا غَرِيبَانِ هَاهُــنَا

وَكُل غَرِيبٍ لِلْغَرِيــــبِ نَسِيبُ

فإن تَصِلِينَــا فَالقَرَابَــةُ بَيْـنَـنَــا

وإن تَصْرِمِينَا فَالقَرِيبُ غَرِيــبُ

أجَارَتَنَا مَــا فَاتَ لَيْسَ يَــؤُوبُ

وَمَا هُوَ آتٍ فِي الزمَانِ قَرِيـــبُ

---

[1]- محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري: صحيح البخاري ، الجزء الثالث ، ضبطه مصطفى ديب البغاء، نشر مشترك : مورفم للنشر الجزائر ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة ، د ط ، د ت ، ص : 1034.
الراوي: أنس بن مالك المحدث البخاري - المصدر :صحيح البخاري- خلاصة حكم المحدث: صحيح
[2]- سورة المائدة ، الآية: 41.

وَلَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارهُ

وَلَكِن مَن وَارَى التُّرَابَ غَرِيــبُ"[1]

فهنا الشاعر يرى أن الغريب ليس من بعد عن الوطن ولكن الغريب من تخلّى عنه القريب ، وغدر به البعيد وسكن اللّحد ولم يجد عنه محيد .

كما لم يغب الاغتراب بأنواعه الأخرى عن شعراء العصر الجاهلي ، فهاهم الشعراء الصعاليك يبتعدون عن قبائلهم بعد أن استحال عليهم العيش معهم، فجعلوا من الصحراء القاحلة موطنا لهم ومن الوحوش بديلا عن أهاليهم يقول **الشنفرى** :

" أَقِيمُـوا بَنِـــــي أُمِّي صُـــدُورَ مَـطِيِّكُـم

فَإِنِّــي إِلَــى أَهْـلٍ سِوَاكُـــم لَأَمْـيَـلُ"[2]

فهو يفضل التشرد في الصحراء على البقاء في هامش مجتمع عنصري يسوده الظلم والأنانية لا مكانة فيه إلاّ لصاحب مال أو نسب.

وَلِـــي دُونَكُم أَهْـلُونَ سِـيــدَ عملّـسٍ

وَأَرْقَـطُ زَهْلُـولَ وَعَرْفَـاءَ جَيْأَلِ"[3]

<u>**مفهوم الاغتراب عند الفلاسفة :**</u>

يختلف مفهوم الاغتراب حسب اختلاف تلك الفلسفات والمذاهب ويبقى القاسم المشترك بين معاني الاغتراب التي تضمنتها الفلسفة اليونانية،والفكر الديني،والفلسفة السياسية هو الانفصال، انفصال الحسي عن المثالي، وانفصال النّفس عن عالم المُثل كما يرى **أفلاطون** ، أما في الفكر الديني فالاغتراب كان منذ انفصال الإنسان عن العالم العلوي ، أما نظرية **العقد الاجتماعي** فالاغتراب عندها يتمثل في انفصال الإنسان عن طبيعته الجوهرية وانتقاله من حالة الطبيعية إلى المجتمع المدني بعقد اجتماعي أساسه التنازل والتخلي عن حقوق طبيعية ومبادلتها بسلامة البدن و الثروة التي تكفله الدولة كشرطي عام وقد انتقلت هذه الفكرة – الاغتراب بمعنى الانفصال– إلى الفلسفة المثالية الألمانية، التي أصّلت حالة الانفصال فأقامت

[1]- امرؤ القيس :ديوان امرؤ ألقيس، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ضبطه وصححه : مصطفى عبد الشافي ، د ط ، د ت، ص :49.
[2]-يوسف خليف :الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة ، د ط ،د ت ، ص:168.
[3]- المرجع السابق ، ص:50

نسقا من الثنائيات المتقابلة أو المتداخلة ونظرت إلى الوجود نظرة مزدوجة تمتد جذورها في الفكر المثالي بشقيه اللاهوتي والفلسفي[1].

الاغتراب النفسي و الاجتماعي:

إن المتأمل في النّفس البشرية ليقف عاجزاً أمام هذا المحيط الزاخر بالتّقلبات المزاجية فهو بين مدٍّ وجزر بين رضا وسخط ،بين حزن وفرح،بين ألم وأمل، بين شك وريبة من جهة وبين طلب للهدوء والسّكينة من جهة أخرى ، وإنّها لمظاهر تتجسّد في كل واحد منا وإن اختلفت شدّتها من شخص لآخر حسب شخصيته ويُعرف علماء النّفس الشخصية بأنّها " ذلك التنظيم الدينامكي المتكامل لخواص الفرد الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية حسبما يتكشف للآخرين من الناس "[2] ومن خلال ما يعبر به الفرد عن نفسه وما يفصح به عن ذاته فيقوم" بالكشف عن معلومات شديدة الخصوصية والحديث عنها لغيره ، وتكون هذه المعلومات متعلقة بدوافعه أو برغباته أو بمخاوفه وأماله ، أو بما تكنه نفسه "[3]وإن صرخة "**زهير بن أبى سلمى**" وتعجبه من الذي يعيش تقلبات الدهر كيف لا يسأم إنما هي إفصاح عن ما يختلج بنفسه من سأم وتعب :

"سَئِـمْتُ تَكَـاليفَ الحَيَـاةِ وَمَـنْ يَعِش

ثمَـانِيـنَ حَوْلاً لاَ أبَا لَكَ يَـسْأم"[4]

فحكمة زهير نابعة من معايشته لهموم قومه وتوجع نفسه لتوجعهم " هذه المميزات النفسية التي تميز شاعرا عن آخر هي التي دفعت بعض الشعراء دون آخرين إلى التعبير عن إحساسهم بالاغتراب ، وفقدان المشاكلة،واختلال التوازن "[5] لعدم قدرتهم على تحمل الواقع كما هو ، فهم يرفضونه جملة وتفصيلا وبالتالي يغتربون عنه .

"ويحدد **مولفان سامون** Melvin seeman خمسة أبعاد أساسية لمفهوم الاغتراب هي:

- **الحرمان من السلطة**
- **غياب معنى الحياة**
- **غياب المعايير**

1- ينظر : نبيل رمزي اسكندر :الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر ، د ط ، سنة : 1988، ص:73

2- محمد عبدالرحمن العيسوي:نظريات الشخصية ، دار المعرفة ،مصر ، د ط ،سنة : 2002، ص : 18.

3- طه عبد القادر فرج : موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، ص: 113.

4 - زهير بن أبي سلمى : الديوان ،دار صادر ،بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ص : 86.

5- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط:2 ، سنة : 2006 ، ص :123.

Ø ومن ثم **غياب القيم والإحساس بالغربة عن الذات** ويعني هذا المفهوم بصورة عامة كل أشكال القهر ومشاعر البؤس والشقاء التي يعاني منها الإنسان في الحياة "1 سواء بالنسبة لغربته عن ذاته(الاغتراب النفسي)أو غربته عن الآخر(الاغتراب الاجتماعي) .

وإذا راجعنا كلمة Aliénationالتي تعود إلى إنجليزية العصر الوسيط و تمتد إلى اللاتينية القديمة فإنAlienatio تدل على حالة فقدان الوعي و عجز أو فقدان القوى العقلية أو الحواس، حيث اقترن المصطلح في أغلب الأحوال بكل ما يهدد وجود الإنسان و حريته، وأصبح الاغتراب و كأنه مرض أصيب به الإنسان الحديث، و من أبرز المفكرين والباحثين الذين جاؤوا بعد **"هيجل"** و اهتموا بتناول الاغتراب : **"إريك فروم"**،**"كارين هورني"** ،**"فرويد"**، **"ماركيوز"** وغيرهم من الذين أعطوا لمفهوم الاغتراب معنى سيكولوجي فمثلا **"فروم"** ينظر "إلى الاغتراب نظرة سلبية تماما إذ يرى أن الإنسان المغترب هو إنسان مريض من الناحية الإنسانية على الرغم من أنه بمعيار النظرة الحديثة للصحة العقلية ، فقد يبدو سويا"2

- الاغتراب عن الذات :

يشير هذا النوع من الاغتراب إلى إزالة كافة ما كان عليه المرء، بما في ذلك ارتباط حياته الحالية بماضيه، وجوهر هذا الاغتراب هو البعد عن مشاعر الفرد ومعتقداته وفقدان الشعور بذاته ككل وهو" يتميز عن باقي المعاني بكونه ينطوي على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته"[3] فالاغتراب عن الذات أو النفس يأخذ بعدين يمكننا أن نمثلهما بالمخطط الآتي :

------ انفصال الفرد عن ظرف إنساني مثالي

الاغتراب عن النفس --ا

------ افتقاد المغزى الذاتي والجوهري للعمل

الذي يؤديه الإنسان وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضا .

كما يشير **"فروم"** إلى نوعين من الذات : "الذات الأصيلة والذات الزائفة" ويعتبر اغتراب الذات حالة أقرب إلى الانفصال عن الطبيعة المثالية للفرد، فالذات الأصيلة عند**"فروم"** هي الذات الفريدة الغير قابلة للتكرار، و التي يتسم صاحبها بأنه شخص مفكر،قادر على الحب و

---

[1]- علي وطفة :المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية ، بحث في إشكالية القمع التربوي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الثاني ، أكتوبر – ديسمبر 1991، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون و الأدب – دولة الكويت ، ص:247.

[2]- حسن محمد حسن حمادة :الاغتراب عند اريك فروم، ص : 125.

[3]- قيس النوري :الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا ، مجلة عالم الفكر ،المجلد العاشر، ع:1،ص: 18.

الإحساس، والإبداع مبدع لما يقوم به من أفعال[1]. فيكون الفرد راض عن أعماله ويرى أن لا أحد غيره يستطيع القيام بما قام به. يقول "**الأمير عبد القادر**":

" لِذَاك، عَرُوسُ المُلْكِ كَانَتْ خَطِيبَتِي

كَفَجْأَةِ مُوسَى بالنُّبُوَّةِ ، فِي طُوَى

وَقد عَلمَتْنِي خَيْرَ كفْءٍ لِوَصْلِهَا

وَكَم رَدَّ عَنْهَا خَاطِبٌ بالهَوَى هوَى

فَوَاصَلْتُهَا بِكْرًا لَدَيَّ تَبَرَّجَتْ

وَلِي أَذْعَنَتْ، وَالمُعْتَدِي بالنَّوَى ثوَى

وَقد سِرْتُ فِيهم سِيرَةً عُمَرِيَّةً

وَ أَسْقَيْتُ ظَامِيهَا الهِدَايَةَ، فَارْتَوَى"[2]

وقد سجلنا عدة أنواع من الاغتراب في الشعر الجزائري المعاصر نذكر منها على وجه التحديد :

2- اغتراب الذات :

إذا كان الاغتراب عن الذات هو انفصال عن ظرف إنساني مثالي فان اغتراب الذات هو افتقاد للهدف وضياع للطريق فلا يرى في الأفق إلا النّدم وحرقة الآهة تنبعث من بين كلمات سعد الله :

"اليَأْسُ وَالضَّيَاعُ وَالأَلَم

وَآهَةُ الغُرُوبِ والنَّدَمِ

والنَّغْمَةُ الخَابية الإِيقاع

وَكُلُّ فِكْرَةٍ بِلَا هَدَفِ

وَخَاطِرٌ يَشُكُّ أو يَلْتَاع .."1

[1]- ينظر : شاخت : الاغتراب ،ص: 132.

[2]- الأمير عبد القادر :الديوان ، ص :107-108.

فالشاعر لا ير لحياته معنى فكل أفكاره بلا هدف ، لذلك يزداد شعوره بالضياع والألم ولقد حلل"**ماركس**" الاغتراب وربطه بالعمل وبالناتج وأعطاه معنيين:

المعنى الأول: يرى فيه أن الناتج جزء من الشخص و بالتالي فإن اغتراب الناتج يعني اغتراب الذات، فهو يربط بين العمل الممارس وحياة الإنسان الذي يقوم بالعمل وأنّ إنتاجه هو حياته فإنْ اغترب عنه إنتاجه فقد اغتربت ذاته ، و إذا كانت العلاقة التي تربطه بعمله علاقة مغتربة عنه ولا يشعر بانتمائه إليه فإن حياته و ما تحمل من طاقات هي غريبة عنه وحينما تخضع طاقته الشخصية والروحية والعضوية في نشاطه وعمله لتوجيه آخر فإن حياته ذاتها لا تعود بعد حياته ،ومن ثمّ فإنه يغدو مغتربا عن ذاته.

أما **المعنى الثاني** :فيستخدم ماركس اغتراب الذات للتعبير عن انفصال المرء عن ذاته الإنسانية الحّقة وعن الطبيعة الجوهرية وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير فكرة الفقد الكلي للإنسانية 2 فاغتراب العمل ينتج عنه اغتراب الذات ،و"**حمري**" في قصيدته "**مغترب عائد من مناجم لوران**" يجسد صورة مغترب الذات والتي مثلها العامل البسيط الذي ترك وطنه ورحل باحثا عن عمل ليجده في "**مناجم لوران** "حيث يعانقه الاغتراب فهو قضى زهرة شبابه في كدّ وجهد حتى أصبحت اليدان كالخيط وصارت العينان غائرتين كالحفرة ،وبعد كل هذا العناء في عمل لا يمت له بصلة في بلد أجنبي غريب عنه لا يجن منه سوى صحة معتلة و ذات مغتربة .

يقول "**حمري بحري**" :

" يَئِنُّ

يَئِنُّ القِطَار

يَمُرُّ لَفِيفَ الأَمَانِي عِجَافا

يُعَانِقُهُ الإغْتِرَابُ

. . . .

وَتَصْدَأُ كَفَّاهُ

وَالوَشْمُ فَحْمٌ

---

[1]- أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر ، ص:355.

[2]- ينظر : شاخت ، الاغتراب ،ص: 159.

تَمُرُّ السُّنُونُ

يَجِيءُ الحَنِينُ

وَيَفْتَحُ لِلذِّكْرَيَاتِ البَعِيدَةِ

جِسْرًا وَبَابًا

وَيَشْتَاقُ صَوْتًا بَعِيدًا

يُنَادِيهِ "بَابَا "

ذِرَاعَاهُ خَيْطٌ

وَعَيْنَاهُ حُفْرَةٌ

يَكِحُّ. . .يَكِحُّ

مَنَاجِمُ لُورَان " آه "

لِمَاذَا تَشِحُّ . . .تَشِح "[1]

3) الاغتراب الاجتماعي:

إن الإنسان بطبعه اجتماعي يعيش في تلاؤم وانسجام مع أفراد مجتمعه فهم يجمعهم المكان الواحد ويحتويهم الزمان الواحد ويعزفون على نفس الوتر "و كلما كانت العلاقات الاجتماعية علاقات قوية انعكس ذلك على حياة الفرد النفسية ، ويمكننا هذا من القول أن الاتزان العقلي و النجاح في الحياة يتناسب طرديا مع اتزان علاقة الفرد بمجتمعه "[2]. فالإنسان بحاجة إلى الجماعة فهو ينمو ويكبر ضمن أفراد أسرته و تزيد أواصر الصداقة من ارتباطه مع أقرانه و يظل في تفاعل مع محيطه "فهو يستقي من المجتمع الذي يظل مرتبطا به ارتباطا خياليا للقوة والنشاط ، والمجتمع أبدا حاضر أمامه يرنو إليه مهما تعامى عنه "3 فبقدر شعور الفرد بالانتماء للمجتمع والاستماتة في الدفاع عنه بقدر ما كانت الدولة قوية لا تهزها عواصف الزمان ولا يتمكن منها الأعداء والذي عُرف عن الدولة في العهد العثماني – في الجزائر –أنها كانت " متقوقعة على نفسها داخل هياكل إدارية ، بل نستطع القول ، أنها

[1]- حسن فتح الباب : مرجع سابق، ص: 155.

[2]- عبد الحكيم العفيفي : الاكتئاب والانتحار ،ص ، 64.

[3]- هنري برجسون: " الأعمال الفلسفية الكاملة ، منبعا الدين والأخلاق ، ترجمة : سامي المدروبي ، عبد الله الدائم ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ،1971، ص21.

كانت تحيا على هامش المجتمع . لأنها عجزت على بناء مجتمع متماسك ، تستطيع التمفصل حوله " 1 وهذا الذي سهل على فرنسا الدخول للجزائر عام 1830 فساعتها " لم تواجهها طبقة اجتماعية تدافع عن مصالحها ، ولا متطلبات السوق الوطني .ولكن واجهتها قبائل بالجهاد المقدس . "[2]التي رفعت شعاره للتصدي للغريب الذي لم يراع حرمة الشيخ الكبير ولا المرأة الضعيفة ولا الصبي الرضيع ورد صفعة مروحة الريش على وجهه بصفعة الحديد والنار والشتات والضياع لمجتمع أعزل ويتعجب **"سعد الله"** من ذلك الموقف في قصيدته **"المروحة"**:

" أكَذَا الرِّيشُ حَرِير وقبل

أبْيَضُ كَالقُطْنِ جَذَّاب خضل

مَاتَ فِيهِ الحُبُّ ظمْآن الأمَل

حِينَ طَاشَتْ مِرْوَحَة

وَذوِي الرِّيشِ النَّدَى

وَاللَّهيبُ المُتَعَالِي

يُؤْكَلُ الشَّوْقُ مَعَه

وَدُخَانٌ كَالسَّرَابِ

غَامَ فِي وَجْهِ الدَّعَه

فَبَدَا الشَّرُّ نيُوب

مِن شِفَاهِ الوَادِ عين

وَغَدَا الأُنْسُ جُنُون

والشِّعَارَاتُ حِدَاد ! "[3]

---

[1]- محمد مدان :المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية قسم علم الاجتماع ، جامعة أبي بكر بلقا يد تلمسان ، مجلة انتروبولوجيا الأديان ، أعمال مخبر انتروبولوجيا الأديان ، العدد التاسع ، يناير 2011، ص:143.

[2] - المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

[3]- أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر ، ص :203.

تغير كل شيء في بلد الخير والأمان ، سُلِبَ الفرد الجزائري ممتلكاته وأصبح " خماسا "في أرضه يسكنه الاغتراب الاجتماعي.

ويُعتبر"**ماركس**"أول من تناول الاغتراب باعتباره ظاهرة اجتماعية تاريخية سواء من حيث نشأتها أو تطورها.وهو يشير إلى اغتراب الإنسان عن العمل من خلال فهمه للنظام الاقتصادي و لذا نجده يتناول الاغتراب الذي يصاحب العمليات الإنتاجية من خلال أربعة أوجه و هي (اغتراب العامل عن نفسه، اغترابه عن الآخرين، اغترابه عن الإنتاج، و بالتالي اغترابه عن عمله).

ولهذا نجد أن الماركسية قد أرجعت أسباب الاغتراب إلى أن بعض الأفراد يغتربون عن أعمالهم لأسباب موضوعية كامنة في علاقات الإنتاج و نسق السيادة الطبقي مما يؤدي إلى انفصالهم عن العمل و الإنتاج،كما يؤدي في نفس الوقت إلى اغترابهم عن الطبيعة و عن ذواتهم كذلك[1].

4) الاغتراب المكاني:

بعدما ضاقت القُرى بأحلام أهلها لم يجدوا بُدّا من شدِّ الرّحال إلى المدينة لعلّهم يظفروا بالراحة والأمان فلم يجدوا إلا خيبة الآمال " وقد ذهب كثير من علماء الاجتماع إلى أنَّ كثيرا من الإحباطات التي يحس بها ساكن المدينة إنّما هي نتيجة صراع أساسي بين القيم "2 المختلفة فالفرد في صراع داخلي بين ذاته وبين الآخرين ، بين انطلاقه وحرية وبين سلطة الجماعة المفروضة عليه ،بين المحبّة والأخوة والجوهر النّقي وبين الصّراع والتّنافس والنّفاق.ولقد عانى الشعراء الذين يطمحون لصفاء الرُّوح من جوّ المدينة الخانق وشعورهم بالا انتماء. يقول **يوسف وغليسي**:

" القَلْبُ فِي وَهْرَان يُوقِظُهُ الأنِينْ،،

والقَلْبُ فِي وَهْرَان يُوقِدُهُ التَّسَاؤُل وَ الحَنِينْ ،،

عَبَثاً أسَائِلُ ذِي المَدِينَة فِي المَسَاءِ وَالصَّبَاح:

وَهْرَانُ ! مَاللْعَاشِقِين يُعَذَّبُونَ مُشَرَّدِينَ

عَلَى شَوَارعكِ العَتِيقَةْ؟!

[1]- ينظر : شاخت : الاغتراب ، ص : 145-151.
[2]- إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، 2 صفر ربيع الأول 1398ه-فبراير شباط 1978.ص113.

وَالفَاسِقُونَ مُكَرَّمُونَ ، كَمَا النَّوارس،

فِي شَوَاطِئكِ الطِلِيقهْ "[1]

5) الاغتراب الثقافي:

إن نكبة الجزائر كانت مع دخول فرنسا إلى أرضها حيث أنها لم تكتف باحتلال المكان وإنما عمدت إلى تغريب ثقافة الأمة لذلك حاربت تعليم العربية وفي المقابل شجعت تعليم الفرنسية وزرعت الاغتراب منذ الوهلة الأولى في نفوس الجزائريين بتغريب أرواحهم و لغتهم ، وأصالتهم ، فالثقافة بمعناها الواسع" هي جماع السّمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تُميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها "[2]وفرنسا كانت تريد لهذه البقعة الطيبة الالتحاق بالأراضي الفرنسية فقد "صدر في دستور عام 1848 بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من الأرض الفرنسية وهو مشروع الإذابة أو الإدماج في فرنسا " [3] لأجل هذا فقد سعت فرنسا بكل الوسائل لطمس الهوية وتغيير ثقافة النشء الذي راهنت على تغريبه وذلك بخلق فرد يتحلل " من الثقافة الشعبية وعدم قبول القيم الأساسية للمجتمع الذي يعيش فيه "[4] بكل بساطة خلق فرد مغترب لأن الاغتراب" ظاهرة اجتماعية تدخل في نسيج الحياة الثقافية الاجتماعية "[5] وهي ركزت على نشر ثقافتها من خلال تغيير التعليم والتربية والتذوق . يشير **"كينستون"** إلى : " أن مقاييس التذوق و التربية هي بالطبع جزء من البيئة الاجتماعية الأكثر شمولا ".6 وهي التي تميز شعبا عن غيره لذلك يعتز بها الأفراد.والجزائري لم يقبل عن ثقافته بديلا فقد باءت كل محاولات الإدماج بالفشل، وغابت فرنسا منهزمة ولكن لم يغب الاغتراب على الساحة الثقافية الجزائرية ، فالطبقة المثقفة كانت تجمع بين جيلين أو بالأحرى بين اتجاهين " بين ما كان يسمى آنذاك بالأدباء الشباب والأدباء الشيوخ ، من بين عناصر هذا الصراع الأدباء الشيوخ كانوا لا يريدون الاعتراف بحركة الشعر الحر على وجه الخصوص وبالنزعة الحداثية"[7] فهذه الصراعات الاجتماعية خلقت صراعات داخلية عرقلت الإبداع لسنوات طويلة لأنّ" وضع الإنسان في ظروف تبعث على الملل أو الشقاء فإنه يحدث العكس، إنه يخفضه بدلا من ترفيعه إذا جاز التعبير ويأخذ إحساسه بهويته - أي أهميته في التناقص والانحطاط بصورة ثابتة "[8]فلا يجد لإبداعه متنفسا ويبقى حبيس الأدراج ، وبالتّالي كان الاغتراب من نصيب الجيلين ، وما كان هناك مجال للتغيير إلا بتقبل الآخر

---

[1]- يوسف وغليسي: أوجاع صفصافة ، ص:105.
[2]- أحمد بن نعمان: هذه هي الثقافة ،ص: 23.
[3]- محمد الطيب العلوي: التربية بين الأصالة والتغريب ، منشورات دحلب ، د ط، د ت ، ص :66.
[4]- شاخت : الاغتراب ، ص : 250.
[5]- علي وطفة: المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية ، ص ، 242
[6]- شاخت :المرجع السابق ، ص :238-239.
[7]- أزراج عمر : هكذا أهان بومدين مفدي زكريا ،ص: 17.
[8]- كولين ويلسون: الشعر والصوفية ، ص: 101.

وعدم إقصائه فلا تصبح العلاقة مع الأنا والآخر " من خلال مفردات الأصل والمحافظة أو الخوف والخشية، بل من خلال مفردات الخروج والمغامرة أو الإبداع "1 ولكن أي إبداع يكون إذا كان الآخر لا يعترف بإبداعك، يروي**"عمرأرزاج"** قصته مع الرئيس**"هواري بومدين"** فيقول "وسألني عن عملي فقلت له بأنني أشتغل في مهنة التعليم، وقال لي بسرعة وبحدة بأن المعلم الواحد أفضل من ألف شاعر "[2].

6)الاغتراب الاقتصادي

ممّ يؤثر عن **علي بن أبي طالب** – كرّم الله وجهه - قوله :" لو كان الفقر رجلا لقتلته " وما كان علي رضي الله عنه ليقول هذا القول لولا أنه أدرك ما للفقر من أثار نفسية واجتماعية على الفرد والمجتمع

يقول **"الأمين العمودي ":**

حَالِي اسْتَحَالَ وَفَاقنِي الأقْـرَانُ   مُذْ غَابَ عَنِّي الأَصْفَـرُ الرَّنَـانُ

أخْفَى بَنُوا غَبْرَاء نُـورَ حَقِيقَـتِي   وَأحِبَّتِي نَقَضُوا العُهُـودَ وَخَانُوا

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيَّ فِي شَرْخِ الشَّبَا   بِ وَ فَاتَنِي مَا يَفْعَـلُ الشُّبَّـانُ"[3]

فهذا الفرد الذي يجوب الشوارع طلبا للعمل ليسدّ جوعه ويحفظ كرامته ولا يجد. كيف ينظر إلى مجتمعه الذي لم يوفر له حقه في العيش الكريم ؟

يقول **محمد زيتلي :**

" وَأسْألُ مَا بَالُ هَذِي الجُمُوع

يُحَاكِمُهَا الجُوعُ

يَخْتَصِرُونَ الجَوَابَ بإِيرَاد فَصْل التَّحَوُّل

فأبْقَى وَحِيدًا

أطِلُّ عَلَى شَجَرِ القَلْبِ

---

[1]- علي حرب ، حديث النهايات فتوحات العولمة و مآزق الهوية ،ط: 02 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ، سنة : 2004 ، ص : 27.

[2]- أزراج عمر : المرجع السابق،ص: 17.

[3]- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث،ص:284.

ثُمَّ يُعَذِّبُنِي الانْتِمَاءُ لِقَائِمَةِ الفُقَرَاء [1]

فهو يرفض انتماءه لهذه الطبقة الفقيرة ،ا لمهمشة اجتماعيا ، وعندما يعذبه الانتماء إلى الفقراء ليس لأنه يكرههم ولكن يرفض أن يكون همُّ الفرد الجزائري هو البحث عن عمل لسدّ جوعه " لقد أثبتت البطالة أنها أكثر من مشكل اقتصادي واجتماعي وعليه فإن أي تفريط في مواجهتها من شأنه أن يزيد الأوضاع تأزما "[2] ويزيد الفرد بعدا عن الانشغال بالوطن بل يزيد الهوة بين طبقات المجتمع فيخلق نوعا من النقمة والمرارة والاغتراب، فمن حقّ كل فرد أن يكون له مصدر رزق يكفيه و يغنيه عن سؤال النّاس أعطوه أو منعوه فهو في الحالتين لن يكون في تلاؤم مع المجتمع الذي لم يوفر له الشغل بالأخص للشباب الذي يفتح ذراعيه لمستقبل أفضل فإذا به يتلقفه شبح عدم توفير منصب شغل " إن البطالة في الجزائر بطالة شبابية حضرية كون أنها تمس الفئة التي يقل عمرها عن 30 سنة "[3] وشعراء فترة ما بعد الاستقلال الذين عالجوا المواضيع الاجتماعية هم شباب أحسوا بما يحس به جيلهم من ضائقة اقتصادية حاولت البلاد تخطيها ولكن " مشكل التشغيل يظهر كحاجز صعب التخطي ويشق على الاقتصاد الجزائري مواجهته خاصة عندما يتعلق الأمر ببطالة مكثفة طويلة الأجل "[4] ومع بقاء الحاجز يبقى ألم الشاعر من الوضع القائم، ومن الطبقية التي بدأت تظهر في المجتمع

إذ يقول :

" هَذِي المَلايين لَاينْتهِ جُوعهَا

يُتْعِبُنِي زَمَنٌ لِلْمُلُوكِ السُّكَارَى

عَلَى شُرُفَاتِ القُصُورِ الظَّلِيلَةِ

لَكِنَّنِي ضَائعٌ بَيْنَ هَذِي الوُجُوه "[5]

7) الاغتراب الديني :

قد يكون المُكَوِّن الدّيني في الشخصية الجزائرية له حضور مميز،وملمح بارز في تكوين هذه الشخصية بأبعادها المختلفة، فما إن جاء عقبة بن نافع حاملا رسالة الإسلام إلى

[1] - حسن فتح الباب : المرجع السابق ، ص: 167.
[2]- عبد القادر بلعربي: الجزائر بين البطالة والقطاع الغير رسمي ، دراسة قياسية بمنطقة تلمسان الحضرية ، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية تخصص: اقتصاد التنمية ،المشرف : بونوة شعيب ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ، جامعة أبي بكر بلقايد ، سنة : ص، 86.
[3]- المرجع نفسه : ص : 112
[4]- المرجع نفسه ص: 93.
[5]- حسن فتح الباب ، شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والأفاق ، ص171.

هذا البلد حتى أصبح همّ أبنائه الدّفاع عنه ونشر تعاليمه السّمحة إلى البلدان المجاورة، وما حملات الفتح التالية لفتح إفريقية ومشاركة البربر الفعالة في هذه الحملات إلا دليل واضح على هذا الحرص الشديد ،والصدق الكبير في منافحتهم عن الدّين الذي اعتنقوه حديثا وتشبعوا به حدَّ الاستماتة في نشره، وكان الجزائري بعد ذلك متى ما شعر بالخطر يحدق بمعتقداته ودينه إلا وهرع مدافعا عنها مستميتا في نصرتها ابتغاء الأجر والثواب وخوفا من أن يكون للجزائريين دين آخر غير الدين الذي ارتضوه لأنفسهم وتعبدوا به زمنا طويلا، وما كان استنجاد أهالي الجزائر "**بعروج**" و"**خير الدين**" في بداية القرن **السادس عشر** إلا خوفا على هذا الدين من حملات الصليبيين التي ما فتئت تتحرش بالسّواحل الجزائرية بعد سقوط الأندلس سنة 1492م وما كانت حادثة "**المروحة**" التي اختلقها الاستعمار الفرنسي سوى امتداد لتلك الحملات، فلقد بذلت فرنسا المنتصرة للصليب الجهد والجهيد من أجل تغريب هذا البلد وإبعاده عن دينه ، "أخذت ترسل الإرساليات التنصيرية أملا في أن تنصر هذا الشعب"[1] لكن مسعاها سرعان ما اصطدم بتضحيات جسام وبطولات منقطعة النظير من شعب لا يقبل أن يكون تبعا لصليبي علاوة أن يغير دينه ويستبدله بغيره، فعلى الرغم من الآلام والجراح التي عانى منها الجزائري إلا أنّه كان كل نبض فيه ينادي ب "لا إله إلا الله " هذا الرفض وهذا الصراع العقائدي كان له انعكاس واضح في الشعر الجزائري ، فقد كانت القصيدة الدينية تؤكد رسوخ العقيدة الإسلامية لدى شعب الجزائر:

" الجَزَائرُ كَانتْ مَنْصُورةً وأَمِيرَة

مَنْ يُضَمِّد الآنَ الجِراحَ التِّي تُعانِيهَا ،

إنَّ قلْبهَا نَهْرٌ منَ الدُّمُوع ،

أوَّاه ! سَأضَحِّي بحيَاتِي مِنْ أجْلِ المُنْقِذ الجزَائِرِي

الذِّي يَسْحَقُ الصَّليبَ مِنْ سَواحِلنَا ،

وَ يُعِيدُكَ حُرّاً ، يَا وَطَنِي ، الجَزائِر* "[2]

وفي فترة الإستعمار عمّ الظلم والظلام البلاد والعباد فحُوّلت المساجد إلى كنائس، وضيّقت فرنسا الخناق على كل من رفع الحرف العربي شعارا ، ولكن كما قيل إن الأزمة تلد الهمّة ، فكانت الهمّة بانتشار الكتاتيب في كل القرى والأرياف ، وسعى الأهل إلى تحفيظ

1-محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، التاريخ المعاصر ، بلاد المغرب ، المكتب الإسلامي ، ط:2، سنة : 1996، ص : 237.
2- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط:1، سنة:1981، ص:17.
* مقطع من قصيدة لشاعر مجهول مترجمة من العربية إلى الفرنسية إلى الانجليزية ، ترجمها أبو القاسم سعد الله عن الانجليزية شعرا حرا ، أورده عبد الله الركيبي في كتابه الشعر الديني الجزائري في هامش الصفحة 17.

أبنائهم كتاب الله ، وانتزعوا من قوتهم ليرسلوا بهم إلى الخارج ليتفقهوا في دينهم و يتضلعوا في لغتهم فكان منهم العالم، والكاتب، والشاعر " إن جيلا كاملا من الشعراء قد ظهر في النصف الثاني من القرن الماضي وقد أسهم هذا الجيل بنصيب وافر من الموضوعات والشعارات و الأساليب الشعرية "1 فلم يكن هناك بُدٌّ من الغربة والاغتراب حتى يُنزع حجاب الجهل عن البصر والبصائر ، فانطلقت جموع الراحلين إلى جامع الزيتونة في تونس ، والأزهر الشريف في القاهرة ، لعلّهم يقهروا الاغتراب وتمتدُّ أمامهم الآمال ، وتُرسمُ الأحلام ، لغد أفضل لجزائر الإسلام ويعود لمدنها بهاء العلم يزيّنُها كما كان دائما فلقد كتب الجنرال" **بيدو"** قائد فرقة قسنطينة العسكرية تقريرا عن التعليم العمومي الأهلي في الجزائر يقول فيه : " ... لا جدال في أن مدينة قسنطينة كانت منذ الفتح الإسلامي مركزا رئيسيا بالمنطقة ، أو ببايلك الشرق كما كانت تسمى ... وعند الاستيلاء عليها سنة 1837، كان يوجد بها خمسة وثلاثون مسجدا وسبع مدارس، تتسع لعدد من التلاميذ يتراوح بين 600 و700، ويتلقون فيها ما يعرف بالتعليم الثانوي... وفي نفس الفترة كانت بالمدينة تسعون مدرسة ابتدائية يتردد إليها حوالي 1350طفلا "[2] تغيرت هذه الأرقام بعد دخول المستعمر المدينة ، فشعا ر التّحضر الذي كان ينادي به العدو ما هو في الحقيقة إلا مجرد أكاذيب فضحتها التقارير التي أعدّوها بأنفسهم فعدد المدارس في مدينة قسنطينة وحدها " ... قد انخفض إلى 30 كما انخفض عدد التلاميذ إلى 350. وهكذا نلمح فروقا مؤسفة جدا "[3] جعلت الجهل يتفشى بين الأهالي خاصة بين الفقراء المعدمين الذين لا طاقة لهم بإرسال أبنائهم إلى خارج الجزائر للتعلّم الذي لم يتسن إلا للمحضوضين الذين كان يحتفل بنجاحاتهم لأنّهم الأمل في الخلاص من هذا الوضع المزري .

يقول **الزاهري :**

" مَضَى نَفَرٌ يَبْغِي المَعَارِفَ مِنْ بَنِي ال جَـزَائِــر حَـتَّــى آبَ أوْبَـــة ظَـافــر

فَأهْلاً وَسهْلاً بالذِينَ (تَطوَّعُوا) لخِدْمَـة هَذَا الشَّعْـب شَعْـبِ الجَزَائر

شَبَابٌ لعمْر الحَق لَــمْ يكُ فيــهم سِوَى حَازِمٌ ، عَـفُّ الطَّــويَّة طَاهِر

تَجَـلوا عَلَى هَذِى الجَزَائِر، بَعْدَمَـــا سَجَى الجَهْلُ أشْبَاه البُدُور الزَّوَاهر"[4]

<u>1 - اغتراب شعراء ما بعد الاستقلال:</u>

1- أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص : 33.
2- عبد الحميد زوزو : نصوص ووثائق ،ص:209.
3- المرجع نفسه، ص : 209.
4- صالح خرفي : محمد السعيد الزاهري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر د ط ، سنة : 1986، ص : 93- 49.

جاء الاستقلال واستنشق أدباء الجزائر عبير الحرية التي طالما بكوا على أطلالها ، وكبرت الآمال في أن يزول الاغتراب بشتى أنواعه وهاهو **"مفدي زكرياء"** يعلنها ثورة :

"إذَا مَا انْتَصَرْنَا بِحَـرْبِ الخَـلَا ص فثَوْرَتنَا اليَوْمَ حَرْب أصَالَـة

نَهَضْنَـا لمَعْركـــةِ المُسْتَـــوَى نَرَبِّي النُّفُوسَ ، ونَغْزُو الجَهَالَة

وَيَـــصْنَـــع إيـمَـــانُـــنــا أمَّـــــة قـــوَامًا فتَرْجُفُ مِنْـهَا الضَّلَالَـــة

وَإنْ يَنْصُر الشَّعْبُ حَرْبَ الضَّمِير أقمْنَا بوَحْي الضَّمِيرِ احْتِفَـــالَـــه "1

فبعد ما أذن فجر **نوفمبر**، وتحققت الرؤى وأصبح الحلّ والربط بأيدينا كان لزاما علينا أن نبعد الاغتراب عنا فننعم بالطمأنينة،ولكن الملاحظ في شعر ما بعد الاستقلال أنه جاء محملا بالغربة والاغتراب بل حتى العناوين في بعض القصائد والدواوين جاءت موشحة بوشاح الغربة مثل المجموعة الشعرية "بين وطن الغربة وهوية الاغتراب " للشاعر **" محمد بلقاسم خمار "**

ففي هذا الديوان تواجهنا أول قصيدة له في المجموعة كتفسير للعنوان فينفث عبرها ألمه الذي يحترق به .

نَفثاتُ شَاعَرٍ يَحْتَرِقُ

مَجْنُونَـــةٌ.. يَا أنْـــت يَا بَلَــدِي

يَا فِـكْـرَةً حَـــــبُلَــت .. وَلَــــمْ تَلِــد

عَرَبِيَّــة .. قـالُــوا .. وَمُسْلِمَــة

لَـكِنْ بِلاَ لُـغَــة، وَلاَ سَـنَـــــدِ

سَيْفُ الأمِيرِ .. ضَـــاعَ مُغتَـرِبًا

عَبْدُ الحَمِيدِ ..وَمَاتَ مِن كَمَـدِ

وَالعَاشِقُونَ .. مَلَايين مَوَا كِبُهُمْ

ذهَـبَـــتْ بِـــلَا زَاد، وَلاَ مَـــــــدَد "1

[1]- يحي الشيخ صالح ، شعر الثورة عند مفدي زكريا ، دراسة فنية تحليلية ، دار البعث ،قسنطينة ، ط:1 ، 1987، ص: 225.

إن اللغة مرتبطة بالدّين، واغترابها يعني اغتراب الدّين، وضياعها يعني ضياع سيف الأمير الذي حارب من أجلها، وعبد الحميد وملايين العشاق الذين تغنوا بالتعريب

ومضوا دون أن يروه مجسدا.فالغربة كانت قدر الأمير والاغتراب كان قدر لغته، فقرن وربع من الاستعمار ترك أثارا بالغة في اللغة العربية إذ أنها حوربت طيلة فترة الاستعمار وغيّبت عن المدارس الرسمية والإدارات فأصبح المبدع باللغة العربية في صراع من أجل إثبات وجوده ، لأن التُربة تحت قدميه لم تكن صلبة بما يكفي لانطلاقه و" الذي ساعد على بقاء الجزائر قرنا وربع قرن تحت الاستعمار هو الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه، والذي جعل كل شيء صامتا لا ينبس، وهادئ لا يتحرك ،راضيا لا يتمرد "2

8) الاغتراب العرفاني:

_ إن ابتعاد الإنسان عن موطنه في الجنة ونزوله إلى الأرض قد أسكن في نفسه شعورا بالاغتراب،والمتصوفة أكثر النّاس إحساسا بهذا الاغتراب فقد ذكر" **ابن عربي"** الغربة فقال:" إن أول غربة اغتربناها وجودا حسيا عن وطننا،غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون أمهاتنا فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنا عنها بالولادة "3.إنها سلسلة متصلة من الاغترابات، والدُّنيا للمتصوف أصعب غربة يمرّ بها ، فهو فيها ما بين قلب عاشق متلهف إلى العودة لنقائه ليكون جديرا بالرجوع إلى الجنة ، وبين نفس أمارة بالسُّوء لذلك فهو في صراع معها ليروضها حتى يصل بها إلى الاطمئنان قال تعالى(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28)فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي)[4]

9) الاغتراب الجمالي

إن الجمال يتجلى في الإبداع ، وإبداعنا يعاني اغترابا لكونه لا يصل إلا لفئة قليلة من المتلقين،وهذا ليس من اليوم فالمشكلة قديمة قدم القول الشهير **للصّاحب بن عباد** "بضاعتنا ردت إلينا " حين استلم موسوعة **ابن عبد ربه (العقد الفريد)** فالإبداع المغاربي عامة والجزائري خاصة يعاني اغترابا خارج حدوده الجغرافية ، هذا من جهة المتلقي المشرقي ونحن لا نلومه لأن دراستنا لتراثنا قليلة بل" لا يبدو الشعر الجزائري القديم

---

[1] - محمد بلقاسم خمار : بين وطن الغربة وهوية الاغتراب ص :17.
[2]- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص :32
[3]- محي الدين بن عربي : الفتوحات المكية ، ج 2 ، ص : 527-528.
[4]- سورة الفجر ، الآية: 27-28-29-30

(والمغاربي بشكل عام) ذا حضور بارز في ذاكرة الشاعر والمثقف بل وعلى خريطة الشعر كلها"[1] وذلك لأن الأدب الجزائري بصفة عامة عاش"منذ وجد إشكالية وجودية تنبع أساسا من خصوصيات بيئته ومظاهرها البشرية والجغرافية"[2]

فالأديب عندما يبدع ينطلق من نقطة المركز، من مكانه المتواجد فيه ومن زمانه المعاصر له فإذا كان يشعر باغترابه الزماني والمكاني فان النّص المُبدَع سيحمل من شظايا نفسه المتصدعة الشيء الكثير.وهذا ما باح به "**محمد بلقاسم خمار**" في مقدمة مجموعته الشعرية "**بين وطن الغربة وهوية الاغتراب**" : "إنني شخصيا لن أشعر بأي سعادة أو اعتزاز لو أصبح العالم كله يعرفني ، وفي الوقت نفسه أكون مجهولا في وطني." فمعاناة المبدع الجزائري نابعة من إحساسه بالتّهميش داخل وطنه ، فهو لا يشعر بأهمية إبداعه، ولا يجد له متذوقا .

فالاغتراب كان قدر إبداعات الأدب الجزائري القديم ولا يزال مرافقا له في العصر الحديث والمعاصر.

خاتمة

بعد دراستنا المتواضعة لظاهرة الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري ، بدأنا بضبط المصطلح :

ووجدنا أن الاغتراب في اللغة يعني الذهاب والتنحي، أما في الاصطلاح فالمعنى حسب كل مجال من المجالات.

ففي المجال الديني : كان يعني انفصال الإنسان عن موطنه الأصلي وهو الجنة .

ولقد تنوعت الغربة في الإسلام فكانت:

- غربة محمودة :وهي غربة المؤمن بين الكفار.

- وغربة مذمومة :وهي غربة الكافر بين المؤمنين

- وغربة لا ممدوحة ولا مذمومة :وهي غربة المكان، وقد وجدنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم تمنى للذي مات بمسقط رأسه لو أنه مات غريبا .

---

[1]-عباس بن يحي ، وعي الذات فرص ضائعة وافق مفتوح ، حول الهوية في الشعر الجزائري الحديث ، ص : 20.

[2]- عبد المالك ضيف ، خطاب الانتماء في النص الشعري الجزائري المعاصر ، دفاتر الشعرية الجزائرية ، جامعة المسيلة ، العدد الأول ، مارس ، 2009 ، ص: 5 .

ثم عرجنا على مفهوم الاغتراب عند الفلاسفة مثل "ماركس" ، "هيجل" ثم أنهينا الجولة بوقفة مع الاغتراب في الشعر العربي ، وخرجنا بنتيجة مفادها:

أن لا فرق بين الغربة والاغتراب في اللغة بينما في المصطلح : تحافظ الغربة على معناها فهي تمس المكان ، أما الاغتراب فانه يتعلق بالنفس لذلك تتعدد مفاهيمه

كما وجدنا من خلال دراستنا للشعر الجزائري أنواعا مختلفة من الاغتراب فحاولنا دراسة الاغتراب من الناحية النفسية والاجتماعية فكان اغتراب الشاعر الصوفي الجزائري اغترابا ايجابيا على العموم .

فلم يكن اكتئابا ،ولم يكن استلابا ، ولم يكن لا انتماء إنما هم شعراء اغتربت أرواحهم مع اغتراب الدين في هذا الزمن ، فسكن الاغتراب شعرهم .

وأخيرا نأمل أن نكون قد لامسنا ظاهرة الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري ، و لا يزال الموضوع في رأينا يحتاج إلى بحث أوسع وأعمق.